

المكتبة الأهلية . بمصر

غرائب الغرب

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

كلا... وقل...ية : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وسويسرا ، ... ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والاستانة ، ومصر ، والشام في ... لى ما ... شرق بالغرب ، والغرب بالشرق ، منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات العون ... مى ، والعربي منه خاصة ، في جنوبي ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الاول

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ المطبعة الرحمانية - بمصر ١٩٢٣ م

غرائب الغرب

الطبعة الثانية

مقدمة الكتاب

هذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها فى وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات الاولى فى شتاء سنة ١٣٢٧ (١٩٠٨و١٩٠٩) والثانية فى شتاء سنة ١٩١٣–١٩١٤ م والثالثة فى سنة ١٣٤٠ (١٩٢١ — ١٩٢٢) وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل فى مطاويها من تلك المدنية الساحرة الا بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ويتفطن له فكر النزيل والدخيل .

وقد أبقيت ما كتبته فى حينه بحاله لم أدخل عليه أدنى تعديل ليقف القارىء على ما كتب برمته راجياً من كرمه تعالى أن ينفع بها قراء العربية ومنه أستمد العون والتيسير نعم المولى ونعم النصير .

محمد كرد على

دمشق ١٩ صفر سنة ١٣٤١ و ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢

الرحلة الاولى

الرحيل من دمشق الى لبنان

١

كان من أعظم أمانى النفس منذ بضع سنين . ان أرحل الى أوربا رحلة علمية أقضى فيها ردحا من الدهر ، للتوفر على دراسة حضارة الغرب فى منبعثها ، وأستطلاع طلع المعاهد ، التى منها نشأ المخترعون والمكتشفون . والفلاسفة المنزهون . والعلماء العاملون ؛ والساسة المستعمرون ، والقادة الغارون ، والتجار والصناع والزراع والماليون ؛ وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها

وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن اتمامه ، وتحول دون البغية المنشودة الى أن قدر الله فأقام والى سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحتال انتقاماً لنفسه لاقفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان وقت الرحلة فى طلب العلم تتفرغ لتحقيق ما فى الخاطر ، ريثما يتبين الحق من الباطل ، والحالى من العاطل ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

فى الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧ ﻫ ١٩٠٨ م) ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين ، قاصدين قرية القابون وفى ظاهرها وقفنا لحظات الى أن وصلت فرسى ووصل صديق لى آخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان الى المدينة ، وكان بدأ فى تلك الساعة الاشراق فى الافق ، والسكون لم يبرح مستحوذاً على الارباض والرياض ، ولم نكن نسمع من بعيد غير قعقعة أجراس الطحانين والمكارين ، وصياح الديكة أو عواء الكلاب ، وما كدت أعلو متن مطيتى حتى ترامى الى مسمعي صوت مؤذن القابون ينادى

« هلموا الى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت : كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها ، لرحموا ولكنها جمل جميلة تقال ، ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألفت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة فى صلاح المعاش والمعاد

التفت الى الغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة وهى أحب بقعة الى قلبى فى الارض وقد كثر فى أفقها شفق الفجر فذكرت طرفا من أيامها البيض والسود . ذكرت الغوطة المحبوبة ، وذكرت مطامع البشر ، وانحطاط أخلاقهم وعقولهم ، فقاد ذلك الى التفكر فى شقاء الانسان بالانسان ، وموت بعض لحياة كل ، وافتقار مئات لاغناء أفراد ، وشقاء ربوات ، لسعادة عشرات . وتعب فريق ، لراحة أمة ، فتمثل لى عجيب صنع المولى فى خلقه ، سبحانه لا يبقى العالم على حال ، هو المعز المذل ، القابض الباسط ، المغنى المفقر ، يقلب الارض ومن عليها ولا يرثها الا عباده الصالحون .

سارت بنا مطيتانا ، فاجتزنا قرية برزة ومعربا ، ولم تشرق الشمس الا وقد قطعنا أراضى معربا وأشرفنا على اكماتها فالتفتنا الى ماوراءها وقد تجلت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال . فألقيناعليها نظرة الوداع ، وأغذذنا السير الى بسيمة ، ومنها الى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد ، وفى هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر .

ولم أشهد هذا الوادى وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاما شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس ، فالفلاح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة ، ان سلمت أشجاره من لفحات الجليد ، يرتاش تلك السنة ويعتاش ، برمانه وجوزه ، وتفاحه وكمثراه ، وتينه وعنبه ، والا فيضطر فى الاكثر الى الاستدانة على الموسم المقبل ، وان كان على شيء من القوة والجلد ، يرحل الى بعض الكور المجاورة كقرى وادى العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر الصيف ليأتى فى الشتاء بمؤونة تكفيه من الحنطة فى كنه وكانونه .

وذلك لان هذا الوادى منذ قرية دمر حتى سوق وادى بردى لا يغل من

الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة ، لغلبة اليبوسة على جروده وجباله ، ولأن أكثر تربته صخرية ، تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة ، لتأتي أكلها . أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا ، فالفضل لنهر بردى في اروائها ، يأخذ من مائه في مجاري يعليها بقدر حاجته أو أكثر .

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأتي أصحابها بأرباح أكثر من السنين السابقة خصوصاً منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت — دمشق — حوران وسكة دمشق — حيفا — المدينة وسكة دمشق — حلب — بيره‌جك (البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية ، وكانوا يقدمون أكثرها في سني الخير علفاً للدواب ، أو يلقونها في الطريق ، لان العطلة في نقلها من محلها الى دمشق أو بيروت مثلا على الدواب لا تقوم باجرة المكار ودابته .

نعم لم أر ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادي بردى (البيلية) وأنى يتم له ارتقاء ، وليس له طريق يسلك ، غير ما حفرته أقدام المارة ، وحوافر الدواب والماشية ، وجرفته السيول والرياح منذ قرون . فالطرق المعبدة المطروقة لا أثر لها في هذا الوادي ، ولعل ذلك ناشيء من كونه حديث عهد بالحكومة المنظمة ، فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة أما الآن بعد ان غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات ، فقد بات يرجى أن تنظم لاهل قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة الولاية ، ليتيسر للناس الغدو والرواح ، من أيسر السبل ، وما إخال ذلك متعذراً على الحاكم اذا حث أهل كل قرية أن يقوموا بأنفسهم ، لتمهيد طريقهم ، أيام انقطاعهم عن العمل ، كفصل الشتاء مثلا لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم عنها ، أو يعملونها بواسطة الموظفين الأمناء ، وان كانت هذه الطريقة لا تخلو من محظور لأنها تؤدي الى السخرة ، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأساسي وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة .

وبعد فانه لا وجود فى وادي بردى لسائر المرافق التى يتمتع بها الفلاح فى البلاد المتمدنة ، وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهمها من الفلاح الا أن تأخذ منه لا ان تهيء له سبيل الاخذ . فكان قصاراها تكثير الجباية ، وتوفير الضرائب ، وأخذ من تريده للخدمة العسكرية ، أما امتاع الاهلين بالوسائل الصحية ، وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ ، وفتح سبل المواصلات ، ورفع علم الامن ، وتعليمهم الضرورى من القراءة والكتابة ، فكانت أموراً لا تعرفها لافى وادى بردى فقط بل فى جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها .

ومن أغرب ما رأيناه فى وادى بردى ، ان بعض قراها تحفر القبور لموتاها أمام الدور ، فترى حى الاحياء مع حى الاموات ، وما أدرى هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة فى مدافنها اذا لحدودها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات ، أو انهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم ليذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار البقاء ويزهدوا فى دار الفناء ، فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء .

ومما عمت به البلوى فى الفلاحين ، إنك ترى القاذورات أيضاً تعمى العيون وتخنق الانفاس ، فترى روث البهائم وغائط الآدميين ، وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها ، ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آبائهم وشيء من جودة الهواء فى الجملة فى القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الاقليم ومن حوله .

ركبت صبيحة العيد ورفيقى قاصدين سوق وادى بردى ولعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة فى أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلا سوق الاحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير ، ولهذه الاسواق أمثال فى أوربا ، وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادي وينقطع العمران ليخرج منه الى منفسح وادى الزبدانى ، وجبال السوق لا تخلو من

نواويس قديمة على نحو ما تجـد منها فى جبال الشام محفورة فى الغالب فى القمم والآكام . ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عيتا الفخار من أعمـال البقاع العزيز ، وهى القرية التى اشتهرت منـذ عهد بعيد بفخارها الذى تطبخه أكثر بيوتها فى تنانير خاصة وتبيعه فى المدن الداخلية من أعمال دمشق

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطللنا على عيتا ، ورأينا بيوت القرميد التى بنيت بالحجر النحيت على المثال الذى نشاهده فى أكثر بيوت سورية وعلمنا ان سبب ما شاهدناه من جمال المساكن فى عيتا ، تلك الاموال التى جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا ، وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالسكنى ثانية فى عيتا أن يظهروا غناهم بانشاء الدور المنظمة ليصح عليهم المثل العربى « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها » « ان الغنى طويل الذيل مياس » أو الاثر المشهور « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وليس كالبيوت تنم عن يسار وتدل على سعة ، وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فلالا فبعلول من وادى البقاع وفى هذه القرية بتنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا ، ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض ، وفى المعاريض مندوحة عن الكذب .

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ، ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان أهل كل قرية فى الغالب يؤثرون فى بلاد المهجر اقليما خاصاً لهم ينزلونه أو مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد مثلا أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالى أميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرين ينزلون كنداوغيرهم اوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال . فكان عدوى الانتقال تسرى اليهم بالعشرة ، فلا يحب المواطن الا أن يقلد مواطنه فى مآتيه ومنازعه ، بل فى شقائه وسعادته . وقد أذكرنا هذا بحال العرب فى الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلد كذا واليمانيون اقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس

كان جند الشام يختار بقعة غير التى اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك فى لولايات المتحدة .

وفى اليوم الثالث قصدنا مشغرة فررنا بجسرها المخرب الممتد على نهر الليطاني وأنجدنا قاصدين جزين أول حدود لبنان الى الجنوب ، ومشغرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة فى البقاع الغربي وهى مشهورة الى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر ، والمسافة بين مشغرة من أعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ، ثم تنحدر فى وادعميق

ومع ان قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته ، وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرقى ، ومتاخمته لجبل لبنان الذى يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار ؛ ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والاراضى الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولا اعوذجية حقيقية وصرفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالاراضى التى عمرها نجيب بك سرسق فى عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون فى تعنايل — مع كل هذا العمران المستبحر ، وما تأخذه النافعة من أموال الاهلين كل سنة باسم الطرق والمعابر لا ترى فى القضاء طريقاً مسلوكا اللهم الا طريق الشام القديم الذى تركته شركة الديليجانس لما أنشئ خط بيروت الحديدى ، وقيل لنا ان الحكومة صح عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشغرة فى غربه وان هذا الطريق وصل أو كاد الى قرية عيتنيت ولعله يكون جسما لا اسما كأكثر الطرق التى أنشأتها النافعة فى الولايات فكانت لفظاً بلا معنى واسما بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل فى سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الاوطان .

وصف لبنان الطبيعى

٢

كنت فى لبنان أشبه بأبى زيد السروجى أو ابى الفتح الاسكندرى احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروى كل منهما لمثل الحريرى أو بديع الزمان تلك المظاهر التى اضطررت الى الظهور فيها لانجو من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتيسر لى درس حالة البلاد بدون حجاب .

فقد قيل : اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ؛ ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء ، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطاف بينهم ، أو سائح فى جبالهم ، والوقوف على مقصده ، ومبلغ ثروته ، والدين الذى يدين به ، وربما كان سؤالهم عن الاخير قبل كل شىء لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشا كلهم فى المعتقد ، وأنى لمن قضى عليه شدة اخلاصه فى خدمة وطنه ودولته ، أن يصرح لهم بهويته ، وهو مشرد طريد . محكوم عليه بالجناية حكما قرهقوشياً

ودعنى رفيقى غداة وصلنا الى جزين وعاد الى الفيحاء وبقيت وحدى لا رفيق لى الا كتابى وفرسى ؛ فانقلبت لساعتى من جزين قاصداً دير القمر ، فاجتزت اليها بتاتر وعماطور والمختارة وغيرها ، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشى فيه وسط أشجار الزيتون وهى غابات غبياء فى الشوف كما ان أشجار الصنوبر كذلك فى قضاء المتن ؛ ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصبة بأبنيتها الشاهقة كالعروس فى حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها . فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان من أجمل منظر تقع عليه عين انسان وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقة وحسن العشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت

حاله ، وفى هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمراء لبنان ولا يزال الديريون يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقيم فيه الصلاة

وقصبة الدير بكثرة سكانها ، وتوفر مرافق الحياة فيها ، أشبه بالمدن منها بالقرى ، وهى مشهورة بتجارة الحنطة تحملها اليها من حوران فتوزع فى الاطراف وليس دير القمر وحيداً فى نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم نفوسها الى خمسة وثلاثين وتكثر النفوس فى حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت مرى وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبدا والشوير وحصرون والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجدل المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهمج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفرذبيان والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفى غير ذلك من القصبات التى يعد فيها النفوس بالالوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً فى المحال التى ترتفع كثيرا عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها فى الشتاء لكثرة ثلجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وست وخمسين قرية[1] الا بقصر فخم جميل ! واسع الارجاء ، محفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية ، وغرفه الكثيرة تلك الدساكر والضياع ، لا يكاد المتجول يمل من مقصورة ، حتى ينتقل الى أخرى ، وما أسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبدة ، وهذا القصر مزدانة أفنيته وأروقته بأقصى ما تخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً فى تعهده

معنى لبنان الأبيض ، وهو اسم عبرانى سمى به لتعمم قممه بالثلج فى الشتاء والربيع وبعض الصيف ، وقد ورد ذكره فى الشعر القديم ، فقال النابغة الذبيانى :

---

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود

حتى غدا مثل نصل السيف منصلتاً يقرو الاماعز من لبنان والا كما

وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراسانى الطرابلسى من المحدثين :

دعوني لقاً فى الحرب أطفو وأرسب ولا تنسبونى فالقواضب تنسب

وان جهلت جهال قومى فضائلى فقد عرفت فضلى معد ويعرب

ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضباً فمن بعض ما بى ساحل الشام يغضب

وكيف التذاذى ماء دجلة معرقا وأمواه لبنان ألذ وأعذب

فمالى وللأيام لا در درها تشرق بي طورا وطورا تغرب

وأنشد المتنبي فى مدح أبي هرون بن عبد العزيز الاوارجى من قصيدة :

بيني وبين أبى علي مثله شم الجبال ومثلهن رجاء

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحترى :

وتعمدت أن تظل ركابي بين لبنان طلعاً والسنير

مشرفات على دمشق وقداء رض منها بياض تلك القصور

وقال الجغرافى اليزه ركلو من المتأخرين يصف لبنان : اذا ما القيت ببصرك من البحر ، الى سلسلة لبنان المستطيلة . رأيت من هذا الجبل منظراً مهيباً فيلوح لك أزرق أو ورديا فى الصيف ومشتملا فى الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضى واذا تصاعدت الأبخرة فى الجو ألبست قممه الشامخة ثوبا شفافا هوائياً ، غاية فى اللطف ؛ بيدأن جمال هذا المنظر ، لا يخلو من سطوة الشدة ، فترى ذاك الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم فى وجهه قائم على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كثب هى دون جماله عن بعد فترى ظهره على طول ١٥٠ كيلو متراً ، أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة ، أوديته متشابهة ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد

وقال الأب لامنس : أن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من

الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي وفى الجهة الشرقية تراه ينقطع بغتة . أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعا متعددة على هيئات شتى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها فى بعض ، واذا استثنيت هذه التفرعات الثانوية والتجعدات غير المنتسقة ، تحققت أن سلسلة لبنان العظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية ، وجانب كبير من البساطة ، ولذلك قلما ترى فى لبنان تلك المناظر المتباينة التى تقر بها العين ، وانما يقع البصر على حاجز كبير فى حدود الأفق . يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه

ووصف شكله أيضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلو متراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلو متراً ، ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلو متراً ؛ فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتيه العلويتين اهـ

قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مربع يحده جنوبا صيداء وأعمالها وشمالا طرابلس وكورتها . وشرقا ولاية سورية وغربا البحر المتوسط ومدينة بيروت ، هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربى والاصل فى التسمية ، ويطلقون اسم لبنان الشرقي على وادى التيم وجبل الشيخ (حرمون) أى على قضاءى حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبنانين وحدّه القدماء فقالوا : انه جبل مطل على حمص يجيء من العرج الذى بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ، ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك اللكام ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفى لبنان سبعون لسانا لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزروع من غير ان يزرعه أحد وفيه يكون الابدال من الصالحين ، وقال القلقشندى ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور

دمشق واذا صار فى شماليها سمي جبل سنير •

وعلى ذكر الصالحين نقول أن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير فى كلامه على العلم والمتعلمين فى الشام فى القرن السادس للهجرة ما نصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد ، يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة ، ويلتزم الامامة أو التعليم أو ماشاء ، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودى فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء ، ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم ، وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة ، والظلال الوارفة ، وقل ما يخلو من التبتل والعبادة وقال ابن بطوطة فى القرن الثامن : أن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك ، ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قلنا : ولذلك نرى المعروف اليوم بالاحصاء ان فى لبنان نحو ألفى راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التى لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبنات والاديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة فى السنة كما أكد بعض العارفين ، وهو نحو ثلث ايراد لبنان وفيه المحابس التى ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون فى مغارة أو مكان منفرد يتعبدون فى الخلاء ، زرت أحدهم فى مديرية القاطع فرأيته متوفراً على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقتــه فى النسك والصلاة ، ولو قام كل امرىء بالواجب عليه فسمي

للمعاش سعى هـذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل احتياجنا للحكومات وقوانينها ، وهذه المحابس [1] قديمة فى لبنان ترد الى عهد هيلاريون الناسك أو قبله وفى عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرفند عند الجسر صخر عال حفر فيه نحو مائتى كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم

وبالنظر لتوسط لبنان من سورية كان نافعاً بعمرانه لهـا بطبيعته فكأن علو قممه — وأعلاها ظهر القضيب علوه ٣٠٦٣ متراً ثم فى الوسط جبـل صنين وعلوه ٢٨٠٦ متراً وأعلى نقطة فى جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكاثر ضبابه وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون من عصاراتها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم فى عمران الشام ، فمن سفوح لبنان تنبجس أعظم أنهار سورية فنهر العاصى الذى يروى أراضى وادى حمص وحماة وانطاكيـة ينبجس من الهرمل فى شمالي لبنان ونهر الليطانى الذى يروى بلاد صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينبع من لبنان ونهر طرابلس المسمى بنهر أبى على ويعرف قديمـا بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب وبيروت اللذان يسقيان مدينـة بيروت وضاحيتها ينبجسان من السفح الغربى من لبنان ونهر البردونى الذى يسقى زحـلة وبعض البقاع هو لبنانى المنبع أيضاً ، ومن لبنان الشرقى ينبجس الاردن « الشريعة » كما ينبجس من غرب لبنان الغربى نهر ابراهيم

فلبنان فى فائدته لسورية أشبه بجبال الالب فى سويسرا أو بنيل مصر من حيث امتداد المنافع ، وللالب والنيل المثل الاعلى ، وفى لبنان عـدة ينابيع منها نبع الاربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد زرت هاتين الاخيرتين

وصلنا الى الباروك فى زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز مصرفية لبنان الصيفى وكفرنبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك فى واد منفرج

(١) تسريح الابصار

قليلا تنبع عينها على قيد غلوة منها ، أما المصطافون فيها فيختارون فى الغالب النزول بالقرب من رأس العين فى نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبثوثة على آكام الباروك وجبالها ، فتوفر لهم بذلك الى جودة الماء التى ما بعدها جودة فيما أظن : طيب الهواء ونسيم الأرز والصنوبر العليل البليل ؛ ومن الباروك الى عين زحلتا ساعة على الراكب ، وفى هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنبع الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان فى ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها ، وخصب واديها وحراجه الغبياء ، وعين الباروك وعين زحلتا على مساماة واحدة فى العلو ؛ وماؤهما يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلتا الى عين صوفرمارا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف فى العربة أو على الراكب وهذه العيون يدفع بها كلها فى سقى الحدائق فى القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حمانا وقرنايبيل فصليما فعبدات فبحنس فبكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة . وهنا قضيت مع صديقى الابرامين أفندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياما رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدا القطر المصرى فأوروبا ؛ هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهى جزين والشوف والمتن خليقاً بأن أتكلم على الجبل خصوصاً ولم ينقصنى منه الا قضاء الكورة فقط

نبذة فى تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان فى دور من أدواره عن كونه معقلا حصيناً كل من ساده يكون فى الأعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به

جيرانه من أهل البلدان الأخرى . ولقد كان تاريخه السيامي كتاريخ معظم لمقاطعات السورية استقلالا وخضوعا للغريب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها فى غيره من أقاليم الشام

والغالب ان قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الايتوريين العربية أو أهالى جيدور حوران فى عهد الروم . والايتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفأ من الجيدور واللجاه بلاده ونزل البقاع فانشأ له مدينة شالسيس أو عين جر (عنجر) جعلها عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان ويتقدم الى الامام حتى تيسر له ان تسور قممه وأخضعه لسلطانه ثم انحدر الى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً [1] وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لا تفسهم طولا ولا حولا .

ثم خضع هذا الجبل للفاتحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة [2] فى الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الامير فخر الدين الذى عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمرائهم الأمير بشير المالطي الثانى ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذى حكم الشام سنتين فى القرن العاشر فيما ذكر .

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة يطيلون أيدى اعتدائهم على أبناء السبيل فيخطفون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان عساكر المسلمين معهم بين عدوين هم فى جبال صنين أو الظنيين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التى انهالت على هذه البلاد

(١) تسريح الابصار (٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل

كسيل العرم ان نجا المسلم من التترى لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩) ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فما لم ينجع النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالا هائلا بزعامة جمال الدين اقوش الافرم نائب دمشق . والغالب أن سكان كسروان كانوا اذذاك خليطاً من النصيرية والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة

ومازال نواب الشام[1] الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون يحاربون النصيرية فى كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قوما من التركمان فى بعض النواحى وبقى كثير من المتاولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما استخلص ساحل لبنان ، ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدى الافرنج سنة ٥٨٣ فرتب[2] فى جبيل قوما من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها الاكراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر والرجال .

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع كرومهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا فى البلاد أيدى سبا.

ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركوهم[3] بثلثمائة فارس وجعلوا دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربند نهر الكلب الا بورقة طريق من المتولى أو من أمراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية[4] على درب مصر وجعلوا التركمان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم فى الدرك شهراً لحفظ الموانى والدروب . وفى سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيي (٢) معجم البلدان لياقوت (٣) تاريخ بيروت (٤) قرية في طريق مصر وسط الرمل كانت المجاز بين مصر والشام وقد مررت بها وأنا منهزم من وجه حكومة سورية في ربيع سنة ١٣٣٠

تلاوون الى جمال الدين وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر الى جهة كسروان والجرد ان يتوجها اليه بجموعهما وأسر تيهما وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكا ومن أحضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم . وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن أمراء الشام الا بعد ان طفح كأس صبرهم من تمرد الكسروانيين .

واختلف العلماء فى أصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجاً واحدا كما هو حال معظم البلاد ، فانك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران فى الداخلية ولا سيما فى القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء قوماً من الفرس يسكنونها . وذكروا أيضاً ان أبا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الامير ارسلان وأخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما فطابت نفس الخليفة بهما فأمرهما أن يسكنا فى جبال بيروت الخالية من السكان وأنعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم فى كسروان وأخذوا يشنون الغارات على مجاوريهم ، وفى بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى ، وتقوى الأمراء الارسلانيون بعشائرهم وعمروا العمائر فى الشويفات وجوارها

أما الموارنة فكان أول منشأهم فى شمالي سورية فى الاغلب ينتسبون الى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلكة فى أمر جوهري فى المعتقدات جاؤا شمالي لبنان أولا ومازالوا يمتدون ويطردون سكان الجبال الاصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم فى جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والاباء

وزعم بعضهم ان الموارنة لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع

عشر وان جبيـل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا اليهـم ولا للمسلمين أصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدتهم [1] لهم وثباتهم معهم على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢ م ومن أجل هذا اضطر حكام البـلاد أن يحرقوا ويقتـلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهـدن وبقوفا وحصرون وكفر سارون والحدث

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذى كانت عليه صورة الحكم فى البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات . يقوى اليمـانيون تارة والقيسيون أخرى والناس معهم فى أمر مريج ومن التحزبات القيسية واليمانية ما وقع فى الربع الأول من القرن السادس عشر للميـلاد بين الأمير فخر الدين المعنى القيسى وجمال الدين الارسلانى اليمنى . قال المقريزى وعشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل يثور بعضهم على بعض .

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكى نسبة الى يزبك جد الشيخ عبدالسلام العماد زعيمه والجنبلاطى نسبة الى الشيخ على جنبلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩ — ١٧٥٤ وامتدفى لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالمعلوفى والمكارمى ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حـدوث فتن تهرق فيها الدماء وتـكثر الأيامى والاماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جبيل والبترون فخربت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت العـداوة بين بنى سيفا وبنى معن سبباً فى تخريب الجبل أيضاً .

ومن الوقائع التى يتمت فيها الأطفال تلك الوقعة التى جرت فى القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكابينا كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجموش قرب زحلة وأمسك

(١) تاريخ البطريرك الدويهي وتاريخ المقاطعة الكسروانية للختونى

طريق البحر والبقاع على الدروز فقتل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الامراء .

وما زالت حال الجبل فى اقبال وادبار تقع اليوم فتنة الماقورة وغداً وقعة مرحلاتا وبعده وقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول وبعد ذلك وقعة عين دارة حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمرباشا النمسوى والياً فلم تطل مدته حتى منحت الدولة للجبل امتيازات وقسمته فى السنة التالية الى مقاطعات . وتعرف الأولى[1] بقائمقامية النصارى وهى الشمالية تمتد من نهر البارد فى عكا الى طريق دمشق مع بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللمعى وتعرف الثانية بقائمقامية الدروز وهى الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان فى الشمال مع قرى اقليم التفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد عباس الارسلانى أما قصبة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والى ايالة صيداء وكانت قائمقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبترون والكورة وزحلة وقائمقامية الدروز تشمل قضاءى الشوف وجزين وقسماً من غربى البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم فى قضاء المتن وفرض على لبنان فى كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال على ذلك الى سنة ١٨٦٠ وقد اشتعلت جذوة تلك الفتنة المشؤومة بين الدروز والنصارى فى لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالا ادارياً بأن جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق .

وللحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من بدلات حاصلات الاراضي الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات والعجلات وتعدل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز فى ميزانيته وفى لبنان ألف

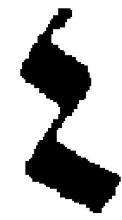
---

(١) دوائى القطوف

جندى لبناني بادارة أميرالاى لبنانى وفى بيت الدين فرقة من الجنــد العثماني المحافظ وعليها أميرالاى بادارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبـل الآن أن تزيد الضرائب قليلا ليتيسر لهـا القيام ببعض الاصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم فى سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا أن معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعادل لها اليوم الا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار وهم يعتبرون أن هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الامرالى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهـم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهـم فى الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشـتركوا وسائر اخوانهـم العثمانيين فى الغنم والغرم فليس من الانصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو فى وسط البـلاد ويحسب جزءاً متمما من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتعددت المظاهر والاشكال .

غابات لبنان



ليس فى لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيـه من الاراضي منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسايل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم وأشجارهم وأكثر الاراضى مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض فى الاكثر وليس فى الايدى نص قديم يشير الى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه فى نبذة سالفة عن مؤلفى العرب من ان فيه أصناف الفواكه والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو

كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التى لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة . ولكن لم تخل أرض لبنان فى زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الاشجار غير المثمرة .

وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره فى الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بنى قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذى جدد فى أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة فى بيت لحم . وقالوا انه ثبت أن ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا فى قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه فى بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدونى وضع من خشب الارز فى السد الذى أقامه بين الجزيرة والشاطيء حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين فى سورية ادخلوا خشب الارز فى بناء دورهم .

وكل هـذه الاخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل فى الغالب إلى طرابلس وصيداء وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الاسـلام أساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت(١) كانت دار صناعة دمشق (مسلحتها أو ترسانتها أو ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام وأسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز ألفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهز أسطولا أضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام فى اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعا ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى وهو عطر لرائحة إذا وضع في النار ويحسن فى المشم اذا مسسته بيدك ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء

(١) تاريخ بيروت

لاتعبث به الارضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله فى أبنيتهم وقصورهم وبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم ·

والغالب أن الحكومة السالفة القديمة فى لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لخزينتها وهى السرو والعرعر والارز والصنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله . وقد بدأ النقص فى هذه الاشجار ولاسيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره والى اليوم لا يزال من الامثال العامة السائرة فى الجبل « الله يقطع رزقه » أى مايملك من شجر و« الله يخرب زوقه » أى بيته — قاله فى الدوانى

مثال ذلك أن الامير أحمد المعنى طرد المشايخ الحماديين المتاولة لما كثر بغيهم فى كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم فى القرن الحادى عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدمر — كما فى تاريخ بيروت — نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان فى دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عما فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما أحب عدم تصديع أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذاك العهد اجتهد أهل الشوف فى قطع شجر التوت وتعطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته . قلنا ومثل ذلك مانشاهده فى أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فراراً من ظلم ملتزمى الاعشار واشتطاطهم فى تقاضى العشور عليها اضعافاً مضاعفة

ولم يبرح شجر الارز موجوداً فى عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الابهل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة

النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف فى تلك الارجاء وثالثة فوق قرية عين زحلتا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتجدد بخشبه بعض بيوت المنكوبين ورابعة بين افقا والعاقورة فى جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشرى صغيرة الشجر وعدد شجيراتها نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشرى على علو ١٩٢٥ مترا عن سطح البحر وهى مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقدروا عمرها بثلاثة آلاف سنة . ولا أثر الآن فى سورية لشجر الارز إلا فى أعالي سير ببلاد الضنية (١) فى وادى النجاص ففيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفى الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الارز أو أى كان من شجر الاحتطاب فى الاماكن الخالية ولا سيما فى القمم والقنن لما أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلا لان شجر الارز لايجود فى الغالب الا فى مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التى تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها .

واذا زاد عدد الغابات فى سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتى القدس والزور بتكثير الغابات فى الاماكن الخالية ولا سيما فى المحال التى يعرف انها كانت غابات غبياء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة فى باديتهم كما يتضرر ابن

(١) تسريح الابصار

المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو ابن البادية على ما بقى لابن القرى من رزق

وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني ان يغرس عشر شجرات من أصناف الشجر عله تقتدى بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا يأتى علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كغنى سويسرا أو أكثر والاشجار فى بلادنا أكثر نمواً مما هى فى أوربا لما عرف من اعتدال الفصول ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة فكانت النتيجة ان كثر اليوم تهطال الامطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر خيرها كلما زادت أشجارها وعسانا نقتدى فى سورية بهذا المثال

الهجرة من لبنان



منذ أمن السكان فى لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات الذين طالما اشتطوا فى مطالبهم وبطلت أو كادت السلطة الافرادية الذوقية وقلت الأوبئة والزلازل التى كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلزال الذى عاود لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذى حدث سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة — منذ خفت العوارض الطبيعية والارضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس بإستتباب أسباب الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء الجبل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم العصرية كما ان الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسى البابوى فى رومية يختلف اليه أحبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقتضي التحسين والتنظيم ، والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية ، ويقدرون طعم الحياة قدرها ، ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة فى دور المدم ، ويطلع القرن الرابع عشر ، حتى دخل جبل لبنان فى طور جديد ، فكثرت طرق عجلاته ، حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة ، وتهيئ سبل التنقل على المصطافين فى ربوعه ، وأكثر هذه الطرق فى قضاء المتن ، لانه ظهر لبنان ونقطته الوسطى ، ومقصد المصطافين ، من البيروتيين والشاميين والمصريين وغيرهم . وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواى شمالى لبنان ،

وفى هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة اكليركية و٨ مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من الدواليب وبلغت حاصلاته من الفيالج (الشرانق) سنة ١٩٠٦ — ٢٠٢٧٠٣٠ أوقة ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمن الحرير الذى يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك فى السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان فى كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل فى ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) . وسكانه الآن زهاء أربعمائة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفاً من الموارنة و١٦٠ ألفاً من الروم و٣٦ ألفاً من الكاثوليك و٥٥ ألفاً من الدروز و٣٣ ألفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و١٥٠٠ من البروتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمائة من أهل الوبر يعيشون فى مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الاكف وقد أحصى غليلموس الصورى فى تاريخ الصليبيين عدد الموارنة فى عصره فكانوا أربعين ألفاً وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد أن تكون اللغة العربية انتشرت فى جزيرة مالطة بواسطتهم .

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا فى شؤون الجبل الى هذا الحد الا أن نرسل

جملة فى شغف اللبنانيين بالهجرة الى أميركا وغيرهامن البلاد التى توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا فى بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة فى بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه فى ذهابهم وايابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يساوى هذا النصب .

والذى ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان أول فلاح سورى هاجر الى أميركا أو جرأ سائر السوريين على الهجرة مجذوباً بما اشتهر عن القارة الاميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولان ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلماً ونوراً وأوفرهم نشاطاً ، مضاء وشمماً وادلالا بل ان مجموع القارئين والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاتبين فى مجموع مدن الشام

وأول من دخل أميركا [1] من السوريين الخورى الياس بن القسيس حنا الموصلى الكلدانى من سنة ١٦٦٨ — ١٦٨٣ وأول من دخل أميركا الشمالية فى القرن الماضى الخورى فلابيانوس الكفورى سافر اليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشدودى وأول من دخل الجنوبية المطران باسيليوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتفى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد فى كل سورية ثم كثرت الجالية السورية فى العالم الجديد وأوستراليا وجزر البحر المحيط بل وفى افريقية شرقها وغربها وشمالها وجنوبها

وقدر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن أميركا وثلثهم يرجع الى وطنه والثلث الآخر يموت . ونظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهالكين فى المهجر غير قليل . وأحصى عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً فى الولايات المتحدة وخمسون ألفاً فى جمهوريات

---

(١) الدوانى

أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون الفاً في أميركا الوسطى وعشرة آلاف في أوستراليا وبعض الجزائر والباقون في افريقية والهند والفيليبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون الفاً نصفهم ذكور ونصفهم اناث وربما كان الذكور أكثر

كثرت الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان باقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا في دار الهجرة بلاداً تحتاج الى أيد عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعملون ويدخرون ويقترون على أنفسهم في النفقة على خلاف عادة معظم المهاجرين الى أميركا من أهل أوربا مثلا فآب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال في هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان أول همه أن يعمر له داراً قوراء بالحجر النحيت والقرميد على المثال الذي رآه في بيوت المهجر

وكثر تقليد الناس بعضهم بعضاً ومنهم من اشترى له أرضاً في بلده وطفق الآخر يتجر بما جناه من ذاك الرأس المال القليل . أما الافراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالالوف فقد استوطنوا البلاد التي هاجروها جرياً على المثل العامي « في المطرح الذي فيه ترزق الصق » وهم ان كانت تحدثهم أنفسهم بالرجوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا اذ يتجلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرنسيسكو وبونس ايرس وسان باولو مثلا وبين عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التي ولدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجى البتة أن يعودوا الى موطن آبائهم وهذا القسم ممن خسرتهم البلاد حقيقة والذي يزيد في الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا الى الطرق السافلة في تحصيل الثروة .

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندي أن المضار أكثر من المنافع اذ لا يظهر الى العيان في الغالب الا الحسن . فقد يذهب ألف مهاجر مثلا الى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد أو اثنان فيأخذ الناس يتحدثون في أمرهما وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم في أشق الأعمال ولا يكادون

بعد مرور سنين يوفون أجرة الطريق التى استلفوها من أحد المرابين فى بلدهم أو باعوا فى الحصول عليها أرضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالأمراض وغيرها وهكذا الحال فى مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها :

فان من نظر فى الأمور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة فى قراه ومزارعه التى عمرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلانا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لا يعتم أن تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال اذا دام على هذا المنوال وأموال اميركا تتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الاميركان وننقل شطراً عظيما مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية .

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شئ غير ما يتوهمه من همهم انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفى باطنها الشقاء والحسرة . قالت لى عجوز في صليما وقد سألتها أين رجالكم : « ذهبوا الى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التى عمروها لتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لان ما جمعوه لم يكفهم لاتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد أميركا . » وقول هذه العجوز الذى أحزننى مغزاه ولا تزال الأذن تردد صداه قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء .

أى حسرة أعظم من ان تتوقع أم فى كل أسبوع قدوم ابنها وقد تمضى الشهور ولا تتناول كتابا منه أو زوجة تنتظر بعلها منذ سنين هى وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلها ونهارها لتطعم اولادها من كدها وما هى بمفلحة ، وأى بلوى أكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان شبان الضيعة هاجروا

وأ كثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد فى اسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من متمدنة . ومن شاهد البنات العوانس فى لبنان يدرك سر تعدد الزوجات فى مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الاهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خرابا مردودة من وجوه أحدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التى دخلت لبنان وهى تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هى غنى لبنان وما الثروة فى الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارلكان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب فى بلاد كاف وحده فى غناها ولكن لم تكن بضعة عقود من السنين حتى أمست اسبانيا أفقر بلاد أوربا لان أهلها انقطعوا عن تعهد تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الرافعة من شأنهم .

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول أميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تعهد أرضهم واستثمار صناعاتهم ففى لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفى أهله اذا زادوا ضعف ماهم الآن . ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد ولا يشعر بذلك الا أرباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوى منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشا فأصبحت اليوم تساوى ستين على حين ان غلات التوت مثلا لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدى العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش فى البلاد ولان المهاجر اللبناني الذى كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداً من اجداده اذا هاجر وقضى فى هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود

يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا ظل عطلا من العمل

في أمثال العامة « أنا أمير وانت أمير فمن يسوق الحمير » حكمة لطيفة نافعة تصدق على كل لبناني مهاجر فاذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الاقنية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة .

ولقد قال الاقتصاديون ان من جملة ماساعد المانيا على عظمتها التجارية الصناعية العلمية انك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستنكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف الا به فالالمان أشبه بجيش منظم فيهم الجندى كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لاتحدثه نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدى عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولوجرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما راينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لا تساعده

نحن لانجارى اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور أقلها أن البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الاقاليم القليلة السكان المحتاجة الى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات اليمين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعلبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتاخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلا ما يكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلو نزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من المنافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استعمارها أن يقضوا معظم ايام السنة في جبلهم .

وقد كتب قائمقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية فى قضائه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف قرش فلو اشتراها بعض أرباب الاموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التى ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أتت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من أعمر البقاع السورية فما بالك بما فى غيره من الاقضية والالوية والولايات العثمانية من الخيرات .

لا نوافق القائلين بالاغتناء بسرعـة ، فان ما يأتى بدون عناء كبير قد يذهب فى الأكثر كما جاء . وانا لنؤثر أن يوجه اللبنانيون ، ولا سيما فى عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلية من سوريا والعراق والاناضول ففيها متسع لهم وفيها لهم مغانم كثيرة لو صبروا على جنيها لكان لهم ولأبنائهم وأحفادهم منها مال خالد وملك لا يكاد يبلى .

وفى لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقى لو سعوا الى تحسينه كعمل الاقمشـة والنجارة والحدادة [1] وغيرها وله مورد آخر للربح ينتفع منه الآن أكثر من سائر جبال سورية ونعنى به موسم المصطافين فان لبنان من سورية ومصر كسويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكثيرون كل سنة التماساً للصحة والراحـة فلو عنى اللبنانيون أكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لأتاهم الصيف فى كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين فى لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر ألف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقـل عن مائة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو

(١) فى قرية بيت شباب من مديرية القاطع تصنع أجراس الكنائس وهذه الصناعة لا تعرف فى بلاد العرب ولا فى مصر وقد دخلت اليها فى الغالب على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قبل فى بلادنا يستعملون النواقيس من الخشب وما زالت هذه الصناعة محصورة فى عائلة واحدة من عمال تلك القرية .

ز'د هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وايطاليا تربح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة واذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين فى قم لبنان لا يعتم أن يجلب اليه أناساً من المصطافين من أهل أوروبا نفسها خصوصاً اذا رأى السياح أن النفقة فى الجبل أقل ممـا في جبال الالب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل فى البحر والبر المبلغ الذى يصرفونه فى بلاد الاصطياف .

وبعد فانا لا نفتأ نـكرر القول بأن من الانفع لابن لبنان أن يوجه بعـد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجر منا الى أميركا من حيث ارتقاؤه فى اقتباس بعض أصول التمدن فى الملبس والمأكل والمسكن فان الأنفع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهى تحتاج الى أضعاف أضعافهم . وسوف يعلمون أن هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الا نفع لبنان خاصـة وسورية عامة . فان ما يقاسيه اللبناني من ألم الغربة والمهانة فى الأحايين واحتقار الغربى له مهما بلغ من مكانته جدير بأن لا ينسـيه بلاده والعيش بين أهله وجيرته . وقدر أحد العارفين منذ ثلاث سنين ان ما حمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أى على معـدل خمس ليرات لـكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هـذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية .

حالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدى بها ليس ببعيد غبت عنها أربعـة عشر شهراً ،وكـنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحـكم الاستبدادى فى المملـكة العثمانية فلم أر اليوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يوما قضيتها فى مشاهدة من

خلفتهم فيها من الاصدقاء الكثيرين . والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت مافى العواصم من ضروب الرقى والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعا أو كرها ويأتى الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأييده .

أن من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضيعه أهله . ومن يمعن النظر فى مواردها ومصادرها ويدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضى بما هو آت يدرك ان المستقبل المخبوء لمصر فى حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما أحرزته فى حاضرها من المنافع المادية والادبية اذا ظلت عناية أهلها متوفرة على التعليم والتربية وهم يتفننون سنة عن أخرى فى تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف لقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام .

ليس فى أقطار الشرق ولا فى أقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله أبقى على آثاره الخالدة واحتفظ بتراثه القديم فنفع العلم والعالم بما ادخره . فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلائل فراعنتها كان عهد ارتقاء ومدنية وإن مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة . وانه جاء زمن طويل على مدينة الاسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة ايام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وافريقية اليوم

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة أبدا فى هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجراكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقى منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من أزهارها إلى شمالى افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك

وسورية وغيرها ، ولما جاء نابليون الاول ثم محمد على الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيس روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الاوربية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية إلى أوربا ليدرس النشء فى كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعوها بما علمهم الله والبشر الراقى

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المناحى الغربية حتى جاء الخديوى اسماعيل وأسرف فى مالها اسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من الماليين الاوروبيين وأكثرهم انكليز وفرنسيس ولما حدثت الفتنة العرابية وجدت انكلترا مدخلا لها بحجة أن أرباب الاموال يوجسون خيفة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو تغافلا فعملت وحدها على اطفاء الفتنة فصدقت عليها كلمة نابوليون فى قوله وقد أخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين فى القرن الماضى انها لم تخرجنا منها إلا لتأخذها لنفسها فى المستقبل

دخلت انكلترا مصر لاطفاء الفتنة أولا ثم للمحافظة على ترعة السويس التى أصبحت أكثر اسهمها لجماعة من أبنائها . والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار . ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحاً أمام المحتلين لتوفر الاسباب الطبيعية لمصر وأن بلاداً لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تتعب تربتها ولا تتعاصى على الانسان طبيعتها لاقرب البلاد الى معالجة الاصلاح فى مجاهلها ومعالمها .

ولما استتب الامن فى انحاء القطر أقبل أرباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتجرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية : فكانت تلك الحركة نافعة فى نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسدتها عليها بلاد كثيرة .

تهيأ لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً . وكان عميدهم الاكبر لورد كرومر الذى أدار دفة السياسة المصرية أربعاً وعشرين سنة أرخى فى خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من

المشارقة . عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يقف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القليلة التى لا تسمح الحال الا باعطائها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلى والسياسى . فقد كان اللورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً فى تقاريره السنوية ، انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال فهل نسيتم ماضيكم أيام كنتم تساقون إلى السخرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارقاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجا كم مما كنتم فيه لحالكم الآن أحسن من ماضيكم مئة مرة فعليكم أن تقنعوا بما حزتموه .

ولكن نبهاء مصر لم يفهم معنى هذه السياسة وكان الفضل الاكبر للجرائد فى تنبيه شعور الامة المصرية إلى أن وراء ماهم متمتعون به الآن مطلباً اسمى وأنفع فقاموا يسعون إليه سعيهم وهم على اختلاف فى الطرق الموصلة اليه لايختلفون فى كون بلوغه لايتأتى إلا من طريق التعليم والتربية .

فبذل أهل الاقتدار المالى ما سمحت به نفوسهم من انشاء الكتاتيب في الارياف والمدن حتى أسفرت النتيجة بعد بضع سنين عن تكثير سواد القارئين والكاتبين ثم رأوا أن الامة لاترقى إلا اذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الامة بلغتها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى اقناع الحكومة بجعل التعليم فى المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكان أكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا أنه اذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالى سبب ارتقاء الامم لا يكون العلم الا عقيما ناقصاً فأنشأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية ، وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الافرنجية باللغة العربية وهى أول جامعة من هذا النوع لامة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليوناً من البشر .

نعم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة

الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هى التى تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولابد لهذا الامر من آخر ولمساعيهم الحسنة من نتيجة اذا سلك القوم سبيل التؤدة وطبقوا أعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الامم السالفة وانصاع العامة للخاصة ، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية فى بلادهم على مستوى ماهى عليه عند الامم الحية حقيقة لا مجازاً

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقى المادى هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرقيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم فى الغرب وربما فاق الاتراك المصريين فى الامور السياسية والحربية

ولا يعاب على مصر الا فتور همة أبنائها في منتصف الطريق فى الاغلب ، وهذا الخلق يكاد يكون عاما فى القطر لا يقوى فى التغلب عليه الا التربية العملية وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن اقبالها على تعلم الحقوق مثلا فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب فى كليات أوربا وأميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر فى النفوس ان فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بعد العلم النظرى على طلاقة لسان وفصل بيان والمصريون أكثر العرب حظاً من تينك المزيتين .

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوى اسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كاوربا فى صفاتها العالية وحضارتها الراقية حتى لاتخرج أملا كها بطيش الطائشين من أبنائها إلى أيدى الغريب فيعود المصرى بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب فى بلده وما أصعبها من حالة

ان مسألة الراية التى تخفق على أمة لاتهم بقدر ماتهم فى الحقيقة مسألة الاملاك إذ أنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لاتحدثها نفسها أن تنزع من

المـالك ملكه إلا برضاه . ومصر التى تتأذى اليوم بوطأة الرومى والطليانى والانكليزى وغيره لا تنتقل بعض أملاكها منها إلا برضا أولئك الوارثين والمسرفين الذين لا يعرفون دخلهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه هى الفئة الضالة المضلة فى هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله . فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الاطيان والاملاك فى مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مليون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقى على عنق الفلاح الصغير والمزارع الـكبير .

إن ما نخشاه على مصر هو الاسراف الزائد وتقليد الغربى على العمياء ولو كان لاهل وادى النيل شىء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول لـكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هى اليوم ومن حاز الثروة وقانون الحـكمة يدبرها والحنكة قائدها ورائدها وانتظر الفرص التى لا يزال الدهر يخبأوها للافراد كما لا يبخل بها على الامم لا بد أن يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التى هى منتهى آمال كل أمة حية فى هذا الوجود .

مرسيليا

٧

فى الساعة الرابعة بعد الظهر أقلعت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) احدى بواخر شركة الميساجرى ماريتيم الفرنسوية فبلغنا ثغر مرسيليا أكبر موانى فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمانش فى اليوم السادس الساعة الخامسـة بعد الظهر ولم نر فى طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرنا يختلف اليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهواً حتى اذا خرجنا من مضيق مسينا اصبحنا واصبحت

سفينتنا على كبرها وطولها وعرضها العوبة العواصف والتيار يتقاذفنا من كل مكان حتى لم يبق راكب فى درجات السفينة الاربع الا وقد أخذه الدوار أوكاد ولم نملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة .

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع فى الساعة اثنى عشر ميلا وهى احدى بواخر الشركة التى تغدو وتروح بين موانى البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرياتيك ولهذه الشركة التى جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مليون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين فى الأغلب . ومن موانينا التى تقف عليها بواخر الميساجرى ماريتيم خانيا وسلانيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاتى ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطربزون وبور سعيد والسويس ولولا أمثال هذه البواخر الفرنسوية والنمسوية والروسية والايطالية والانكليزية والالمانية والرومانية لما بقيت لنا تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها ولتعذر التنقل الا فى السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير أو فى المركبات وبعض القطارات القليلة التى تربط أجزاء مملكتنا بعضها ببعض .

ولشركة الميساجرى أيضاً اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوستراليا وكليدونيا [1] الجديدة وخمس بواخر فى المحيط الاطلانطيكى (الظلمات) وسبع اختصت بالبحر المحيط الهندى وذلك ما عدا السفن الصغرى التى جعلتها فى بعض الموانى الكبرى . وأشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع

(١) لما صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب تناولتها أقلام العلماء والأدباء بالتقريظ والنقد فنحن نشكر المقرظين ونزيد فى الشكر لحضرات الناقدين أمثال العلامة الدكتور يعقوب صروف فى مجلة المقتطف والاستاذ الاب لويس شيخو فى مجلة المشرق والمستشرق المسيو كليمان هوار فى المجلة الآسياوية Journal Asiatique والمستشرق لويز ماسنيون فى مجلة العالم الاسلامي Revue du Monde Musulman فأنهم أملوا ما أوحى به علمهم الواسع فاستفدنا منه ووضعناه في المكان اللائق به من هذه الطبعة الثانية جزاهم الله عن التحقيق خيراً

اليها اعانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها .

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الالمانية والانكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسويةوأن الراكب يجد راحته فى تلك أكثر من هذه مع ان الأجور واحدة ، ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الأجور فى الصيف الى نحو النصف لركاب الدرجة الاولى والثانية والثالثة . وأخذت تحسم خمسين فى المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة . فاذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين فى المئة ، ولذلك يسهل السفر فى الصيف لاعتدال أجوره .

ومن التسهيلات التى قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية على ان تنقل الركاب الى الموانى التى تختلف اليها بواخرها ، وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويجتازون من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والأجرة فى ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان أحب أحدالطرق التى يجتازها فيقطع البحوروالبرور فالطريق الأولى عن موانى الصين واليابان وكندا ماراً بفانكوفر وهو يكلف فى الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الثانية أوستراليا وفانكوفر ويكلف فى الدرجة الأولى أيضاً ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى أوستراليا فمضيق توريس فاليابان ففانكوفر وأجرتها ٤٢٥٧ فى الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرنسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة الى أوستراليا ومضيق توريس واليابانوسان فرنسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا فى الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ على بواخر شركة الميساجرى عن طريق السويس وجيبوتى أو عدن وكولومبووسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغاى الى كوبي فيوكوهاما على بواخر الشركة أو على

بواخر شركة الباسيفيك الكندية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوهاما الى فانكوفر على بواخر الشركة الكندية ، ومن هنا يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول أو سوسامتون على احدى البواخر الانكليزية أو الاميركية أو النمسوية أومن نيويورك الى الهافر على بواخر الترانسلانتيك ، ومن الهافر بالسكة الحديدية الى باريز .

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الارض ولو قال قائل هذا لاحد أجدادنا الاقدمين ، وذكر له انى أريد السير للنزهة على هذه الخطة لنسب اليه الجنون وقال : ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول : سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار . يفعل ما يشاء ويختار .

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدنية فى مرسيليا لانى لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها فى الراحة من وعثاء السفر الذى طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة فى طريقها من الانواء ولطارىء طرأ على آلتها فى عرض البحر فأصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا فى خمسة أيام بلياليها لا تقف قرب اليابسة . ومن البواخر الانكليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا فى أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزى تنقله من أوستراليا والهند الى الجزائر البريطانية فى خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح فى طريقها إلا بقدر ماتحمل زاداً ووقوداً وركاباً والمسافة المعتادة بين أوستراليا وانكلترا لاتجتازها الشركات المعتادة فى أقل من سبعين يوما .

قامت مرسيليا فى منقطع وادى الرون الجميل ، فكانت جملة الجمال الفرنسوى بما فيها من الجبال والسهول ، وما أحرزته من مجد قديم وغنى حديث ، وأن محيطها الذى لا تقل مساحته عن مئة كيلو متر مربع لاحلى من العافية فى بدن

السقيم ، أو النضارة فى خدود الجوارى — كما يقول بديع الزمان — استغفر الله بل كاد يكون أجمل من الحور الذى تقرأوه فى عيون المرسيليات الدعج .
ولعل جمال العيون في النساء هنا التى فاقت عيون البدويات الرعابيب ، انتقلت اليهن من أجدادهن العرب ، فقد قال ميشله المؤرخ ، أن أصل سكان مضايق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السلتى واليونانى والعربي وخليط من الطليان والغالب أن سكان جنوبى أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور .

وإلى اليوم يكثر فى مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفا من السكان خمسهم من الطليان وبيدهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الاجانب فى فرنسا وكان فى مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجانب وفيها ٨١٧ مدرسة وفى مقاطعتها ٧١٧ كيلو متراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلو متراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلومتراً من طرق العجلات الموصلة بين أقاليمها

وأهم صناعتها عمل الاقمشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع القرميد والصابون خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لاتختلف فى الرقى عن زراعة عامة البلاد الفرنسوية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجرى ماريتيم

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ وهى أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفى مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفى شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن متنزهاتها الكورنيش الذى انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التى دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ - ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفاً وقدروا مايدخل اليها ويخرج منها فى اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد .

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة . وجريدة البتى مارسيليه (المرسيلى الصغير) أوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ ألفاً كل يوم وهو فى حجم الماتين والايكودى بارى كما يطبع البتى باريزيان (الباريزى الصغير) الذى يصدر فى باريز مليوناً ومائتى ألف نسخة فى اليوم والثانى أكثر جرائد فرنسا انتشاراً . فكأن لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق مالا يخالف الاعمال التى تبدأ بالالقاب الضخمة والاسماء الفخمة .

زرت ادارة البتى مارسيليه فرأيت النظام مستحكما فى كل ما يتعلق بها وهى اليوم فى السنة الثالثة والاربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا « الشيمافوردى مارسيل » أنشئت سنة ١٨٢٧ وهى من الجرائد الجدية المعتبرة الا أنها اقل انتشاراً . وهذه الجريدة تباع فى مقاطعة الرون وما إليها مثلا فلو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليونى نسخة لاصاب كل فرد فى مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التى ترد على مرسيليا وتباع فى شوارعها بالالوف أيضاً

ومن الاسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية فى البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكميته قدر ما تطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا . وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس وسجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ولاسيا فى الامور العقلية

ليون



ماذا يصف القلم من مدنية الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت الا الى جانب القصور . نعم لو جاء فى عصرنا الرحالة ابن حوقل ، وشاهد مدنية فرنسا فقط لحوقل واسترجع . وقال : هذه حضارة ليس لنا فى وصفها مطمع ولو أتى المسعودى بقلمه وعلمه لعجز عن الوصف والتسطير ولو جىء بابن بطوطة لآب من رحلته الطويلة لا يحسن املاء ما رأى وسمع ، ولو قام ابن جبير لاعترف بقصور ذرعه ، وعدم نفاذ طبعه . وقال ان هذا الا حلم وخيال ، ونحن لا نسجل فى رحلتنا الا ما تقع عليه أبصارنا ، ويترامى الى آذاننا ، وتمسه أيدينا .

وبعد فماذا يصف القلم فى ليون أجمالها الطبيعي أم الصناعى ، معاملها الحريرية أم مدارسها وكلياتها ، أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها . ومخازنها وحوانيتها وتماثيلها وأنصابها ، وخطوطها الحديدية والكهربائية ، وجسورها الحديدية والحجرية ، وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها ، ونهريها العظيمين الرون والسون الذين يقطعانها شطرين . ويزيدان فى بهجتها ما تقر به العين .

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة فى فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية فى كونها عاصمة دين كما هى عاصمة صناعة وعمل . وعلى جسر ليون مر الصليبيون فى القرون الوسطى ذاهبين الى المشرق لانقاذ البيت المقدس من أيدى المسلمين نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة وحديثة ، ومشاهد بهيجة ، ويالله ما أعجب معرض نموذج الأنسجة الذى حوى أربعمائة ألف نموذج ، ليس لها نظير فى العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد

والسائحين : ينتفعون بالنظر اليها ، ويستدلون بها على تفنن يد الانسان في كسوة الابدان .

لئن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصريف مصنوعاتها بسرعة ، فان البخار البرى عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهبة من أنحاء شتى ولا سيما من الشمال الى الجنوب . والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلو متراً ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه يقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة ، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها ، والحكومة اليوم شارعة بمد خط حديدى ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموجودين لا يتأتى أن يجرى عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات ، وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بضاعة ، وتأخذ كل جهة حظها من العمران .

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالية ، بأن كانت هى التى أسست مصرف الكريدى ليونيه مثلا من أعظم مصارف العالم بل لها حظ كبير من النهضة العلمية ، وأثر راسخ في الحضارة الفرنسوية ، وناهيك بكليتها التى تحوى فروع العلم ، ولا سيما الطبيعى والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب ، وفيهم نحو خمسين مصريا أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل في التجارة ، والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخرج في كليتها وقد كثر ورودهم عليها بعد ان ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه ، فعينته حكومته في كلية ليون أستاذاً فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب عشرات منهم للتعلم في كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب على أولاده . وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات

الفرنسوية ، ولا سيما كلية مونبليه وذلك على عهد الخديوى اسماعيل لانه كان يعتقد ان أهل مونبليه أقل معاداة للملوك وأبعد الفرنساويين عن التطرف .

قضيت فى ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقى محمد لطفى افندى جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقي الاجتماعى والتكافل الانسانى والذوق الفرنسوى وفى مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيس لما يشاهده السائح فيها من السكون والانقطاع الى الاعمال الشريفة فلا يسعون كاكثر سكان العواصم فى الاغلب للمكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزائنها بالتوظف والاستخدام

وياما أبهج ساحة بلكور يوم الأحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لاتقرأ فى وجوههم غير الادب ولافى حركاتهم إلا التربية البيتية العالية ، والتشبع بالنظام المدنى المعقول ، حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل ، وأماكن اللهو والطرب ، وسماع الخطب والمحاضرات ، وهكذا ليلهم كنهارهم عمل وراحة واستفادة وافادة أخذوا بحظ وافر من دنياهم ، ولم ينسوا تعهد آدابهم ، فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون .

ولقد كنت كلما وقع نظرى فى ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثنى النفس بسورية فأقول متى ياترى يكون فيها مثل مافى ليون على الاقل . ولو أن عمران ليون وحدها وهى احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط الى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهى واسعة جدا بمساحتها من حيث عمرانها أرقى مدن المعمور ولكن الرزق لايأتي بالتمنى والوجود لاينتفع به إلا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر

تحية باريز

٩

سلام عليك مرضعة الحكمة . وربيبة الرخاء والنعمة ، وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ، ومحيية المدنية الاصلية فى الاقطار الغربية والشرقية ، ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين وأنى يضرب على أيدى الرؤساء والنبلاء والمالكين . أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل ، انت كنت فى مقدمة العواصم التى انبعث منها تمجيد العقل بل تأليهه . فقضيت بالتقدم له على كل شىء فى الوجود ، وبالغت فى اكرام رجال العقول من أبنائك

سلام عليك ياعشيقة الابداع والاختراع ، وسابقة الاقران فى مضمار الانتفاع ، بما حوت الرباع والبقاع ، استخدمت القوى المادية فاجدت استخدامها واستثمرت القوى العقليه ، فابدعت فى استثمارها ، وأحييت حضارات الامم السالفة وأنشأت لك حضارة لايزال يحسدك عليها أسبق الشعوب الى الترقي مهما تقلبت بك الحال ، ويجدون فى أوضاعك ماليس يجدونه فى أوضاعهم من المرونة والجمال

سلام عليك ياواضعة حقوق الانسان ، وملقحة الاذهان بالتنامى بحب الاوطان ، والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين . أنت لم ترهبك تقاليد أبطال القرون الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليهـا ، ولم تعلق مسائلك على القضاء والقدر ، بل أخذت بالاسباب والمسببات فقتلت من أراد قتلك ، ووضعت من لم يهمه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال .

سلام عليك يامعهد المعارف والصناعات بما انشأتيه من مجامعك العلمية ، ومدارسك الجامعة والكلية ، ومجالسك العامية والخاصية ، وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والانسانية ، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وسماعك ، ومتاحفك

وحدائقك ومكاتبك ومعارضك ، وكل ماأبدعته أفكار أبنائك وأيديهم ، ودل على مجد طريف وتالد ، وتاريخ على جبين الدهر خالد

سلام عليـك ياملقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة ، ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع ، حتى لايبقى تميز فى الحقوق والواجبات ، بين المختلفين فى الموالد والديانات ، وقطعت التفاضـل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة .

سـلام عليك يامتشبعة بافكار الحكماء ارتضيتيها منهم قانوناً تجرين عليه لسعادتك ، ولئن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها ، فذلك لان سياسة المنافع والمصالح ، قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح ، ولان نظام بقاء الانسب لا قلب له ، والتنازع فى جهاد الحياة كثيراً مايدعو الانسان الى ركوب ماتحظره الشرائع الوضعية والسماوية ولا سيما فى هـذه العصور التى يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات ، وما ذلك الا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن الكمال الآن محال ، ولعله لايفوتهم فى مستقبل القرون والاجيال .

السلام على هذه العاصمة التى أحسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور ، فان قلنا معاشر الشرقيين ولا سـيما سكان الشرق الاقرب أنا نأخذ عن المدنية الغربية ، فانما نعنى المدنية الفرنسوية ، وبعبارة أصح المدنيـة التى تنبعث أشعتها من باريز ، ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض .

سلام عليك َعلمتِ وعلّمت فما أحسن العلم والعمل اذا اجتمعا ، وما أحلى الاخلاص والشعور بالواجب .

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل ، من العطف على البائسين والمساكين ، والرفق بالضعفاء والعاجزين ، والأخذ بأيدى المقهورين والعاثرين ، والانتصار للمظلومين من الآدميين ، خصوصاً اذا كانوا من طينة أوربية

سلام عليك أنت العاصمة التى تركت القصور الفخمة التى عمرت بدماء الأمة مباحة للناس يدخلونها ، وكانت بؤرة المظالم والمغارم ، ومنبعث الشهوات والاهواء ، ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء ، الى السماء ، من حيف الكبراء أيام كان يوقع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيعاً واحداً يترك من الغد مئة ألف أسرة فى هذه البلاد تبيت جائعة عريانة ، ليعمر بما يجمع قصراً له ، أو يدفعه لمحبوبته صبرة واحدة ، فلما أضناك الظلم والعنت ، قمت تجعلين من تلك القصور الفاسقة ، متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلمات ، مجالس عدل وعلم ونور .

سلام عليك خلدت أعمال من خلفوا لك هذه المدنية ، وأقمت تماثيلهم ونصبهم موقع الاحترام والاعظام ، وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل يوم ألوف الالوف من المرات ، لتجعليهم مهمازاً لمن يأتى بعدهم من الابناء والاحفاد .

سلام عليك يابلد ديكارت وكونت وفولتير وديدرو وسيمون ومونتسكيو وهوغو وباسكال ورنان ومئات أضرابهم ممن بذلوا حياتهم فى حسن خدمتك ، فلم تنس افضالهم عليك بعدمماتهم .

أنت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان التفتيش الدينى ، ومذبحة القديس برتلماوس ، ومقتل الفيلسوف فيفانى ، وجنون نابليون وغير ذلك من الاعمال البربرية فى عصور الظلمة ، فان سكانك يفاخرون ، وحق لهم الفخر ، بانهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة فى عصور النور ، ماينسى الماضى الا أقله ، ان الحسنات يذهبن السيئات .

السلام عليك باريز أجمل عواصم العالم ، وأغنى البلاد ببدائعها الطبيعية والصناعية ، وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية ، لست أنت اليوم عاصمة مئة مليون من البشر : أربعون فى أرضك وستون فى المستعمرات بل أنت بما فيك من المزايا عاصمة معظم الخافقين ، لاسباب هنائك وصفائك ، ونعيمك ونعمائك ، وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق ، وسلامة الأبداع ، ووفرة العلماء

والباحثين . والكاتبين والشاعرين والقصصيين فكل شيء فى باريز مبذول حتى لتعافه النفوس من أقصى مايتصور الفكر من الفضيلة الى آخر مايجول فى خاطر أو يحوم حوله خيال

فباريز ولامراء جنة أرضية جمع فيها موجدوها — أستغفر الله — مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التى أقامتها فى أوقات مختلفة لتلفت اليها الأنظار ، وتستفيد الفخار والنضار ، فان لها كل ليلة معارض لاتختلف عن السابقة الا فى كون البقعة التى تقوم عليها هذه أوسع مجالا ، وأكثر جمالا .

يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم فى الاستعداد لليلهم . وكثيرون لايعملون الا فى الليل ويصرفون النهار فى جمع قواهم ، وادخار أحسن ماعندهم لما بعد الشفق ، فهم لايجعلون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هى عادة معظم الامم . بل ان الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة ، ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس ، وتطلع بدلها شموس واقمار .

ترى المدينـة فى النهار عابسة مظلمة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها المغروسة على جانبيها بالاشجار غالباً وطرقها وأزقتها وساحاتها العامة . وفى هذه الأماكن تشهد مجالى الحسن والاحسان . وما تفننت فى ابداعه العوامل ، وتاطفت فى روائه الأفكار والانامل .

على تلك الأرصفة تناجى النفس رب النجوى قائلة : اللهم هل خلقت باريز من معدن اللطف والظرف ، لتكون مثالا من جنة أرضية خصصت أهلها بالاستمتاع

بنعمة الجمال ، حتى لكأنك شطرته شطرين شطر وقفته على الباريزيات ، وشطر وزعته على سائر بنات حواء .

ان امتاز الفرنسيس بالابداع فى الصناعات فقد امتازوا أيضاً بنضرة الوجوه . والى باريز تحمل هذه الأمة ولا سيما فى فصل الشتاء أفضل ماعندها من مجالى الكمال والجمال ، أيام تكون أم هذه القرى مقصد السائحين والمتجرين ، والطالبين والعالمين والسياسيين والخاطبين وتغص دواوينها واداراتها وتلتئم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية .

ويزيد الوجوه بهجة فى باريز تفنن القوم فى الازياء ، وتغاليهم فى التبرج والزينة ، تغالياً مهما تقدم عند غيرهم لايزالون مصدره ومورده ، وأساتذته وسدنته . ومظاهر الازياء تتجلى فى باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات ، وفى المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها ، وفى دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج، والحانات والقهوات والمطاعم والفنادق ، ويزيدها فتنة للناظرين ماعتاده الباريزيات الا من عصم ربى ، من ابداء زينتهن لغير المحارم أكثر من ابدائها لبعولتهن وذوى قرباهن ، ورنين أصواتهن فى الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود ، وتستطيبه أكثر من تغريد العندليب ، وهناك الفتنة بعينها ، والفتنة أشد من القتل ، ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه المجالى فى الحرية المفرطة ، حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ، ليشهدوا فيها مالا يشهدونه فى غيرها ، وتربح منهم الليرات بالملايين والكرات ، عملا بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له : ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطمئنان فى الشوارع فقال : « الربح لارائحة له » وأرسلها مثلا ولذلك يقول الافرنج أيضاً « الغاية تبرر الواسطة » فما دامت الغاية الكسب ، فلا بأس من الاحتيال لنيله ، ومن أجل هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة ، والناس معهما وما يختارون

بعد الغروب تعمر فى باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم ، وتلقى فيها من

الفوائد مايبلغ الاذهان عفواً صفواً ، ويفيض معين البيان ، ويبدو حذق يد الانسان ، ويسعى العالم الى تعليم الجاهل ، فى ساعة ماتعب فى احضاره الايام والأعوام فائدة الخطب والمحاضرات معروضة ، ودروس الفضائل عامةموروده

بعد الغروب يعمل معظم الكاتبين كتبهم ، والشاعرين اشعارهم ، والمؤلفين مؤلفاتهم ، والمخترعين اختراعاتهم ، والصانعين صناعاتهم ؛ كأنالافكار لا تنطلق من عقالها ، والأيدى لا تحذق أعمالها ، الا عند ما ترقد عيون البشر . أوكأن الزهرة ربة الجمال ، لا تحب أن تملى على من هم أحوج الناس الى طلعتها ، الامن الليل ككوكب الزهرة لا يبدو فى مطلع الافلاك الا مع الدجى . ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس ، مجمع الانس وريحانة النفس .

وكأن الباريزيين ، وهم العارفون بتقسيم الاعمال ، عز عليهم أن تمضى ساعة فى بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم ؛ فخصوا النهار ببعض الصناع والتجار ، والعملة والعاملات ، والليل بالمفكرين والمفكرات ، والمؤنسين والمؤنسات ، والمغنين والمغنيات ، والممثلين والممثلات ، حتى لا تنقطع حركة ، ولا يقف دولاب عمل ، وكان بذلك الحظ الاوفر للغرباء ، فلا يدخل على الغريب ملل من تغير المشاهد ، ولا يفتأ من الفجر الى الفجر ، ان أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه .

يقول الباريزيون : ان بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم ، وانهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى ، ويكدحوا الليل والنهار ، ولكن هذا قول من ملك شيئاً فزهد فيه ، والروح ترتاح الى التنقل ، أما الشرقي الذي يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم ، فانه يعجب لمن يساكنهم زمناً ، كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بلداً ؛ كما يعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياةأضعاف أضعاف ما يأسف غيرهم عليها ، ومن قال بأن دواعى الراحة تطيل حبال الآجال ، يستعظم على أهل باريز لم لم يعمروا أكثر من عامة الخلق ، وعندهم النعيم المقيم ، والخير العميم .

تاريخ عمران باريز

١١

لعل باريز كانت فى الاصل احدى تلك الضياع التى كان الغاليون ينشئونها فى جزر الانهار الكبرى أيام كان يسهل عليهم أن ينشؤا جسوراً يتخذونها مجازاً الى طرق مهمة وأول ذكر ورد لها ولسكانها في التاريخ كان سنة ٥٣ ق . م فدعا القيصر ساكنيها باريزيا كما دعا المدينة لوتيتيا وضم اليها سنة ٥٣ نواب الامم الخاضعة .

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الاصلية ، ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالى على عهد الامبراطور كونستانس كلود الذى أنشأ فيها قصراً تسمى بقاياه اليوم بقصر الترم وسكن فيه حولين لما نادى به جنده قيصراً وكانت الجزيرة محاطة بمتاريس وفيها قصر تفصل فيه الامور البلدية ومذبح على اسم جوبيتر اقامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون فى تجارة نهر السين وفى سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز اسقفية وعلى ذاك العهد أطلق عليها اسم باريزى وهو اسم الشعب الذى يسكنها وكانت عاصمة بلاده .

فتحت باريز أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كاوفيس ثم ماتت القديسة جنفياف حامية باريز ووقف العمران على عهد الاسرة الكارولنجيين بل تراجع فنقل الامبراطور شارلمان عاصمة ملكه الى اكس لاشبل ، وما كان يقيم فى باريز الا نادراً .

وكانت القرى فى شمالى المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الاديار وكثيراً ما كانت تخرب بأيدى أشقياء من السكان أو بغارات النورمانديين ، وفى سنتى ٨٨٥ — ٨٨٦ جاء النورمانديون وعددهم ثلاثون ألفاً وعسكروا أمام جزيرة

المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهراً ، وبهـذا الحصار افتتحت باريز أيام سعادتها وأصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها .

وفى القرن الحادى عشر والثانى عشر امتد عمران هذه القاعدة وأنشئت فيها أديار وبيع ومستشفيات ومدارس وأقيم لها فى أيام لويس السادس عمـدة ينظر فى شؤونها وأمور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادى . وعلى عهد فيليب أغسطس وهو أهم دورمن أدوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الاديار والمدارس ودور المرضى والاسواق والمجارى وأحواض المياه والفساق والمرافئ وفى سنة ١١٨٥ أخذوا يبلطون شوارع المدينة للمرة الاولى وفى سنة ١٢٠٤ أنشئ قصر الاوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين ألفاً وجعلت منها مدرسة جامعة أطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (الشوربون) وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ — ٢٧٥ الفاً وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس الى لويس الثالث عشر ، فى تزيين مدينة باريز وتطهيرها وأنشئت فيها فنادق جميلة

ولقـد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الانكليز سـنة ١٤٢٠ حمى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثاً ومنذ سـنة ١٤٠٨ الى ١٤٢٠ أكثر الارمنياكيون والبورغونيون من ذبح سكان باريز التى احتلها الانكليز من سـنة ١٤٢٠ الى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها . ومع هذا لا تزداد عروس الغرب الا عمرانا .

وفى سنة ١٥٢٣ وضع الحجر الأول فى أساس دائرة المجلس البلدى الذى هو مفخر من مفاخر البناء فى هذه العاصمة كما أسس قصر التويلرى المشهور على أيام شارل التاسع وعادت باريز فأصبحت ميداناً لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانتى من أهلها وانتشرت الفتن الدينية زمناً ، وأصبح القول الفصـل فيها للمتعصبين والجامدين .

وفى خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفاً وكثرت الفتن على الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادى والعقلى فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة وكانت أسقفية صغرى وفى سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات وسنة ١٦٣٥ أسس المجمع العلمي وأنشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالاشجار وكثرت الحارات والاحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح يجعلون فيها شموعاً وذلك فى الليالى غير القمراء .

ولقد نشط هذا الملك البحث فى التاريخ والصناعات والعلوم بانشاء المجامع الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبترخيصه للناس أن يختلفوا الى المكتبة وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط . وكان عهد الوزير كولبر عهد عمران هذه العاصمة الذى لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفاً وعلى عهد لويس الخامس عشر ، طبعوا أسماء الشوارع على صفائح من توتياء ، وجعلوها في رأس كل شارع ، واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح الزيوت .

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز اذ أعقبت تخليص الاراضى من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الابنية العامة والخاصة والمعاهد العلمية والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من الثورات التى حدثت بعد ولا سيا فتنة سنة ١٨٤٨ ما نشأ عنه بعض الاضرار على العمران الا أن الهم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون ألفاً من الألمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض أحياء المدينة عقيب الحرب التى فشل فيها الفرنسيس فى موقعة سدان وعاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام .

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشأم أيام الخراب على عمران باريز فتقوض بها ٢٣٨ داراً خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندى وقتل وجرح

خمسمائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليوناً من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسباب الراحة وكان من المعارض الخمسة التى أقامتها باريز ولا سيما معرض سنة ١٨٨٩ الذى أقيم تذكاراً لمرور مئة سنة على الثورة الفرنسوية الأولى أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيس وأول دليل على ارتقائهم التدريجى الذى لم يقف قط عن الجرى .

احصائيات فى عمران باريز

١٢

باريز واقعة فى الدرجة ٤٩،٥٠،٤٨ من العرض يشقها نهر السين الى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقى ويتخللها فى وسطها عدة آكام وجبال مهدتها حتى غدت كأنها بعض أجزائها منها ما يبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها أقل من ذلك ، وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هيكتار ومحيطها ٣٦ كيلو متراً .

وطولها من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلو متراً ، وعرضها من الشمال الى الجنوب نحو تسعة كيلو مترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتاراً ولها ٧٠ باباً او منفذاً منها ٥٧ باباً و ٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان دينى واورك وعدد سكانها بحسب الاحصاء الاخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدحاماً اذا قيست بالمدن الاوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ الفاً والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠ .

وتقسم من حيث أمورها الادارية الى عشرين قسما لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقا و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعا

و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفاً و٧١ مجرى عاما و٤٢ رصيفاً و٣١ جسراً و ٤٨٠٠٠ بيت وتمتد الطرق المغروسة بالاشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ متراً وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس فى الطرق والشوارع والساحات والحدائق .

تضاء باريز فى الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و١٥٧٥ مصباحاً كهربائياً وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة فى باريز ٢٬٣٠٠٬٠٠٠ مصباح كل واحد ذوعشر شمعات . ويجرى ماء الشفة الى مدينة باريز فى قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافاً لما يدعيه بعض المتجرين بالخمور من أن ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل مايجرى منه اليها ٣١٠٬٠٠٠ متر مكعب يأتى الى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و٧٤٣٣ مضخة للحريق و١١١٬٦٩٥ محلا لشرب المارة ويجرى اليها ماء للاستعمال غير صالح للشرب وهو للصناعات وغيرها يجرى فى ٦٤٦٠٠ آلة عامة

فى باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيل وأكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هى فى الاكثر عربات خاصة بالاعيان وأرباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ أوتومبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليوناً من الناس فى السنة و١١٩ خطاً من خطوط الحوافل (أومنيبوس) والترامواى وفيها ٢٥٠ عجلة أومنيبوس و١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل فى السنة مالا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و١٢٠٠٠ سيارة (أوتومبيل) وقد كان فى فرنسا فى السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتومبيلا و ٤٠٠٠٠ مركبة نقل ولا تدخل فيها الكميونات وفى باريز ١٦٠ ألفاً من الدراجات و١٠٦ مراكب نهرية تحمل نحو ٢٣ مليون راكب فى السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليوناً ويركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون اليها

ويلزم لباريز فى السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و١٥٩ مليون كيلو من اللحم و٣٦ مليون كيلو من السمك و٦٦٩ مليون بيضة و٣١ مليون كيلو من الطير

والصيد و٦ ملايين هكتولتر من الخمور و٦٩٢٠٠٠ من الجعة و١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية

وفيها ٣٠ ألف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة ألف نسمة ولتجارة الأطعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص ولتجارة الفرش والأثاث ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التي تبيع الامتعة والثياب والازياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ ألف عامل وعاملة وعدد محال الاطعمة ومعاملها ٧٥ ألفاً فيها ٤٣ ألف مستخدم وخمسمائة ألف عامل وعاملة فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة

وأكبر وسائط النقل وأسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربائية تحت الارض التي يسمونها المتروبوليتين وهي تدل على عظمة العقل وآخر ماوصل اليه الانسان من التفنن وليس لهذا الخط نظير في سعته وجدته في برلين ولافي لندرا افتتح الخط الاول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن ستة خطوط منهاماطوله عشرة كيلومترات ومنها أكثر وأقل الى السبعة عشر كيلومتراً تربط أجزاء المدينة بعضها ببعض وينتقل الراكب ان أحب من فرع الى فرع آخر بدون زيادة أجرة وقدتم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهوسريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الاولى ٢٥ سنتيما وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكباً وكان عدد من أقلتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩،٧٠٠،٥١٩ وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زهاء أربعة وأربعين ملياراً وهم يعملون أبداً على تهويته على طريقة لاتخليه من الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للتعفن وقد يتأذى بالركوب فيه بعض ضعاف المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لامن شيء آخر

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة الا اذا درس لغتها وتاريخها وآدابها . واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدى كل عمل . ولذلك كان من الراغبين فى درس أحوال الشرق من أهل أوروبا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً بأهله وكان للغة العربية المقام الاول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهل الاقطار المعتدلة من صميم الشرق . فتوفروا على أحكام العربية وتنافسوا فى تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا فى فهم أسرارها عن خلص أبنائها الذين نشؤا فى حجرها وأحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى فى هذا المضمار . وكل مملكة من ممالك أوربا وأميركا لاتخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلون الى تلقفها من كل حدب

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغى لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المستشرقين وقديماً كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيس أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الالمان . والالمان أمهر الغربيين فى النطق باللسان العربى وأكثرهم نبوغا فيه وعند الالمان من علماء المشرقيات بقدر ماعند الفرنسيس والنمسويين والمجريين والايطاليين والهولانديين والانكليز والروس والاسبانيين والبرتقاليين والاميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالالمان نبغوا فى كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الاوفر من عنايتهم

اشتهرت فى فرنسا الجمعية الآسياوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست احوالها وزرتهما غير مامرة وهاءنذا الخص للقارىء ماعرفته عن الجمعية

الآسياوية بواسطة صديقى المسيو لوسين بوفا أحد الاعضاء العاملين العاملين فى الجمعية المشار اليها فقد كتب الي ماتعريبه : ان فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم الا بعد زمن طويل . فقد أنشئت الجمعيات الاولى للباحثين فى المشرقيات خارج أوربا مثل جمعية العلوم والفنون فى باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية فى البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية فى بومباى (١٨٠٥) ومنذ ذالك العهد أنشئت فى أوربا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين ولكن أقدمهاعهداً الجمعية الآسياوية فى باريز أسست سنة ١٨٢٢

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقى الفرنسيس ان الحاجة ماسة الىأن يجتمعوا أويجمعوامواد الدروس المختلفةالضرورية لهم وان يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم . وكان المسيو دي لاستى أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسياوية التى ناب فى رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة ، وكان الرئيس اذذاك سلفستردى ساسيأحد أعضاء المجمع العلمى وأستاذمدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية فى فرنساوربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيس وكان من مؤسسى الجمعية أيضاً كوسان دى برسفال وكارسين دى فاسى ورموسا .

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التى اختصت بالبحث فى لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال الى اليوم نموذج العلم الراقى وسيدة المجلات الاخصائية فىفرنسا .

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ماوصلتيدها اليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضاً مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة . ونشرت مصنفات فى تاريخ الشرقوأصول لغاته وفلسفته وأديانه وطبعتعلى نفقتهاعدةمصنفات وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم

الاعمال التى تعنى بها ، وخصت جلساتها فى سماع المراسلات والمناقشات العلميـة النافعـة كما عنيت بمراسـلة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم .

واذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسياوية سنة ١٨٢٨ عادت بعـد ان ضعف أمرها بضع سنين الى مكانتها الأولى ولم تلبث ان قويت عن ذى قبل وانتشرت كلمتها فرأسها امثال سلفستر دى ساسى ثم جوبر ورينو وموهل وكارسان دى تاسى ورنيه ورنان وباربيه دى مينار وسينار ، ومن جملة رؤسائها الثانويين كوسـين دى برسفال وبارتلمى سان هيلير ودفرني وبوريه دى كورتيل وماسبرو وربنس دوفال وبين أمناء سرها ابيل ريمورا وجايس ودار مستتير وشافان

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها فى عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً فى بناء ملاصق للمجمع العلمى وذلك بفضل رئيسها اذ ذاك رنان الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسوية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمة الكبرى عـدة كتب ومخطوطات وغيرها من النفائس ، ولا سيما المخطوطات التى أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية .

وماعدا المجلة الآسياوية التى تصدرها الجمعية فى نحو مائتى صفحة كل شهرين ويتألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفاً تتألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويلة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودى نشرته بنصه العربى وترجمته الى الفرنساوية وهو فى تسع مجلدات ، ونشرت رحـلة ابن بطوطة فى أربع مجلدات وكتاب الماهافاستو فى ثلاث مجلدات

وهذه الجمعية تمنح كل سنة معونات لبعض المؤلفين فى الموضوعات العلمية واعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضواً منهم ٢٦ من الأجانب وهى تبعث بمجلتها الى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة او مجلة دورية والى ثمـانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسوية وللمجلة ١٣٠ مشتركا ليسوا من الداخلين فى الجمعية ، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ : ٢٥٦٣١ فرنكا و ٦٦ سنتيما . وفى

مكتبتها نحو اثني عشر ألف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صفحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط وفيها مجموعة من النقود القديمة اه

هذا اجمال حال الجمعية الآسياوية وفيها من الاعضاء من لا فائدة منهم ولا رابطة بينهم وبين الغرض الذى ترمى اليه الا انهم يؤدون الراتب السنوى المضروب عليهم ويتناولون المجلة مقابل ذلك وكثير منهم لا يعرفون من احوال الشرق ولغاته واصول سكانه اكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهى التى تقرىء مبادىء اللغات الشرقية وهى مخرج لاعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة والسفارة عن حكومتهم فى بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من نفعها ومادامت فرنسا تراعى الخواطر فى توسيد وظائف التدريس لغير الاكفاء فان تعليم اللغات الشرقية يبقى صوريا لا حقيقياً . وهيهات ان ينشأ لفرنسا وهى على هذه الحال أمثال المستشرقين الاول من أبنائها الذين باهت بهم الامم مادامت سوق الشفاعات رائجة عندها .

درس من سلانيك

١٤

بينا كنت مأخوذاً بما أشاهده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسوية واقرأ مثالا مجسما من الارتقاء الغربي ولا أفرغ ليلى ولا نهارى من زيارة المعاهد العلمية وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص فى مكاتب باريز ولا سيما مكتبة الامة ومكتبة السوربون وبينا تكاثرت علي المواد وأنا لا أعرف باى لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر وبينا أنا أفكر فى بلادى وما يجب علي أن أكتب لها مما تأثرت به عواطفي وأخذ بمجامع قلبي حمل الي البريد من سلانيك

كراسة باللغة الافرنسية من قلم صموئيل سام أفندى ليفى رئيس تحرير جريدة سلانيك الفرنسوية وهى محاضرة ألقاها فى نادى الاتحاد الرياضى فى ذاك الثغر أواخر الشهر الماضى عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد النمسا والمجر منذ مدة فرأيت أن ألخصها للقراء ليعلموا أن تأثر العثمانيين واحد عند زيارتهم الديار الاوربية وان ابن سورية اذا أقامه ماشاهده فى غربى أوربا وأقعده بما فيها من آثار العمل والجد فان ابن مكدونية لا ينقص عنه تأثراً فى ماشاهده من أواسط أوربا وشعور أبناء الوطن واحد . قال الكاتب السلانيكى

فى ستة وعشرين يوماً ساح مائتان وخمسون رجلا من أهالى الاستانة وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠ كيلو متر فى السكك الحديدية و١٥٠٠ فى البواخر والعجلات والسيارات وعلى الارجل فوقفنا فى خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحو ١٥٠ داراً صناعية ومعهداً علمياً أو مدرسياً وفنياً وادارياً ومتحفاً وغيره وحضرنا مئة دعوة وغيرها اقامتها لنا ١٥ جمعية و ٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق من تلك الرحلة التى تذكرنا السائحين جول فرن وماين ريد الا أن نذكر شيئاً من ذلك الحلم الذى مر علينا فى رحلتنا ونتثبت من تلك الاشباح لنحسن الانتفاع بها فى مادياتنا وتكون لنا علماً ودرساً نافعاً ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية لندرس دور الصناعات والاوضاع التجارية والمدرسية والادارية عن أمم ولكن المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلوموتسكى فيما خطبنا به لها مساس كلى بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل الى البحث فى الاولى مع اغفال الثانية .

ولقد كنا نقضى بالعجب من كل مايقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عما اذا كان ماتقع عليه أنظارنا من مدهش الاعمال هو من صنع أيدى البشر وهم الذين قاموا بهذه العجائب وبحق ماقاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا السائحين عند ماغادر النمسا ان أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذى نتأثر به

كلنا كما ينبغى لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي . نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل اليها التجديد من كل أطرافها وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة .

وكثيراً ماااتفق لنا ان زرنا معهدين أو ثلاثة فى فرع من فروع الصناعة وفى أقاليم مختلفة فكنا نجد فى كل منها ماعدا أساليب العمل التي يقضى بوجودها العلم أعمالا كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الاقدام الذاتى وقوة ارادة شخصية وحب فى البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل كنا نشهدذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والانسانية. ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الاحسان ومعونة العملة تراءى لنا ان النمسا فى مقدمة الأمم فى هذا الباب ومن ذلك ان ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون فى لاينز بالقرب من فينا لا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك ومانتس لا ننس ملجأ المرضى العصبيين فى شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا فى قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية فى مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير .

وبينا كان رفقائى في رحلتى يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها فى بلاد المجر والنمسا ومورافيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظرى خاصة منظر اتفقوا على تسميته باسم مملكة هابسبورغ فان هذه المملكة هى فى الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف أصولها ، قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع وما كانت وحدة هذا المزيج الا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مأتاها وبعد نظرها فرأت أن تترك لكل قوم استقلالا اداريا كان غاية الغايات فى ابداعه ، وبذلك توقت

الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة . وهذا الرأى في توسيع سلطة الاقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة فى جميع فروع العمل . وذلك ان كل قطر له من نفسه غنى طبيعى غزير ، ورجال نوابغ أذكياء هم خيرة رجاله ، فاستطاعوا الانتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك ان استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها ، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الاعمال منوعة الاساليب تمت في عامة فروع الجهاد الانساني . وكان ذلك من أهم المشاهد وأجملها التى وقع نظرنا عليها فى رحلتنا وأحسن معلم لنا معاشر العثمانيين .

تألفت مملكة هابسبورغ من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سبباً لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها مطامع جيرانها ، واعتداؤهم . ولكن لما عزمت الحكومة ان تمنح العناصر المختلفة التى يتكون منها جسم المملكة دستوراً قائماً على المبادئ الحرة فى مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها الى الامام .

فعلى نواب العثمانيين فى مجلسنا النيابى أن ينظروا فى أمر العناصر العثمانية ، ويحلوها كما حلتها النمسا والمجر التى كانت فى حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فاحسنت حلها على ما يجب فهى سابقتنا فى هذا الباب وما علينا الا أن نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى .

وهنا ألتفت الى رفاقي فى الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذى قطعه جيراننا . فأقول لهم ان ماشاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية وأساس راسخ واذا أحببنا أن نبلغ بأمتنا مبلغهم فما علينا الا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية فى الامة وأن تعمل الحكومة عملا فعالا لما فيه انهاض الشعب كما على الشعب أن يعمل لمعاضدة الحكومة الصالحة ، وبالجملة أن يعمل كلاهما بل

يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة .

نهوض العثمانيين موقوف على التعليم ولا ننجح الا اذا حذونا على الاقل حذو البلاد التى كانت تابعة لنا بالامس كممالك البلقان مثلا وأرسلنا من شباننا من يتعلمون العلوم الكاملة فى كليات الغرب ، فمن أعظم نجاح تلك الامارات انها ما زالت منذ زهاء ربع قرن ترسل بشبانها الى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية فى أوربا الا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الاعمال في بلادهم ونفخوا فيها من أرواحهم ولسنا نضطر الى الاجانب لتعليم أولادنا فى بلادهم بل يجب ان نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون فى بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن فى حاجة الى رؤوس أموال الاجانب لاستخدامها فى أعمالنا ومشاريعنا وأن نكون فى سياستنا الاقتصادية كما قال ارنست لافيس المؤرخ الفرنسوى فى تعريف السياسة انها علم خديعة غيرك من الناس ، وأنت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو انهم يحاولون خداعنا .

دار معونة العلماء

١٥

هى الدار التى أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير العالم المؤرخ أول رئيس للجمهورية الثالثة فقد نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فأحبت امرأته ان تخلد ذكره بعد مماته فأوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوى خمسة عشر رجلا من شبان العلماء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التى تخرجوا فيها والمجامع العلمية التى

يراد اجلاسهم فى قاعاتها ؛ ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالاً بلغ ريعه مئة وخمسين الف فرنك

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الايقان بالمثل الافرنجى القائل بأن « فرنسا تخترع وألمانيا تعمل » الفرنسيس يبتكرون في كل شئ ، وهذه الدار هى من مبتكراتهم وما أظن لها مثيلا عند الألمان والانكليز والاميركان سادة العالم فى العلم وقادة الابداع والاختراع

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف الى مديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو اميل بوترو — ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون . ولم أتمن فى حياتى ان أكون فرنسوى الاصل والجنس الا لما رأيت هذه الدار وعلمت انها لا تقبل فى حجرها الا الفرنسويين ، تمنيت أن أعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس ابحاث تجول فى الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن اتمامها

هذه الدار سميت باسم تير La Fondation Chiers والأولى ان تسمى دار معونة العلماء لانها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكليات ولا مدرسة اكليريكية كالمدارس الدينية بل هى دار يقبل فيها كل سنة خمسة [1] من شبان العلماء من نابغى الكليات يحملون شهادة « الليسانس » أو « الدكتورا » فى الآداب أو العلوم أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمى فى الابحاث التى تجرى فيها المسابقة بين ارباب الافكار والاقلام تحت نظارة المجامع العلمية الخمسة فى باريز فيقضون ثلاث سنين فى هذا المعهد ينصرفون فيها الى الفن الذى يريدون الاخصاء فيه فيبحثون بأنفسهم لانفسهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو اميل بوترو الذى يعيش واياهم فى المعهد كما يعيش الأب مع بنيه ويمدهم بآرائه ويهديهم الى اقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم ، ووضع مؤلف او مؤلفات نافعة فى الفنون التى هى احب من غيرها الى قلوبهم ولا ينشرونها الا اذا نظرهو

---

(١) اعتمدنا فى هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تير العلمي فى مجلة الافكار الحديثة والمجلة الدولية الالمانية وغيرها من الفهارس والقوائم .

فيها واقرهم عليها ، واى عالم لا يحب ان ينتفع فى عمله برأى عالم كالمسيو بوترو بلغ السبعين او كاد من عمره وهو يفني لياليه وايامه فى العلم والفلسفة

يشترط فيما يدخل دار معونة العلماء ان يكون ممتازاً بعقله واخلاقه ويفضل من يرتضي اساتذته اخلاقه ونبوغه ، ويشهدون فيه شهادة حسنة ، وان يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج ، وقد قضى الخدمة العسكرية ، ويعطيه المعهد ستين ليرة فى السنة لنفقته الخاصة ، وثلاثين ليرة ليسيح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة والرفاهية احداهما للنوم والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة عشر وهو عدد الموجود منهم في المعهد أبداً موسعاً عليهم لا يطلب منهم الا أن يؤلفوا ويبحثوا ابحاثا علمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨ ١٩٠٩ من شبان العلماء الى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع وعالم فى اليونانيات وحقوقيين وفيلسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين فى الجرمانيات ومؤرخ فى الآداب الفرنسوية وجغرافى وقد انشىء هذا المعهد فى سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من اعانتهم على الاخصاء فى العلم حتى الآن ٨٠ عالماً وكلهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت واردات هذا المعهد مئة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة آلاف فرنك ..

قام معهد تير العلمى فى أجمل حى من أحياء باريز فى حى الأشراف والنبلاء بالقرب من غابة بولونيا الغناء غربى مدينة باريز في الحى الذى تؤجر الدار فيه اليوم بثلثمائة ألف فرنك مسانهة وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق فى مكان يجمع الى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة وما يلزم لهم من المواد المفرقة فى مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات والمجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريبون عن الحركة العلمية والسياسية والاجتماعيـة وليس فى المعهد مكتبة كبرى لانها على اتساع مساحتها لا يتسع

صدرها لكل مايلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيهافقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والامهات التى لاغنية لكل عالم عنها وما عـدا ذلك فمكاتب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها ماراقهم كل ساعة .

وليست هذه الوسائط هى كل مافى معهد تيرمن المعونات لعلمائها بل ان لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير أهم الاسباب التى تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم كل الوسائط فلم يبق عليهم الا أن يقطفوا من ثمار يحبونها كل قريب وداذ

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركةفيتناولون طعامهم معاًويلعبون ويتنزهون معاً ويبحثون عن العلوم التى يعتون بها معاًويظلون هكذايعيشون عيشةالاتراب العاملين على ماتعلموا فى طفوليتهـم فى المدارس والكليات ويستفيد بعضهم من بعض فى العلوم المختلفة ويعاون بعضهم بعضاً معاونة الاخوان ويترفهون رفاهية لا يتمتع بها الا عقلاء الاغنياء

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل المجمع العلمى وحققت فيه مؤسستاه العقيلة تير وشقيقتهامارسمه النظار على ذاك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمى سان هيلير فكان تير الذى عـد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدموا بلادهم خدمة تذكر على الدهر فتشكر نافعاً لامته في حياته بعقله وفى مماته بماله فتى يصل الشرق يأترى الى هذه الدرجة فى العقل والاحسان ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار الى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأموالهم كما أحسنوها بعلومهم

ان شـبان العلماء فى هذه الدار بعد ان تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ماتعلموه أن يعانوا لينشأمنهمأفراد متفردون فى العلم فيتحولون بهـذه الواسطة من تلامذة الى أساتذة اكفاء أن يكفوا أنفسهم وأن يوجـدوا ويخترعوا وهذا موقوف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوابحريتهم وأوقاتهم على

مايشاءون فالعمل كما قال أميل بوترو هو السرور على شرط أن لايكون صاحبه مستعبداً فيه لاحـد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعاً فقط بعامل نتائجه الطبيعية وهى الايجاد والابداع ، وما التربية الا أن تخرج كل انسان على ما ينفع فيـه ، ويتيسر له النبوغ فى فروعـه ، التربية هى تخريج المرء أولا فى مجموع المبادىء العامة التى هى وقف خلفه لنا أسلافنا بتجاربهم وسموا ذلك العقل ثم تخريجه ثانياً فى ان يكون مخصياً متفرداً في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو مايتطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثاً ممن دخل فى هـذين الطورين فى التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف اليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث فى ان يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة . وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التعس الآن .

تآخى الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب فى الوجود نتيجة الدعوة اليه وتحبيبه الى النفوس ، عرف الغربيون هذه القاعدة فجروا عليها فى كثير من اعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والالمانية والأميركية وتوحيـد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرتستانتية والفلسفية .

وقد قام هذا الشهر فى فرنسا جماعة ممن يفكرون لخيرها رأوا ان بلادهم تنتفع كثيراً من تحسين صلاتها مع اميركا فألفوا جمعية دعوها « جمعية فرنسا اميركا » مؤلفة من علماء وسياسيين وقوادواجتماعيين ومعلمين وفى رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التآليف الكثيرة في التاريخ

والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق ، وقد أنشأوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو الى هذا الغرض استفتحها رئيس الجمعية بمقالة فى الغرض الذى يرمون اليه وكتب فى المجلة الأسبوعية مقالة طويلة الذيل فى هذا الشأن فرأيت ان الخص للمشارقة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لننعى على أنفسنا نومنا عن النظر فى مستقبلنا .

قال هانوتو — ان النجاح معقود بناصية من يعمل فى الوقت اللازم ، ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ الى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم الى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به . هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذاك الحين واذ قد سكنت الآن وجب علينا ان نعمل عملا يحمل فى مطاويه احسن الفوائد

تبدلت الارض غير الارض فى خمسين سنة حتى صح ان نقول ان قارتي آسيا وافريقية كانهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وحملت اليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة ، فقد غير دلسبس بفتحه ترعة السويس شكل الارض كما ان جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسما كافياً من قسمة الاراضى الجديدة .

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ، ويستغنى عنا ، فان مسألة باناما المشئومة . التى جاءت بعد مسألة المكسيك قد اثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الاوروبية الكبرى التى اضطررنا الى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية . وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها أسبابنا فى العمل واحتفظنا باساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاء وأكثر مضاء وأقل مطالب

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا فى قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان

الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ — ٣٦ مليوناً أى مايقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠ - ٦٣ مليوناً وهاهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً . وفى كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفى الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليوناً وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ — ٣٥ مليوناً

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ ملياراً وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ — ٧٥٠٧٩ مليوناً فأصبحت سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ مليارين ونصفاً . ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية .

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ماهناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت اميركا حركة كبرى في العالم بدخولها مضمار الاتجار فاثرت فى فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه الى ذاك التاريخ قريبة بتجارتها من انكلترا أى لها المقام الثانى فى التجارة فأصبحت اليوم فى الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة والمانيا . أى اننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الاولى أو ان نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضى لها الارادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة الى تقاليدنا والانتفاع من اسبابنا

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذى أحاط بطرفى البحرين المحيطين فهي المهيمنة على أعمال العالم فان عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد ان يجىء زمن تتداخل فيه فى السياسة الاوروبية وان الفرنسويين فى كندا ليبلغون مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيس منتشر فى جمهورية الولايات المتحدة ولا سيما فى الجنوب واللغة الفرنسوية فى هايتى هى اللغة الرسمية فاذا حسبنا المستعمرات الفرنسوية فى كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيس ومن

يتكلمون باللغة الفرنسية من الاميركان ليس بقليل

وان مالنا من الايادى فى أميركا ولاسيا وقد قرن فيها اسم لافاييت الفرنسوى باسم واشنطون الاميركى الذين ساعدا على استقلال الولايات المتحدة وماوضعناه فيها من أموالنا وقمنا به فى جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية والمشاريع الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال الى أن نصل الحاضر بالغابر وان لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع

والناس مهما تقلبت بهم الحال لايزالون يذكرون لفرنسا بيض أياديها على المدنية واذا نسوها فانهم لا ينسون باريز التى تنشر أنوارها على العالم واليها يحج الألوف من الاميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت الرفاهية فى ديارهم تدعوهم الدواعى الى نزول باريز وما فى أراضى فرنسا من المصايف والضواحى ككوت دازور فان مجموع الاميركيين الذين يختلفون كل سنة الى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح . فعقد الصلاة بين فرنسا وأميركا فيها كل مانحتاجه من الاسباب القوية فان كانت أميركا الشمالية تدعونا اليها بما فيها من القوة والعظمة فاميركا الجنوبية تنادينا اليها القرابة لان عناصرها لاتينية وتربتها لاتينية فمن كندا الى مضيق ماجلان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى الدم اللاتينى ممزوجا فى شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح اطلاق المثل القائل « هذا دم لاماء »

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا فى القارات والاقطار الأخرى فقد كانت جمعية « أفريقية الفرنسوية » أعظم معاون للحكومة فى أعمالها الاستعمارية وجمعية « آسيا الفرنسوية » أخذت على عاتقها مثل هذه المهمة « وجمعية مراكش » تعمل على نشر الافكار الفرنسوية فى الغرب الاقصى فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ الى أميركا من معارفنا بقدر مانأخذ عنها . فلا نرمى الى الدخول فيها ونشر كلتنا بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونحالفها نريد أن نتعلم عليها ونحن أبناء المدنية القديمة درساً فى النشاط والمضاء فان كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعها فللمدن

الحـديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون ارج المستقبل

قام فى واشنطون مثل عملنا هذا يرمى الى التقرب بين جميع العناصر فى العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الاميركيـة انشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الاخرى ومنحه المستر كارنجى مبلغاً جسيما من المال وهو يفتح قاعات لالقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لاخذ المواد والتعليمات وخزانة كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة الى هـذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما أن اسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين اسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتقال للتوفيق بينها وبين البرازيل . وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الاميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نحبب فرنسا الى نفوس أميركا و نعرفهم بها ونحبب أميركا الى نفوس الفرنسويين و نعرفهم بها

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الاميركيـة التى أدهشت العالمين المدنى والوحشى . فان مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرنسيسكو قد امتازت بغناها فى زراعتها ومعادنها وصناعتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان فى الثماني والاربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والارض الهندية والاسكا وجزائر هاواى ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سـنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فداناً (آكر) وثمنها ٢٠ ملياراً ونصف مليار دولار أى ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ — ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكيال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و٨٠٧ من القرطمان و٣١ من الجاودار و١٦٦ مليوناً من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون ليبرة من التبغ و٢٧٨ مليون مكيال من البطاطا و١٣٥ مليون ليبرة من الصوف النقي

وكانت مساحة الغابات الاهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون

دولار دع عنك الصيد فى بحار أميركا وأنهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات .

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع مافى الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الاولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر ملياراً . وفى سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لانشاء محال وأماكن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال

وبلغ طول الخطوط الحديدية فى هـذه الولايات سنة ١٩٠٧ = ٢٣٧ ألف ميل أى ٣٨١ ألف كيلومتر لها ٥٥٬٣٨٨ قاطرة و٢٬١٢٦٠٠ مركبـة فيها من المستخدمين ١٦٧٢٬٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الالفية (الالف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ ملياراً ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ ملياراً دولار وصافي ريعها أربعة فى المئة . وفيها ماعدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلا من الخطوط الكهربائية . وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨=١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليونا

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لولم تكن الاخلاق أساس عظمتها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والاعمال والصناعة والتجارة . وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطون التى هى مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم . وان كثيراً من الاسر لينزلون مدينة واشنطون عاصمة الولايات المتحدة فى سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو . وليس للاميركان مثل فرنسا بلاد يغترفون منها مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تتلقاهم بقبول

حسن وتوفر الارادات على حبهم . وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون فى بلادنا مايتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم فى كليات أميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذصغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر .

لما وصل النقل الى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق . ذكرت حال العثمانيين والايرانيين وأنهم وان كانوا من أمم مختلفة فجامعتهم الكبرى وهى الاسلام لاتقول بجنس ولاعنصر فلو كنا وكانوا على شىء من العلم الحقيقى اما كنا ندعو الى انشاء جمعية عثمانية ايرانية كما ينشىء هانوتو اليوم جمعية فرنسوية أميركية

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم. وجهلنا وجهلهم لاتلبث أن تنفجر براكينها اذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الاب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات فى البلادين وينفخن فى أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر . وان العاقل ليربط على قلبه بيده عند مايفكر فى عاقبة سعى الجهلاء لابقاء سوء التفاهم بين العثمانى والعثمانى فكيف يتمنى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثمانى بالايرانى . فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون

محاضرتنا فى نهضة العربية

١٧

فى باريز ثلاث جمعيات شرقية الأولى جمعية شبان الاتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الاسلامية والثالثة جمعيةالاخاء المصرية . اتخذت كل جمعية لها ناديا وأخذت تعمل على مافيه غايتها وقد كلفتنا جمعية الاخاء المصرية ان نلقى عليها

محاضرة فى نهضة اللغةالعربية فى المئة سنة الأخيرة فألقينا عليهم المحاضرة الآتية فى ناديهم فى قهوة فولتير أمام دار تمثيل الاوديون :

سادتى الاخوان

سألتمونى سعدت بكم أوطانكم ان أحدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية فى المئة سنة الأخيرة وما منكم الا من أستفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه . أنتم من أهل الفئة الفاضلة فى وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وان تعمروا أكناف معالمه ومجاهله بما تقفتموه فى هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة . فانى لى وأنا نازل بينكم متعلماً لامعلماً ان أفوه فى حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء وما حالى وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسى الا حال من يحمل التمر الى هجر أو المسك الى أرض الترك أستغفر الله بل ان حال من يلقى محاضرة على جمعية الاخاء المصرية فى باريز أعجب وأغرب

اخوانى : تعلمون قرت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها مايعرض لكل كائن فى الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتعس أيام ضعفها كانت فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة وهو عهد الفتور فى جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة . ثلاثة قرون بل أكثر مضت فى مرض مستحكم كانت تكفى لموت هذه اللغة الشريفة التى تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم أن يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض على زهاء مائتى مليون من المسلمين أن يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام فى الأرض مسلم يوحد الله .

لابد لكل حركة من سبب . وسبب ماعرا العربية من الضعف فى تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العلمية صورية ينظر فيها الى الاشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد

وعدوا ماعداها من العلوم فضولا لاغناء فيه وساعد على انتشار هـذا الرأى السخيف ماأصاب البـلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد الامن وفى النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربى من لم يترب

وكأن قدرة المولى تعلقت بان هـذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها ان تأتيها الصحة على أيدى غـيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ نهوض اللغة العربية كان فى مصر أيام محمـد على وقد صحت عزيمته على خدمتها مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيس فكان من أعماله الجليـلة ماخلد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لامن حيث منازعه السياسـية من أعاجيب الحكام فى الشرق . والشرق أبو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل أن محمد على كان امياً أو يقرب من درجة الامية . مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرناؤدياً ولم يخط سطراً واحداً لأنه تعلم فى الكهولة مبادىء طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد عنى بما لم يعن به أحد من الملوك المتأخرين وشرع منذ استقام له امر مصر يختار الاذكياء من أبنائها ممن قروءا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة إلى أوربا ليخصوا فى العلوم التى أولعوا بها حتى اذا عاد أحدهم وأتم تحصيله يحبسه عنده فى قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية فى الفن الذى أتقنه ويوعز إليه بأن لايخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعينات على الترجمة والتأليف فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان فبعد أن تنظر فيه ترخص بطبعه فى المطبعة الاميرية ويغدق الاميرعلى المترجم أنواع الهبات ويشرع فى ترقيته فى المراتب ان كان ممن استعدوا للادارة أوالجندية أو البحرية وإذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس فى بيوت العلم موسعاً عليه فى الرزق ليتخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان

يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجين ولكن مايصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة فى الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر مايستكثر ماتم على يد محمد على الامى الالبانى وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين .

قال لى صديقى الدكتور عثمان باشا غالب أحد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التى اختطها محمد على لمن يجىء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية فى إبانها ثم شاهدها فى انحطاطها وهو يشهدها الآن فى تجددها . لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو على باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية فى المدارس الاميرية زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لايتأتى الا اذا أتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف فى أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لابناء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لايسدون حاجة مصر وأخذت المعارف فى عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنلوب وارتين من كل ماينفع اللغة أوكان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة اكداساً فى مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل العار على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق اخوة يوسف ابن أبيهم على حين كان على مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التى تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته

قال غالب باشا كان أكثر أساتذة المدارس التى أنشئت فى مصر على عهد نهضتها الاولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسوية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقى على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠

الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسوى رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر فى عهده يقول له فى تقريره السنوى أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ قد أصبح فيهم الكفاة الآن وان مهمة فرنسا فى تربية أبناء مصر فى هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت .

نعم فى ذاك العهد تم للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد أن انقطع سند العلوم منها قرونا وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوى والرشيدى والشباسى والهياوى والنحراوى وحماد وبهجت والفلكى وندى والنبراوى والبقلى ألفاظاً من لغتنا كانت فى حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية فى بغداد والاموية فى قرطبة والفاطمية فى مصر وأضافوا الى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التى سلك عليها أجدادنا المعربون غالباً حتى أن الاتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم فى البلاد العثمانية والايرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنزاً حاضراً ينتفع به فى الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة فى الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمتها وأدمجوها فى تضاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي الى التخرج فى أوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لا فى القطر المصرى فقط بل فى البلاد العربية كافة وأصبحت مصر ببيض أياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التى ترجمت فى فنون مختلفة من الافرنجية زهاء الفى مجلد . والأثر الاكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوى شيخ من ألف وترجم فى عهده بما خلفه من قلمه أو عرب فى قلم الترجمة

برئاسته وما بثه من المبادىء فى مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل . خل عنك تلك الجرائد والمجلات التى صدرت فى تلك الاثناء ومنها جريدة وادى النيل لابى السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يقول أى علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة اللغة التى يراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس الا . والجواب انه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هـذه المعارف . فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا للغة دخل عظيم فى سلاسة آدابها بما تأخـذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحية ان لم تكن لغة علم قبل كل شيء

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبيـة وهى انا اذا تدبرنا تاريخ محمـد على وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من أعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذى أنفذ اليه الرشيد العباسى رسولا من قبله سنة ٨٠١م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهـذا الذى كان يحمى الملتجئين اليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء فى قرطبة . كان شارلمان لأول أمره أمياً تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد على الا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين والمتعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس باشارة الكوين المشهور أستاذه وأمين سره وباذر الجراثيم الأولى من المعارف فى هذه الارض الفرنسوية وبمساعيه أنشئت المدارس فى اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب

ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ماحدث لنهضة محمد على حذو القذة

بالقـذة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لان من خلفوه على سرير الامبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة فى البـلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالافراد وعلى العكس منها فى البلاد الراقية . أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات فى خلالها التعليم أوكاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتباه عقول الامـة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعـد محمد على بنحو خمسين سنة متكلة في مهمتها على نفسها لاعلى الحكومة وبذلك جاز لنا الاستنباط بان كل اصلاح يقوم بالامة فى هذا الوجود يكون الامل فى بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما فى الدول الاستبدادية التى تجد فيها تمييزاً بين الامة والحكـومة . والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب فى العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجهل على العـلم . ولهذه المسألة نظائر كثيرة فى تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى فى برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهـدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى نقل .

كان الادب العربى قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجمل باردة سمجة وشـعر ركيك أكثره فى الاماديح والاهاجى وان ارتقى الشاعر انفتق لسانه فى وصف الخد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال وما أظنكم أعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم فى زمن قام فيه من الكتاب أمثال[1] محمد عبده وعشرات غيرهم لاتحضرنى الآن أسماؤهم من شـيوخنا وكهولنا

(١) حذفنا في هذه الطبعة ما كنا أثبتناه من أسماء الكتاب والشعراء والخطباء في الطبعة الاولى لحكمة لاتخفى على الناقد

وشباننا . وقام من الشعراء محمود سامى وغيرهم ممن هم عمدة العربية فى نهضتها الاخيرة عملوا لخيرها فى مصر والشام والعراق وتونس أعمالا وخلف أكثرهم من مآثر فضله مايطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله .

وبينما كانت اللغة العربية تزهر فى مصر فى الامارة العلوية عز على الشام أن تكون دون شقيقتها فى هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة فى سورية لا بواسطة الحكومة كما فى مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك فى أواسط القرن الماضى وكانت مدينة بيروت وهى ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسلى الفرنسيس والاميركان وأنشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمد مسعاهم وكانت اليد الطولى فى تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من أعظم مؤسسى الكلية الاميركية الانجيلية فى بيروت تعلما العربية وأتقناها وألفا بها التآليف العلمية النافعة والاول اميركى والثانى أرمنى ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم فى الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية قاوما ماوسعتهما المقاومة ولما أخفقا استقالا من وظيفتيهما لأنهما أبت مروءتهما الا أن يمحضا النصح للبلاد وللغتها . والدكتور كرنيليوس فانديك لاميركاني فى سورية بفضله على اللغة العربية وماعرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوى فى مصر ووجه العجب فى فانديك أعظم لأنه أميركى الجنس والمنشاء غار على لغة العرب أكثر من أهلها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لهما حقهما على مايجب وكان على القطرين أن يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو أو كما رفعت مصر لمحمد على وابراهيم . والعلماء ان لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة فى بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم .

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية فى بيروت على ذلك الدور

أيضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء . ولم تحرم الاستانة — والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله — من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح علي صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه .

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مشيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلا في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وانكلترا وتعلم في خلال ذلك الانكليزية والافرنسية ثم دان بالاسلام وألف بعض الكتب ومنها اللفيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه في أوربا كتاب الساق على الساق في ماهو الفارياق أو ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجام طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ هـ . وضمنه ترجمة حياته وشؤونا وشجوناً على اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعده من الانشاء المعروف عند الافرنج بالامورستيك (الجد في الهزل) أو الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبر او الناتوراليست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا وانك لتدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتانته في التحرير والتحبير فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات احمد فارس فيها قاموس الفيروزابادي الذي ألف كتاباً مهما في نقده وسماه الجاسوس على القاموس - كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة مايشاء ويستحضر في دقيقة مايصعب الاتيان به في ساعة ويتفنن ماشاء بيانه وتبيانه .

ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه « فارس » وآخر اسم أسرته « الشدياق » وقد حمل في كتابه على رؤساء الدين حملة منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلماً وتعصباً

جعلوه فى بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتى [1]

هبط أحمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حال اوربا خبرة زائدة وانشأ جريدة الجوائب التى طار صيتها فى الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك الاطراف يهادونه ويمنحونه المنائح وممن كان يساعده خديوى مصر وباى تونس وملك بهوبال فى الهند حسن صديق خان الذى طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بابى الفداء صاحب حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب فى فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التى اسست بعدها على نسقها وقل ان نشأت لنا جريدة فى صحتها وديباجتها العربية اللهم الا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحى والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لان جريدته كانت كهاته اسبوعية وله فيها مساعدون فى الاقطار كان يهاديهم ويهادى علماء عصره حتى كثر أحبابه من العلماء فى شمالى أفريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذى يتولى النظر فى كل ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك بكلام تصقله الانامل الفارسية . فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة فى آدابنا بما خلفه من آثاره . ومن اراد أن يطلع على شيء من كتاباته فى جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وان أحب الاطلاع على الجوائب برمتها فى حجمها ووضعها فليرجع اليها فى خزائن الكتب فى أوربا ومصر والاستانة

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر الليال ورحلة له الى أوربا جدية محضة وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدى

---

(١) هنا قرئت نموذجات من شعر أحمد فارس ونثره من كتابه الفارياق

والطغرائي والبديع وغيرهم من أئمة الأدب نشرها على أحسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدونها فى اسلوبها . ومابرحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكتب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون .

ابتلي أحمد فارس باناس حسدوه وأى عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا الاجرأة على الجرى فى مضماره وقبولا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية أشبه بسانت بوف فى نقده كتاب عصره من الفرنسويين فاستفاد أرباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنون قايلا فيما يكتبونه وأخذت تخف اغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الافرنجية ونحا المؤلفون مناحى قدماء الكتاب فى ترك التكلف والتعسف حتى صح لنا أن نقول اليوم أن أسلوب الكتابة العربية لاينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بايجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم .

نعم عادت للغة العربية ولا سيما فى الثلاثين سنة الاخيرة نضرتها الاولى فى القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذى أتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة فى الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد فى أكثره الا أن من جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه

واني لاأزال أذكر ماكنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعى بالادب

من مقامات الحريرى ورسائل الخوارزمى ورسائل الصابى وتاريخ اليمينى للعتبى ومقامات الزمخشرى ومقامات الاصفهانى وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الأدب لابن حجة والريحانة للخفاجى وغيرها من الكتب التى كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها فى خلوتى وجلوتى . ولما كتب لى الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية وانشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبى حيان التوحيدى وابن مسكويه والراغب الاصفهانى والغزالى والماوردي والطبرى والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت أعجب من نفسى كيف أضاعت وقتها فى تلقف تلك الاسفار المسجعة وفى اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والتبيين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو فى الحقيقة ونفس الامر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت أعجب من أقبالى أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفى الحلى وابن منجك وابن مليك والجندى من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبى الطيب وأبى عبادة وأبى نواس والشريف الرضى وابن حمديس الصقلى وأبى فراس الحمدانى .

يرجع الفضل الاكبر فى انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين أمثال دوزى ودساسى ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون فى مطبعتهم المتقنة فى بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التى ألفت في أوقات مختلفة فى مصر لاحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التى طبعت لنا المخصص لابن سيده أحسن كتاب عنى بطبعه فى شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال أعانت العربية

على تحسين آدابها وترقيها . ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا فى منظومهم ومنثورهم على مناحى الاوربيين من حيث قلة الـكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منـذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم فى جرائدهم ومجلاتهم أفكار الغربيين فى سياستهم وعلومهم واجتماعهم فـكونوا مجتمعنا الادبى على ما ترونه وجددوا للغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء .

أنا لا أقدم لـكم مثالا من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيلـكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة فى سورية والفلاح والمحروسة فى مصر وان ترجعوا إلى كتابة الدواوين فى مصر فى منتصف القرن الماضى مثلا وترجعوا إليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء . قابلوا المنشورات التى تصدر اليوم فى الوقائع الرسمية فى مصر وما كان يصدر من أمثالها منـذ مئة سنة مما أورد الجبرتى فى تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصه وفصه . عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن المحامين وأقلامهم فى مصر من التفنن فى أساليب الدفاع والتأثير الخطابى وبين ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحـاً منه يتجلى لـكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا للخطباء اليوم ممن درسوا الدروس النظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقابلوها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم وان كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخراً واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة اقرأوا المحاضرات التى تتلى اليوم في نادي المـدارس العليا ونادى دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التى كانت تتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلا تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع في الاداء والالقاء .

أليس مما يعد من نهوض اللغة مانراه من أحكام ملكتها فى طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى فقد رأينا طلبة احداثا تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخير على غير حق اما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت احاطة نبهاء الغربيين .

واليكم أيضاً مثالا صغيراً اذكره لكم دليلا على ما أتت به بعض مدارس مصر فى حياة اللغة فقد شاهدت فى وادى النيل بعض العمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة فى الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف فى التعبير مما لا تتلوه فى عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم . نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على انتشار الآداب وادخلت الغيرة على التعلم في نفوس ارباب الاستعداد

ولذا رأينا البلاد العربية التى لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم مازال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراكش فان مدينة فاس منذ القديم ماخلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يعد فى الطبقة الثانية فى كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر فى دور من الادوار سوق نافقة ولان حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيسا في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم .

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التى بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة

الاذكياء من الخلدونيين وغيرهم . أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر فى ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هنالك فى صحراء مراكش بلد غريب فى تلقف ملكة العربية وأعنى به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطى الحافظ المشهور فى عصرنا . وطريقة أهلها طريقة الأقدمين فى التلقى والاستظهار وقد شوهدت فى شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر .

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في أحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضر موت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتم المشاركة في حياة العربية ونعنى بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجز على الافكار الذى دام في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لانغالي اذا قلنا أن ثلاثة أرباع ماتم للعربية من الارتقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس . ومن الاسف أننا لانزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربى منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الاغلاط فى التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التى صدرت مؤخراً فى طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجرى سورية فى أميركا الشمالية والجنوبية وهى لاتقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرشيق . ومع هذا فان الآمال قويت بأن لاينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التى ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال

والظاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجداً فان فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر الى الآن من لو تمرنوا على العمل اذا تهيأت لهم الاسباب لاتى على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجى ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرغوا أو أفراد منهم للدرس والاستنارة

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة ألقيته في هـذه المحاضرة وربما خرجت عن البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وانتم تعلمون اني على أوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

كلية باريز

١٨

كلية باريز من أقدم كليات العالم في التاريخ ان لم تكن أول كلية أنشئت وقد كانت في القرون الوسطى بلا مراء أشهر كلية وأكثرها إيواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال أحد الفضلاء ينظرون إليها بانها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت ارثا شرعيا صحيحا وكانت أول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس نينوى والمملكة الأشورية الأولى وخلفتها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية منفيس كلية آثينا وبعد هذا نشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشتهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها أم القرى وتلك من أعمالها مثل مدرسة الانكليز ومدرسة الايكوسيين والألمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك اليها

بأولادهم ليتخرجوا فى المنطق ويتعلموا رقة الجانب وحسن الادب والعشرة .

ظلت هذه الكلية منذ القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر تربى معظم الرجال الذين يختلفون الى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة ، ومن مشاهير من تخرجوا فيها غليوم اوكام ورايموند لول وتوما دا كين وبنوا دانانبي وبونيفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانتى وتوما موروس وايراسم وغيرهم وجميع طلابهـا على اختلاف أصقاعهم كانوا يرتاحون فى حماها وكان مطمح أنظارهم حب الحقيقة وهى القاعدة الاصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه . ولقد جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة فى جدران المدارس إلا أن كلية باريز أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الافكار الفرنسوية وكانت وحدها تكفى لانارة العالم إلا قليلا وكان رجال تلك الازمان ينسبون العلوم إلى مواطنها ويرجعون الامور الى مصادرها فيقولون ان رومية مقر البابوية والمانيا مقر السلطة وباريز مهد العلم

وكانت الافكار الفرنسوية – كما قال أحدهم فى المجلة الباريزية — هى أكبر معين فى القرون الوسطى عضدت إلى النهاية الصليبيين فى نشاطهم وهيأت أسباب الحماسة الدينية وفتحت لامم المغرب ونشاطهم طرقاً جديدة فى العمل ومن الافكار الفرنسوية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجلية فى صورة مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووضعت أسس الوحدة الوطنية . والافكار الفرنسوية هى التى طهرت رياح الاصلاح والنهضة وقادت الافكار القديمة الى التجديد وأنارت العالم بقبس أنوارها . والافكار الفرنسوية هى التى حملت الى العالم فى عهد فولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الدينى والعدل الاجتماعى والحق والانسانية . والفكر الفرنسوي هو الذى سن المبادىء الخالدة فى دساتير الامم المتمدنة بأسرها . فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك وحرية اليونان وحرية ايطاليا وحرية العثمانية ، وفرنسا مهد الادب تنشر أنواره فتتناوله الاجانب وتتقبله بقبول حسن وهى البلاد التى اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريز اخترع أمبير اختراعاته التى لولاها لما اخترع التلغراف اللاسلكى والسلكى والتلفون ولم تتم عجائب الكهربائية الصناعية . وفى كلية باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذى جعله المحسن الى الانسانية فى العالم أجمع وفى كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية فى المواد العضوية فنشأت منها الكيمياء الحديثة وفى كلية باريز اخترع كورى وقرينته الراديوم واهتزت فى أيديهما ذراته . وفى معامل كلية باريز أوقد موسان للمرة الاولى التنور الكهربائى كما اخترع غيره التصوير الشمسى بالالوان

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العلمية وفيها اليوم زهاء ثلاثمائة أستاذ يفيضون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم ولا سيما على أميركا الجنوبية وبوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الدار رسول السلام بين الأنام ومعلمة الناس كيف يكون التجانس الروحى والاخاء العام . ولكم كان أساتذتها يسيحون فى بث ما علمهم الله فى البلاد التى يقل فيها العالمون ولكم أنشئت فى حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب وتعليم الجاهل منهم ولكم رنت فى غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء الأرض أتوها يحملون اليها نتائج ابحاثهم ودروسهم ، فان كانت كلية باريز أم كليات براغ والاستانة ومصروغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأميركا اللاتينية فهي تفاخر بأنها أم كليات انكلترا وايكوسيا .

ويؤخذ من احصاء سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ انه كان فى هذه الكلية ١٧٣٠٣ طلاب منهم ٣٣٦١ من الاجانب فتيان وفتيات ؛ ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون الحقوق و ٥٢٠ يدرسون الطب و ٧٧٣ العلوم و ١٠٦٢ الآداب .

ولم تقصر كليات الولايات ، وعددها اثنتان وعشرون كلية في بث روح التكافل الاخلاقى والعقلى فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسويين في اسبانيا وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الاسبانية العالية فى مدريد

... أت كلية كرنوبل المجمع العلمي فى فلورنسة وكلية نانسى وهى على الحدود به تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم ، وهكذا الحال فى كلية وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد سيل يدل على تفردها فى هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية

هذه شذرة صغيرة فى وصف كلية باريز التى ما زالت الحكومة الفرنسوية تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن اعطائها المنائح الكبيرة فقد وهبها كارنجى المحسن الاميركى كثيراً كما ان بعض الروسيين منحوها مالا جزيلا والفرنسيس يعطونها عن سعة . فحيا الله يوما تقام لكل قطر من أقطار البلاد العربية كلية مثل هذه تدرس أبناءها علوم البشر بلغتهم وتكون مجتمعنا بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى فى الغرب : كالبلجيك وهولاندة والدانيمرك والسويد ونروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا والبرتقال .

حدائق باريز ومتاحفها

١٩

يطول بنا نفس الكلام اذا أردنا الافاضة فى كل فرع من فروع العمران بباريز وكلها مما يحتاج الى صفحات كبيرة وربما مل القارىء قبل أن يمل الكاتب . ولقد عنيت مدة مقامى فى هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتى الا فى البحث عن جمعية أو انسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق الايدى وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لاوقات الفراغ غشيان الحدائق والمتاحف ودور التمثيل والسماع

فى باريز حدائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحى أو شارع صغير

ويسمونها « سكار » وهى كلمة انكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحدها حاجز من قضبان حديد وتكون فى ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كلية حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بإنسانية وحسن تعهدها . أما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف فى كل نزهة بعض الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصتها به يد الصانع وأيدى البشر من مجالى الظرف والجمال .

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة كلونى وحديقة لوكسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفاً بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التى يتنزه فيها المتنزهون هى في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كبيراً كان أو صغيراً ماينبغى له من هذه العلوم درساً عملياً لايحتاج فيه الا الى انتباه فكر قليل حتى اذا أسعده الحظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل .

ولقد رأيت فى حديقتى الحيوان والنبات أشياء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها فلما وقع النظر عليها تبينت فضل عرضها وأن العلم النظرى اذا لم يشفعه علم عملى يبقى كالسيف فى غمده أو البندقية في معملها أو الكهربائية قبل توليدها وليس فى البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق اللهم الا أن تكون حديقة الجيزة والجزيرة والقناطر الخيرية في مصر وحديقة الامة وغيرها فى الاستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريزيون لا تقسهم وينظمه الانكليز أو الطليان والنمسويون لنا ، وما حك جسمك مثل ظفرك .

وانك لترى في بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا فى السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا الى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمناً وأصبح لهم في تاريخها ذكر يردد ، ففى ساحات باريز وشوارعها ٦٨ مشهداً Monument لمشاهير علمائهم

ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرد دى موسه وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكى دى موباسان وجول سيمون ولافاييت وواشنطون ولافوازيه وباستور وفيكتورهوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالا اثنان منها لاسكندر دوماس الابن والأب . وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلودبرنار وكوندورسه ودانتى وديدرو وغاريبالدى وجورج ساند وجان جاك روسو ، وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبير وفولتير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية .

هذا داخل العاصمة أما خارجها فلها من غابتى فنسين وبولونيا أعظم فسحة ونزهة وغابة فنسين فى شرقى باريز على بضعة كيلو مترات من نقطة دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتارا وفيها من أنواع الراحة وتنويع المناظر المفيدة ما هو العجب العجاب وأعجب منها غابة بولونيا فى غربى باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتاراً زرتها ثلاث مرات وان كانت فى الشتاء ليست مثلها فى الصيف على انها ما خلت من الأنيس والجليس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحية والشمس طالعة مريضة صحيحة والعيون المراض الصحاح خرجت من كناسها تستنشق الهواء النقى ، وهناك منظر من بحيرات بولونيا وطرقها لا أدرى كيف يصوره الشاعر اذا كان الوقت ربيعاً أو صيفاً أو خريفاً . ولو كنت شاعراً لحبرت فى وصفه القصيد وان زرتها في الفصل الميت كما يقول الفرنسيس

***

أما المتاحف البارزية فهى أيضاً قصور نزهة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفاً يحتوى كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من ارتقاء البشر فى الصناعات والفنون على اختلاف الاعصار زرت بعضها وقضيت أوقاتاً طويلة في متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريز . أما متحف اللوفر فهو من أجمل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أغسطس وما زالت أيدى الملوك تتعاوره بالاصلاح أو التدمير

حتى اذا كان عهد فرنسيس الاول أصبح اللوفر متحفاً يقسم اليوم الى سبعة متاحف فى متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهى متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت فى القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسياوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الافريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والاوانى الخزفية القديمة ومتحف الفلز والحلى والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ، ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الاقصى .

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفى النظر ، فتأخذك الدهشة من رؤية المكان ورؤية المكين وتقضي بالعجب من كل ما يقع عليه بصرك اذ تتمثل لك عظمة الانسان وتفننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه .

أما متحف فرسال فهو فى مدينة فرسال . وكانت فى القرن الحادى عشر للميلاد قرية فاصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لانه أقام فيها قصراً للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها ابنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفاً على عهد الثورة ، وهكذا اذا أراد الملوك أن يعمروا بلداً أحيوه واذا شاءوا أن يخربوه أماتوه . واشتغل فى اقامة قصر فرسال الذى جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون ألف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخي .

أما مجموعة الصور البديعة التى فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير فى العالم ومن يمعن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر

ومن جملة ما حواه أسلحة بيوت الشرف التى اشترك فرد أو أفراد منها

فى الحروب الصليبية . ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذى أهداه السلطان محمود العثمانى سنة ١٨٣٦ الى لويز فيليب صاحب فرنسا . وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كلبر الفرنسوى وسليمان الحلبى يقتله فى حديقته فى القاهرة زمن الاحتلال الفرنسوى فى مصر

أطلت الروية في كل هذا وانعمت النظر في النفقات الطائلة التى أنفقت على هـذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسوية يريدون انزال الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنتقل الى أيدى الامة . نعم ان أقل نظرة الى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولـكن الحوادث كالحبالى لا تلد الا بعد اتمام مدة الحمل أو كالثمر لا ينضج قبل ابانه

ولم أتمـكن يوم زيارتى لفرسال من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الثلج بكثرة ولـكنى على الجملة أخذت منها صورة اجمالية كافية . شأني فى كل مازرته من المعاهد ورأيته من المشاهد فلم يتيسر لي أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغريبة

وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة فى الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الارض تجعل حدائق قد لايختلف اليها الا أفراد فى حين يهلك مئات الالوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادى والصحى أو يرثى لبـكائهم وتُسبَل على النظر هذه التحف والعاديات التى لا تقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنـكات لسد العجز في ميزانيتها . وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أهله المفكرة تحرر في الاجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الاقل على تعديل هذا النظام الجائر الذى يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب فى حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد

مكاتب باريز ومكتباتها

٢٠

لولم يكن فى باريز الا مكتبة الامة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف مليون صورة مختومة وألوفاً من الايقونات والانواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لانظار أهل العالمين من العالمين .

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها وأشرافها يتبارون فى أن يجعلوا فى كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى اذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الامة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نوادر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف

اختلفت اليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين فى قاعات المطالعة . وبلغنى أن الكتب التى اهديت الى مكتبة الامة فى العهد الاخير لم يتيسر ادخالها فى قوائم الكتب على كثرة موظفى المكتبة وكادت مطبعة الامة الاميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غروفان ما رأيته منها مطبوعاً الى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسها ويقضى فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفى النظر الاجمالى

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث فى مخطوطات مكتبة الامة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتى الا على قسم ضئيل جداً مما حوته فى بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية فى مصر ومكاتب الاستانة التى تتجاوز

الاربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدى فى الاسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الادنى اذا جمعت كلها فى صعيد واحد وجعلت لها فهارس وقوائم منظمة الا جزءاً صغيراً من ذاك الجسم الكبير . وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين فى مكتبة الامة بالنسبة لامثالهم فى البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالا ونساء شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الالف أحياناً وتجد فيهم الغرباء من أمم أوربا وآسيا وأميركا وافريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون فى البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويذ محلاة تقى البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يخطر ببال بعضهم ان هذه المكتبة هى كل مافي فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيس فيها قواهم وجمعوا لها من أقطار الارض كل غال ونفيس على عادة الافرنج فى التغالى بفخامة مصانعهم وضم شتيت متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للانتفاع ولكن فى باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضاً لكان منه مكتبة كمكتبة الامة بكثرة أسفارها الا أن هذه تفوقها بالنوادر من المخطوطات

ولباريز عشر مكاتب أخرى فى كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكليات والمجامع فان لكل واحدة منها ما يقتضى للمطالع من أسفار المراجعة وغيرها . أما خزائن كتب الافراد فهذه لايحيط بها الا علام الغيوب أو من يدعى أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب

ويقول العارفون أن قواعد بلاد الانكليز السكسونيين كالمانيا وانكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتوني اللاتينى كالفرنسيس والطليان والاسبان وغيرهم اذ ثبت أن تلك الامم العظمى الراقية

أكثر احساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسويين الذين جروا فى أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وان عرف عنهم انهم أسبق الامم الى التجديد ولكن تجديدهم فى أمور دون أخرى .

والانتفاع من الكتب أيضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا ان نفائس المخطوطات والمطبوعات الموجودة فى مكتبة الامة فى عاصمة الفرنسيس أو نقلت الى ليبسيك أو مونيخ أو برلين أو فينا أو اكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لانتفع بها وتيسر سبيل الوصول اليها لانها تكون هناك فهرسة مبوبة على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على اسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التى تقيد المطالع والمراجع . فان كانت فرنسا فى مقدمة شعوب الارض من وجوه كثيرة ولا سيما فى الامور الذوقية وبدائع الصناعات والاصلاحات الدستورية والانسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصرى

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فانا نجد المانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيس فيما يدل على سلامة الذوق حتى أن ليبسيك فى ألمانيا تبيع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن الكتبية الالمان فى نفس باريز تجدهم أمهر فى تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبية الباريزيين

جاء فى كتاب « المانيا الحديثة » أن المانيا أعظم البلاد اصداراً للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضى لاتخرج فى السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فاصدرت سنة ١٩٠٥ — ٢٨٨٨٦ كتاباً فى حين أن فرنسا التى هى فى الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فاذا قدر انه يطبع فى كل كتاب فى ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد

واحد فصناعة الكتب فى المانيا رابحة جدا . وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥—٧١٥٢ محلا تصدر الى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك

زرت فى جملة الكتبية الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهى ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسمائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والادبية والتقاويم السنوية المشهورة فى العالم وهى مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتبية العالم ان لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون أن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الالمان أو الاميركان لادهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم . فكأن دم الفرنسيس الذي غلى زمناً قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلي فيدهش بحرارته . ومن مكتبات باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة فى مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب الى التجديد منها الى الجمود على القديم

مجامع باريز العلمية

٢١

على الشاطىء الايسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخم قام قصر عظيم عمر فى النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسى مازارين الذى جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى . وأراد أن تنفق بعده فى الخيرات وحسن الاثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذى أوصى له بمليوني فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من أبناء الولايات الاربع التى

أضيفت الى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيللون

وهذا القصر هو الذى نقل اليه مجمع فرنسا العلمى سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان مفخراً من مفاخر الفرنسيس وحق لهم ان يفاخروا به وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمى الفرنسوى المعروف بالاكاديمى أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسوية وادخال المفردات الجديدة ونبذ القديمة أواصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلا ويقال لهم المخلدون على سبيل الدعابة لأنهم اذاخلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء فى الحال من يخلفه والمجمع الثانى مجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث مجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كولبر سنة ١٦٦٤ ومجمع العلوم أسسه كولبر أيضاً سنة ١٦٦٦ ومجمع العلوم الاخلاقية والسياسية أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون في العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به ، وفى باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمى مكتشف الميكروب والمجمع الكيماوى ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم البكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها واكتفى فقط بوصف جلسة عامة حضرتها [1] من جلسات مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية

فى اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهى القبة التى تجتمع فيها المجامع الخمسة المعددة فيما تقدم اجتماعها

---

(١) هنا أرى من الواجب على أن أشكر اصديق العالم المسيو الفرد لشاتليه استاذ علم الاجتماع الاسلامى فى كوليج دى فرانس ومدير مجلة العالم الاسلامى ومجلة السجلات المراكشية ومجلة الافكار الحديثة لتفضله بتعريفى الى كثير من اصدقائه من رجال العلم والادب والسياسة في باريز وبهم تيسر لى ان اطلع من مدنية هذه الامة فى شهرين ما يتعذر على غيرى ان يراه الا في شهور واشكر خاصة امين سره الكاتب المسيو لوسين مورى الناقد الادبى فى المجلة الزرقاء واحد كتاب هذه العاصمة المجيدين الذي تفضل واضاع من وقته كثيراً ليقدمنى الى معارفه ومعارف المسيو لشاتليه المشار اليه

السنوى وقدر الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء . جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحدمنهم ويرى وكان أكثرأعضاءهذا المجمع بلباسهم الرسمي فجلس على كرسى الرئاسـة المسيو رنى ستورم وتلا كما هى عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ انشائه قائمة باعمال المجمع منـذ اثنى عشر شهراً وصفق الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألفوها ، وأعمال قاموا بها لخـدمة الانسانية وتعليم البائسات واطعام الجائعات واليتامى والعمي وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من اثنى الرئيس على أياديهن البيضاء كالام ارنستين التى أنشأت معملا وملجأ في مدينة روان والعقيلة بيكوين التى أنشأت فى باريز ملجأ سمتـه معمل الجهاز والآنسة دى رشمون التى أنشأت فى مدينة كرنيل منـذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوى اليه أربعمائة ابنة من بنات العملة وأنفقت عليه ثروتها ، ومن المعاهد التى أخذ هذا المجمع النظر فيه معهـد كارنو وهو الذى منحته العقيلة كارنو امرأة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتى بثمانيةعشرألف فرنك دخلا سنويا وقضت بأن تقسم الى ٩٠ اعانة كل واحدة بمائتى فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتـل كارنو على تسعين امرأة من نساء العـملة ممن لهن أولاد ، ومن جملة الجوائز التى منحها المجمع للمؤلفـين جائزة الاجادة لمن ألف كتاب « افريقيـة للاوربيين » وكتاب « أوروبا والمملكة العثمانية » .

ثم قرأ المسيو دى نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسالفه فى هذه الوظيفة جورج بيكوفائر فى السامعين وأبكاهم ، وتفـنن ما شاء وشاء البيان فى وصف حسنات المتوفى واقتداره . وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ فى الورق بنغمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العالمون العاملون طربهم بنغمات الاوتار وتغريد الاطيار فى الاسحار .

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمثلت لى أرواح أولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا اخلافهم سنن

الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون ، وحدثتني النفس ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفي بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في نهضتنا ، ونحن عن اقتصاص آثارهم غافلون .

كنائس باريز ومعابدها

٢٢

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز أن يختلف اليها ولو مرة بيعها وكنائسها فانها من الاماكن التي يقرأ فيها انموذجا من انموذجات البناء في القرون الوسطى ، ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيس الروحية خصوصاً والمأثور عنهم في الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن الى المعابد للانابة الى الله وتقديس يسوع وأمه عليهما السلام .

بيد أن من تعمق في البحث عن حال الفرنسويين الروحية يتجلى له أن جمهوراً عظيما لم يبرح متشبثاً بدينه متشبعاً بصحة يقينه ، ولا سيا في القرى والبلدان الصغرى فأغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا يعرفون غير المادة ديناً وأغلب الطبقة الوسطى يغلب عليها التدين ، أما العامة في المدن فكالسائمة لا تعرف غير الاكل والشرب واللهو واللذائذ وأكثر أهل طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسواد الاعظم من النساء متدينات . وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدة قليلا إلا في المدن والحواضر ، ولا أثر

للتعليم الدينى فى المدارس الاميرية وهو على أشده فى مدارس الرهبنات وغيرها من المدارس الخاصة على ان نزعة التعصب التى عرفت بها فرنسا منذ صبأت عن الوثنية لتنتحل النصرانية فى القرن الثالث للمسيح مابرحت لها فى نفوس أبنائها حتى فى هذا القرن العشرين آثار راسخة وان عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير مامرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الاكليركية من كل ما يدخل فى حوزتها .

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالا يقدسونه ويمجدونه وفى ذاك اليوم تشهد فى كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجا من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة باعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم . وأعيادها كثيرة هى صورة من صورتها فى القرون الوسطى بل فى القرون الحديثة قبل أن تنادى فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة علناً نزعها ربقة الدين .

نعم ان زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية . ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاثوليك ماعدا بيع الروم والبرتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هى من أعظم الكنائس ، وهى أجمل أنموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر وريمس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بانها أنشئت فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر ولم تزل تتعاورها الأيدى بالنقش والتزيين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدى وتفننت فيه العقول ما يدهش ويبهر .

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقى عثمان غالب باشا . ووقفنا نستمع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء ، يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عيناها بالدموع أو تجهش بالبكاء

خصوصاً عند ما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريز . فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس الى الزهادة ويحبب اليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجرى كل ساعة شؤون وأعمال دنيوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية .

ان ما رأيته من انتظام البيع الباريزية ، وتفنن البانين فى ابداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلنى بلسان حاله على ان مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجمل مصانع تلك القرون ، وكان أكثرها الى الزوال لو لم تتداركه فى القرون الحديثة ببلسم من انارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدنية هذا العصر فلا أدل عليها الا بما ينفع الناس فى دنياهم كالسكك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافىء والمعامل والسكن والمستشفيات والمدارس والكليات ودور البائسين والحقول الانموذجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل

فهل يأتي على البشر عصر ياترى يكون فيه ما ينم عن مدنيتهم غير ما ذكرنا قديماً فى الدين واليوم فى الدنيا ويخف تكالبهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ما خلفته عصور التدين من المصانع والعبادات ، التى انتقلت الى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن فى تصور ماضيهم وحاضرهم ، هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلا بالاجابة عنها والله أعلم بمصير عباده.

قصور باريز وسراياتها

٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة فى هذه الحاضرة : مصرف فرنسا وقصر الاليزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الانفاليد والتويلرى وقصر

العدلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاديرو والقصر الملكى ، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدى .

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الاخيرة فقد كتبت لى زيارة مجلس نواب الامة الفرنسوية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجلسين ، فلم أسر بمشهد أجمل ولا أفخم وقلما تمثل لى معنى النيابة عن الأمة الا ذاك اليوم ، ومجلسا النواب والاعيان هما مفخر من مفاخر هذه الامة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففى مجلس الامة الحركة والمضاء وفى مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالاول يقيم فى قصر البوربون والثاني فى قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة فى هذه العاصمة العظيمة ، وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم همة الشباب وعدد الاعيان ثلثمائة تقرأ فى وجوههم المغضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة

وما أنس لا أنس يوم كانت المناقشة فى مجلس النواب فى وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت أقوال بلابل المجلس على المنبر وما فيهم الا الاجتماعى والاقتصادى والاخلاقى والسياسى والاداري

وان ماتلى في تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الاعضاء لو جمع فى كتاب برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعى اقتصادى عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ماهو البيان الحقيقى والعلم الذى تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوى فى فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى .

أما المجلس البلدى فهو معيار العمران وبيده أسعاد باريز وأشقاؤها يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى فى باريز بطلب من الزائر يقدمه الى أمين سر المعهد فيرسل هذا اليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذي يأتى فيه .

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم في نظره الذوق الفرنسوى وعظمة هذه الامة لكثرة مايقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة

بنقوش وصور ورسوم من أجمل ماخطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والاشارات الحسنة .

فمن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور أغاني شواطىء السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالاشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لاجمل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من ملوك الارض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها مايمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفاسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز . وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقي والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والانغام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالايماء والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والالعاب ومنها مايصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطي الشراب ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطيوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم الى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبرى وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا ووافرن واللورين ونورماندیا وكونتية نيس . ومن صورها مايمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها مايمثل آسيا وأوربا وأميركا وافريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الاحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم وأربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه . ومنها رمز الى ساعات الليل والنهار ومشاهد الافراح والاعياد

وفى ردهة الاداب صور ترسم لك عرائس الشعر والالهام والتفكر وتاريخ الكتابة وأعظم الاعمال الادبية وأربع أيقونات لاربعة أدباء وهم موليير وديكارت وفيكتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك رمز بديع يشير الى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الافكار من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان ناعمان وهما يمثلان الادب

وفى سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التى تشير كل واحدة منها الى معنى من المعانى وفائدة من الفوائد وكلها من حفر أو رسم أو نقش أعظم رجال هذا الشأن فى العالم ولا سيما من أهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما خصوا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق

وعلى الجملة فان الشرقى الذى يزور قصر المجلس البلدي فى باريز تصغر بلاده فى عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة أبنائها

أما أعمال هذا المجلس الذى تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها الا انها عظيمة جدا ويكفى أن المجلس طلب من الحكومة هذه الايام ان تسمح له بعقد قرض قدره تسعمائة مليون فرنك ليطهر بعض أحياء باريز فاذنت لانه ثبت أن بعض الامراض تكثر فى حى دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو يد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالى راكباً وماشياً فى شوارع باريز وأحيائها موضعاً تحدثك النفس انه محتاج للاصلاح بعد لكثرة ماترى كل شيء فى مكانه وأن مدينة باريز تنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذى تنير به شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة مايبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول السنة فتأمل

تاريخ الحضارة الفرنسويه

٢٤

بسطنا القول فى الفصول السالفة فى كل مايهم عن معرفة باريز وهانحن أولاء نتوخى فى هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها فى الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة الا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسوى بتصرف كثير وزيادات

فرنسا مملكة عظمى فى أوربا الغربية يحدها المحيط الاطلانطيق وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الالب والجورا والفوج ويفصل بينها وبين البلجيك والمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقى والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦،٤٠٨ كيلو مترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليونا أى نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥،٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسيس كجميع سكان أوربا اخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذو قوة عقلية حقيقية واختلفت صناعاتهم وميولهم لمذاهب المعاش وأن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجمها ومع هذا فهي تعد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة فى الارض ويندر في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والانتيموان والكبريت ولكن عندها مايلزمها من الحديد والفحم الحجري .

وانك لتدهش اذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها فى تربية المواشى والحيوانات يد طولى وتجد المعامل الكبرى قائمة فى الضواحى الغنية بالفحم الحجرى والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحول وقد امتاز كل أقليم

بصناعة وباريز هى ملكة المدن الصناعية فى فرنسا لانها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجرى وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز اقليم الآردن بالجوخ واعمال الحديد والالواح الحجرية وامتاز اقليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ واعمال الحياكة والنسيج واقليم فرانش كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتين بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصينى والكاشانى وفى ضواحى انكولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولاقليم البروفانس بزهوره العطرة التى تستعمل فى الطيب وعلى الجملة فان صناعات فرنسا من انفس ماتصنع صنع الايدى فى العالم ولاسيما فى منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهرية والبلور والاوانى الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا فى مقدمة ممالك أوربا .

تقسم فرنسا من حيث امورها الادارية الى ٨٧ ايالة وهذه تقسم الى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧٠ مديرية ولها مجلس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الاول كل اربع سنين وأعضاء الثانى كل تسع وهذان المجلسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الاجرائية بيد الوزارة وهى المسؤلة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والاديان والبحرية والبرية الى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايالات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد

ومن نظر الى تاريخ فرنسا السياسى والاجتماعى يتجلى له انها هى بلاد غاليا المستقلة وهى عبارة عن ولاية رومانية على عهد مملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ — ٥١ ق . م ولم تكن اذ ذاك الا خليطاً من العناصر

والقبائل لاوحدة بينها ولاجامعة تجمعها ففى الشمال قبائل جرمانية وفى الوسط سلتية وفى الجنوب الغربى ايبرية وفى الجنوب الشرقى ليكورية وفى الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات ايطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس اعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم اوضاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوى ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه احق بها

وكانت المدن قليلة جداً فى بلاد غاليا وغاية ماكان فيها ملاجىء لاوقات الغارات وهى مراكز الاسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الاشراف والمحاربون ومنهم ينتخب اعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الاراضى احد ثم أصبحت ملكا للاسرات الشريفة أما الحراثون فهم من توابع الارض ويجىء بعدهم العبيد ويعدل من حال الاشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والاطباء والمنجمون والقضاة ولاسيما فى أواسط البلاد

ولما استقام أمر الرومانيين اقاموا زعيما عاماً على البلاد ممتعاً بالسلطة المطلقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونعنى به الامبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحى والرئيس الروحى والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فاصبحت اللغة اللاتينية الحقلية وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها برأسها زعيم واخذت التجارة والصناعة ترتقى ولولا انه كان من حق المالك أن يبيع الارض بفلاحيها وهو الحاكم المتحكم فى حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون الى الفرار

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدها الى الارياف الا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها انها اعلنت بان الاحرار والعبيد

سواء أمام الله ، هذه هي الفائدة الاخلاقية أما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذى اخذوه عن نظام الحكومة ولم تمض الازمن قليل حتى اصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبى اموال الامن الناس ويغدق المؤمنون واحياناً الامبراطرة عليها من المال ماتكونت منه ثروة طائلة وتعفى املاكهم من الخراج كما يعفى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيراً مايحاكم الشعب نفسه فى الكنيسة ولطالما كان الاسقف فى ابرشيته خصما للحاكم السياسى ورقيباً عتيداً عليه .

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غاليا الى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغوند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد الى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن كانوا يلبسون الثياب الارجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كامبراطور الرومان الا انهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة فى الجباية كما أن اللغات فى البلاد تعددت وكلها لهجات من أصل روماني تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الاشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الاعظم من الناس بالزعامة عليه الالهم ومنهم يطلبون الانصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والاديار الى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الامن فى البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما فى سابق الاعصار وفى اليمين الذى أقسم سنة ٨٤٢ فى ستراسبورغ ظهرت لاول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الافرنسية وفى معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز

ومازالت الملوك تتوالى عليها وتختلف فى المبادىء والاطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسوى وزاد عدد المالكين من ابناء القرى زيادة مهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف فى سبيلها من القيود الكثيرة والانظمة المنوعة وارتقت الادبيات وتحررت من قيودها

القديمة واخذت الفلسفة تبحث فى التسامح الدينى والحرية السياسية واصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية ان الملك ملهم من الله وحقه الهى على سكان الارض بنظرية الحكم الملكى النيابى ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعى

نبهت مجالس النواب فى مكافحتها ساطة الملوك (سنة ١٧٨٨) افكار وكلاء الشعب فبدأت الامة ترفع صوتها وكان الملوك يخفتونه ولايرون لها حقا فى مطالبتها بحق واتفق ان وقعت البلاد في عسر مالى فاجتمع وكلاء الامة ينظرون في حل مااصابهم فنشأت بعد حين الثورة الاولى (١٧٨٩) واعلن لويز الرابع ان الامة كلها للملك ولكن جاء في قانون حقوق الانسان والوطنى ان مبدأ كل سلطة ينبعث من الامة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع ان يحكم حكما لايكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الالهى المزعوم واتت الثورة على اعشار رجال الدين والاقطاعات والسخرات والاحكام التي يحكمها ارباب الاقطاع وساوت بين الناس فى الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من أرباب الغنى أن توسد اليه الوظائف الكنائسية والحربية بدون استحقاق وحمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطنى من أكبر كبير الى أصغر صغير فى الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته

هذا موجز الاساس الذى قام عليه بناء النظام الجمهورى ثم عراه قليل من التعديل بتقلب انواع الحكومات وقيام بعض الادعياء بالملك الى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع المانيا وعندها استقرت الحال على ماتراها الى اليوم

أما نشأة الآداب والعلوم فلكل منهـا تاريخ ويقال على الجملة أن اللغـة الفرنسوية هى بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة الى أن وصلت فى عشرين قرناً الى حالتها الحاضرة وكانت ادبياتهم دينية لاول أمرها وبعضها شعرى ونثرى واكثرها خرافى ولم تخلص اللغة من القيود العائقة الا فى القرن

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . وتاريخ العلم ونشؤه فيها طويل كتاريخ الادب ويقال على الجملة فيه ان مرسيليا كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد فى بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آثيناوكلية الاسكندريةوكان بيتياس احد ابنائها الذى ولدنحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لايقل عن أعاظم الفلكيين فى القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الرومانى فى البلاد المهمة والتعليم فيها عبارة عن مباديء عملية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية الا بعد ثمانية قرون بفضل العرب وبيناكان التمدن الاسلامي بالغاً أوجه كانت العلوم منحطة كل لانحطاط فى أرض فرنسا . ولم ينتشر الطب والصيدلة فىفرنسا الا بمساعى اطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر فاعتصموا باسبانيا أولا ثم باقليم لانكدوك حيث أسسوا عدةمدارس ومن جملتها مدرسة مونبليه وهذا كان مبدأ انتشار العلم فى هذهالارض . فعن العرب أخذالفرنسيس فيما مضى حضارتهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنها وندهش بحضارتهم فسبحان المعز المذل القابض الباسط

الصحافة الباريزية

٢٥

نشأت الصحافة هنافىمبدإ امرها بنشر اخبار الملوك والوزارات والموظفين والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك الى انصارت تلم بمعظم الموضوعات التى تهم القراءوتعلمهم . وعلى عهد الثورة اشتدولوع الناس بالاطلاع على الحديث والآراء السياسية والى هذا العهد ظل الصحافى وراء منضدته يكتب ليفيدمثل الاستاذ على منبره والواعظ فى معبده لايقصد الا تثقيف عقل وتربية نفس

ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات

والبرقيات وأخذت التجارة ترقي دخلت الصحافة في طور جديد فبعد أن كانت هي خادمة للتجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منها إلا الربح وأول من أنزل أجور اشترا كاتها أميل جيراردين مؤسس جريدة لابريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكا وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات انزلها ليكثر قراؤها واذا كثر قراء جريدة أقبل الناس عليها باعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الافراد والحكومة والاحزاب

ولكن هذا الاستقلال وان لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الاعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها أكثر من قبل بل أخرجها عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلا أن يقبض العمالة من البائع والشارى وغدت الجريدة من مقالتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها وتقاريظ الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والانباء المنوعة والمقالات الادبية والاقتصادية والسياسية والاعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل أخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذى يهمه وينقد أمين صندوق الجريدة مبلغاً معلوما عنه وعند ذلك ينشر له من الافكار والمحامد مايشاء وتشاء الاهواء

فان كتبياً أو طابعا لا يقدر أن ينشر كتاباً طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير وهذا اذا فرض انه رضى بان يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الادارة من ذلك . فمقالة في تقريظ كتاب قد تكلف الطابع الفى فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين[1] والموسيقيين والممثلين والراقصات والعقيلات والآنسات

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة على ماجاء في كتاب « كيف تقرأ الجرائد » الذى صدر حديثاً في باريز لمؤلفه جورج فونسكريف George Fonsegrive : Comment lire les journaux

والاعاظم والاصاغر لاتدون اسماؤهم بالطبع قبل أن يرشوا ادارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الازياء مع بأئمات الزهور والجوهريين والخياطات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الاصناف بل ان أخبار الاعراس والافراح وأخبار المناعى والاموات لاتكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها والاعمال الادبية مهما بلغ من مكانتها لاتذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جعالة لاداء ذكر اسمه

وهناك الماليون وأرباب التجارة يريدون أن يعبثوا بحوالة الاسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيراً فى أعمالهم فيعمدون الى ابتياع الجرائد لتكتب فى السياسة على هواهم فيرفعون الاسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بمالهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير فى الافكار العامة ومنهم من يبتاع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب فى أمارة موناكو تدفع مشاهرات إلى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التى تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضاً فى أوقات معينة لتأخذ الصحف فى حمد مرافق مونتكارلو ونزلها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها

وان أعظم علماء الاقتصاد لاتنشر له مقالة فى موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذى ابتاع من الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوى الصحف الافرنسية لم يعد يقدر الانسان أن يقرأ سطراً فى شأن مالى فى جرائدهم إلا ويشك فيه

وهكذا أصبحت الصحافة الباريزية مقيدة فى صورة حرة مطلقة ففى وسعها أن تضرب فى كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتغتاب كل امرىء وتنم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها الا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الاسرار المالية فاذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة باشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل المالى منذ سنين

وعلى ذلك فالجرائدهنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذرشديد حتى مقالاتالكيمياء أو التاريخ فانها لاتنشرها الا ولها منها مآرب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو فى عدد تال ، وخف كل الخوف من الصحف التى تخدم الاحزاب جهاراً فان هذه تقلب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث أو تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسطة مايضحك ويبكى

فكأن الصحافة الباريزية جعلت لقلب الحقائق لاتقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهى تزيد الى ضعف البشر الطبيعى وغلطهم وخطأهم أموراً تأتيها بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فمنها مايخضع للحكومة فى كل مايكتب ومنها مايخضع للاحزاب وكلهم خاضعون لزبنهم وكثير منهم يقولون كل مايريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطلوب منه . فقد قيل أن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسوية تكرم الحقيقة من هذا النوع أى أنها هى الرذيلة .

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسوى فى هذا الباب وصاحب الدار أدرى بالذى فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسوية كلها ترتشى وتلفق فى أحاديثها وتكذب فى رواياتها ماعدا جريدة « الامانيته » أى الانسانية وهى لجوريس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وان الصحافة الانكليزية أشرف غاية وأنبل قصداً وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعللت هذا التصريح من أصدقائى الفرنسويين بأن انكلترا هى أرقى الامم بأخلاقها والاخلاق هى معيار الامم والجرائد مرآتها

ومن الصحف الباريزية مايصدر صباحاً وأكثرها جرائد لاتهتم بالمسائل السياسية بل بالامور المالية والحركة الادبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتى باريزين والبتي جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهى التى ينادى عليها المنادون فى الشوارع

بأعلى أصواتهم وتباع فى كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح وسائق الاتوموبيل والشرطي والمرتزق وبعض التجار وذلك كأكثر الجرائد الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا والفيغارو وهذه لاينادى عليها وتباع بثمن أغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة فلوس أو خمسة عشر سانتيماً فى حين تباع تلك الجرائد العامية بفلس واحد وهى أكبر حجماً وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم .

وجريدة الطان هى الجريدة الوحيدة التى تعني كثيراً بأخبار هذا الشرق الادنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهى جريدة وزارية تقدس كل وزارة تأتي وهذه بالطبع تعطيها أخباراً وربما امدتها بمعونة مالية وهى لاتذيل المقالات السياسية والاخبارية باسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد يقع لها أن تؤيد اليوم فى مقالتها الاولى فكراً مخصوصاً ثم يجيء كاتب آخر من الغد فى نفس ذاك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأى بعينه وينتقده واعرف الجرائد بالشرق على التحيق هى هذه وربما كانت جريدة الايكودى باري من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية اخبارية بدون تعليق على الحوادث ومقالات الطان عن السياسة الشرقية تتناقل لأنها أقرب الى الثقة والتعقل من غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الافرنجية التى تقول الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيهات أن تقوله بدون عوض . ولقد كنت أظن جريدة الديبا وحدها ترتشى من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن علمت هنا أن الطان أيضا على مافيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لاتستنكف من قبض الخمسة آلاف ليرة من أعوان ذاك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم المخلوع بمكانة أقوالها فى الاندية السياسية

وأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومى الذى لايكتب إلا فى موضوع واحد مثل جريدة « كوميديا » وهى تبحث فى دور التمثيل والقصص التمثيلية والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة « الاوتو » وهى لنشر

أخبار سباق الحوافل « الاتوموبيل » وغيرها من أنواع السباق ومن جرائدهم ماهو خاص بتأجير الاملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطالباته ومنها للازياء وأخرى للعطور والطيوب ومنها للاخبار الخلاعية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سراً وتوزع كذلك واذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها

أما تنظيم ادارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الامهات منها مثل « الماتين » وهى فى أعظم جادة وبنايتها أجمل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة فى الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلا وامرأة رأيتهم سبقونى الى زيارتها فما رأيت نظاماً أتم ولا استعداداً استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته مما كتب فوق غرف المحررين « خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه » وزرت أيضاً إدارة البتى باريزين وهى دونها فى الاستعداد وإن لم تكن دونها فى الانتشار والنفاد

الطباعة الباريزية

٢٦

ألمعنا مرات فى الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين فى الامور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وان كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة ، وأجور الطبع هنا غالية لغلاء الاسعار وأجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات فى يومه ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم فى مطابع الولايات لرخص أجورها وجودة طبعها الذى لا يختلف عن المطابع الباريزية فى شيء

ومن جملة المطابع العظمى التى زرتها مطبعة الامة أى مطبعة الحكومة التى أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت الى قصر الكردينال روهان من أجمل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت اساقفة ستراسبورغ وقد أنشئت لها بناية هائلة فى شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع

تدخل من الباب فترى فى فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الانسانية معمولا من البرونز فلا تمالك من الدعاء له وذكر بيض اياديه على العالم ثم يأخذك الدليل فى الوقت الذى تعينه لك ادارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف فى ثمانين لغة واللغة العربية فى مقدمة لغات الشرق رأيناهم فى بعض الغرف كتبوا بيتاً من الشعر العربى ليمرن الاستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنضيد حروفها بفهم

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطى فرأينا كل شيء قد جعل فى مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون فى مكان واحد كتفاً الى كتف وقد يتولى الاعمال الشاقة الرجال من دون النساء . وعدد العاملين والعاملات فى المطبعة يناهز الالف والخمسمائة وفيها ما يربو على ستين آلة طابعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى فى الغرب اليوم . وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مسانهة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ماتطلب الحكومة طبعه وليس فى وقتها متسع لطبع مطبوعات الافراد وناهيك بمطبعة حوت من الادوات مايلزمها من سبك الحروف حتى التجليد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التى تقع ميزانيتها وحدها فى ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها فى وقت قصير وهذا لايتيسر الا بمطبعة متقنة جداً

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسى وطبع الصور والطبع المحفور المجوف

والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر النانيء على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن فى الطباعة . وتسمح المطبعة باعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الاجنبية ولا تطبع من الكتب الا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها فى كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون

هذه جملة مايقال فى مطبعة الامة ولو جمعت مطابع مصر كلها مادانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الاستانة واضفت اليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التى تنفق عليها الحكومة نحو أربعمائة وخمسين الف ليرة فى السنة يستحيل على حكومة كالحكومة العثمانية والمصرية ان تقوم بمثلها وهى لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فنأمل

مدرسة فرنسا

٢٧

من المعاهد التى استغرقت شطراً كبيراً من وقتى فى باريز دروس مدرسة فرنسا (كوليج دى فرانس) لسهولة التلقى فيها فى كل علم يخطر فى البال ولأن هذه المدرسة ذكرتنى بمدارس الاسلام أيام حضارتنا ، وقد جعلوا العلم مباحا لكل طالب يلقنونه اياه بلا عوض

فى شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه فرنسيس الاول ملك فرنسا حوالى سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثانى للعبرانية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية اذ ذاك ان قد استهين بها فأوعزت الى مدرسة اللاهوت ان تتهم مدرسى مدرسة الملك بأنهما يدعوان الى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما وأضاف الى المدرسة

درساً فى الفصاحة اللاتينية ليخلص وجماعته من تهمة الالحاد ، وما زال عدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف اليها هنرى الثالث درس العربية ونابوليون الأول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والابدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التى تلقى على الناس مجاناً ٤٩ درساً يصح أن يقال فيها انها مجموع علوم البشر يتولى تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا فى البحث فيه شطراً مهماً من حياتهم ولم أر فى هذه المدرسة أستاذاً تقل سنه عن ستين الا بعض المعاونين ممن يتجاوزون الأربعين ؛ وينتخبهم المجمع العلمى أو المجامع العلمية الخمسة ، وأساتذة المدرسة ويقبض الأستاذ عشرة آلاف فرنك فى السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر يتلو فى خلالها درسين فى كل أسبوع فقط

أما العلوم التى تلقى على جمهور المستمعين فهى (١) علم الأثقال التحليلى والسماوى (٢) العلوم الرياضية (٣) علم الطبيعة والرياضة (٤) الطبيعة العامة والتجريبية (٥) الكيمياء المعدنية (٦) الكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) علم الحياة العامة (٩) تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعى (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجريبي (١٣) تاريخ العلوم العام(١٤) تاريخ تشريح المقابلة (١٥) الاقتصاد السياسى (١٦) الجغرافيا والتاريخ والاحصاء الاقتصادى (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الاديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الاسلامى (٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الكتابات والعاديات الرومانية (٢٤) الكتابات والعاديات اليونانية (٢٥) الكتابات والعاديات السامية (٢٦) الآثار المصرية وأصول لغاتها (٢٧) الآثار الاشورية وأصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية واصول لغاتها (٢٩) الآداب العربية واللغة العربية (٣٠) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتترية والمنشوية

ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقه اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطنى والعاديات الوطنية (٣٧) الفلسفة الحديثة (٣٨) اللغة الفرنسوية وآدابها فى القرون الوسطى (٣٩) اللغة الفرنسوية الحديثة وآدابها (٤٠) أصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات أوربا الجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السلتية (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم النحو المقابل (٤٥) العادات الأميركية (٤٦) الرياضات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها .

هذه العلوم التى تدرس في مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو فى خلالها الأستاذ زبدة علمه وبحثه ولا يكثر المستمعون الا فى بعض الدروس التى رزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرباء أى غير فرنسويين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وانكلترا وروسيا والنمسا وايطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد واسبانيا وأميركا ليغترفن من مدارس باريز ويحكمن لغتها الجميلة . فكأن أهل هذه العاصمة زهدن فى حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس فى الرجل أهله وجيرانه ، وان دروساً يعد من جملة أساتذتها لفاسور وبول لوروا بوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الاثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجسون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الائمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق العلم

وأن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تفانيها في نشر المعارف والأخذ بأيدى القائمين عليها وينادى بلسان الحال والمقال على توالى العصور والأجيال ان فرنسا اذا هرمت فى سياستها وأخلاقها فهى على الدهر فتية في جمال علمها وجدة حكمتها .

التجارة الباريزية

٢٨

لم يكتف الفرنسويون بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلداً آخر أو مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التى هى من اعظم عوامل الارتقاء قد تجسمت فى صدر الكبير والصغير من الافرنج فكان من آثارها ما يبهرنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة

رأيت روح الاجتماع مستحكمة فى أعمال الاوربيين فلا يكاد يأتى زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فقد ظهرت لتلك الامم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لاينكره الا من يكابر حسه ويغش نفسه فانشأ من كانوا الى الانفراد فى متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلايدرى بهم أحد عدلوا عن سالف طريقتهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الانكليزية السكسونية

مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية. فانك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الافراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعاً أو كرها إلى الاندماج فى سلك الاشتراك مع الجماعة ، دخلت كثيراً من مخازن باريز فكنت أشهد على قلة المامى بفن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتعدد القوى زائدة فى نمائها وحسن الذوق وسلامة الابداع تتخلل أرجاءها وتزيد بهاءها .

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها فى ذلك إلا لندرا ، وقد

بلغ عدد مافى باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء الفي محل توشك ان تكون كلها لشركات وأعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة الاطعمة المحضرة والامتعة والثياب والازياء وكلها مهمة جداً لا بكثرة عددها بل بمكانتها وفخامتها وانتظام أعمالها

زرت بعض هذه المخازن من مثل لا بل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه واللوفر ولافاييت ودوفاييل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطراً واسعاً من أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم عارفا بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يعد مستخدموه وموظفوه بالمئات ففي مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور ومايلزم لها من الاثاث والخرثي والرياش والاواني والسرر والصناديق والمقاعد والمتكآت والكراسي وأدوات الطبخ وكل مايتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من أغرب غرائب الغرب . ولا يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن في أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يلقى نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة وهو قصر فخيم جداً لم أر أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال ودار المجلس البلدى الباريزى وفى مخزن دوفاييل محل للتمثيل ومحل للموسيقى ومحل لالعاب السينماتوغراف يختلف اليها الزائرون باجور معتدلة جدا والغرض منها أن يمروا ببعض مخازن ذاك المحل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء أنظارهم عليها بمثابة اعلان عما فيها من الاعلاق النفيسة وببركة الاعلان يشترى من لم يكن تحدثه نفسه بالشراء

ومن الغريب أن هذا المكان الذى لا يشبهه فى الفخامة الا أرقى قصور الملوك والامم كما قلنا آخذ الآن فى توسعة مخازنه لانها ضاقت به على سعتها وما أدرى ماهو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو في سعته وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف

الـكريدى ليو نيه في القاهرة لا في باريز فانه هناك العجب العجاب بعينه

وقرأت في احصاء أخـير ان مخزن لافاييت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر مساهموه أن يزيدوه اثنين وعشرين مليوناً ونصف مليون من الفرنكات ، فاذا كان مخزن واحد زاد رأس ماله في جلسة نحو مليون ليرة عثمانيـة فكم يكون أصل رأس المـال .

ومما هو حرى بالنظر فى المسائل الاقتصادية ان أهل باريز على شدة كرههم للألمـان يبتاعون فى بلدهم البضائع الألمـانية لرخص أسعارها والتفنن فى ابداعها حتى كادت بضائع الألمان تأتى على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها وأصبحت بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الالمان وغيرهم ومثل ذلك قل على ما قرأته فى احدى المجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فان القسم المهم منها بيد الالمان يصرفون على الانكليز والأميركان سلعهم وحكومة انكلترا وأميركا مع شـدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطيعا بالتعاريف الجمركية ولا بغيرها أن تقيا سداً منيعاً دون تسرب البضائع الالمـانية اليهم . ولـكن ألمانيا أو العنصر الجرماني ومن لف لفه تحارب هـذه الحرب التجارية بسيف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة .

ذكر الاحصائيون أن مدارس ألمـانيا تخرج كل سنة أربعـين ألف طالب وبيدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد ؟ وهـل لهم الا أن يصرفوا متاجرهم فى مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة ، فكم رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن فى المعارف التجارية وكم طالب أتقن اللغة الالمانية منا حتى أصبح يكتب فيها ويترجم منها واليها كما يكتب الفرنسوية أو الانكليزية ويترجم بها ومنها .

قال لى أحد علماء الالمان أتدرى بأى شئ غلبنا الفرنسيس فى حرب السبعين قلت لا أعلم قال غلبناهم لأننا كنا عارفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون

ماعندنا وأنا أقول ان اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسوية فى الأكثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حربا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيس مع جيرانهم الالمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فخسروا فى مادياتهم ومعنوياتهم .

نعم نتوفر على الأخذ من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن الى جرمانيا لنتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن ايطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الالمانية والايطالية حظاً من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد فى السياسة أن نعامل الدول كلهن بوئام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ماعندها حتى لا نكون من الجامدين على أمة بعينها والجامدون فى مسائل الدين كالجامدين فى مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع .

الاعلان أساس التجارة

٢٩

تقدم فى الفصل السالف أن البيوت التجارية فى باريز تبيع ما تبيع ببركة الاعلان عن نفسها وهنا مجال لان أفصل ذاك الكلام المجمل فأقول : كل من زار مدينة أوربية أو أميركية من أبناء هذا الشرق الاقرب يأخذه العجب من وفرة الاعلانات وتفننهم فى نشرها والفرنسيس فى الاعلانات مقلدون لا مجتهدون قلدوا الأميركان والانكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين [1] فيربانك وشركاؤه الذى كان ينفق

(١) المقتبس م٢ ص ٢١٦

على الاعـلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مسانهة أخـذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقدكان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للاعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف ألف ريال فى اليوم وتخصص المعامل الكبرى التى تبيع بالمفرق فى مدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال فى السنة لنشر اعلاناتها فى الصحف وفى مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد انفق أحد أصحاب المخازن لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل فى أميركا الاويصرف خمسة فى المئة من أرباحه على الاعلانات وقد أنفق أحدهم ٧٥٠ ألف ريال للاعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبه فصرف للاعلان عنها مليونى جنيه

فاشتهار أسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى وترداده فى أفواه أرقى الامم وأوحشها موقوف على كثرة التفنن فى الاعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الاميركان : اذا أردت أن تبيع قبعة بريال فانك تستطيع أن تبيعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لانك تفهم الناس بان لأسمك بعض القيمة

وذكروا (١) أن شركة ولن سى الاميركية وهى شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معملا رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع أرباحها سنة ١٩٠٢ ٠٠٠ر٥٠٠ر١٨٧ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة فى الولايات المتحدة كلها مليارا و٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا انها توصلت بفضل التفنن فى الاعلان عن نفسها إلى أن كادت تلتهم جزءاً عظيما آخر من أرباح الشركات الاخرى ان لم تكن التهمتها حتى الآن

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الاعلانات الاعلان فى الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحسة فى الصفحة السابعة أو الثامنة اى

(١) كتاب الاعلان الرابح المعقول لارن
J. Arren : La pulicité lucartive et raisonnée

الاخيرة واعلانات فى شبك ودس الاعلانات فى أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والازياء وادماجها فى المقالات وتعليقها على حيطان الدور وفى شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفى أماكن النزهة والمناظر التى يسرح فيها النظر وفى عجلات الحوافل والتراموای والسكك الحديدية تحت الارض وفوق الارض وستور دور التمثيل والقصور وجميع الاماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الاعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارومتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها . وتبدو فى المساء بالوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره

ومن غريب تفننهم فى الاعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية فى ليفربول أخذ يعلن فى جرائدها بأنه يقدم مفتاحاً بلا ثمن لكل من يضيع مفتاح بابه أو خزانته فبهذه الواسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلا كاملا ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح فى يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلا ثمن ولكن النصح يفعل فى أكثرهم . واخترع أحد البدالين من بائعى المأكولات المحضرة فى لندرا طريقة للاعلان عن محله بان اغتنم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسى لمستخدمى محله أدخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالاعلان عن نفسه . ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات فى بلتيمور فى أميركا أعلن فى الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى اليها وأعطاها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة : « كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل المستر بلانك يعمل أحسن القبعات بريالين » ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل .

والامثلة على ذلك كثيرة ويكفى القاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة

لتعرف مبلغ تفنن الغربيين فى الاعلان والاساليب فى الكتابة التى يختارونها والصور المنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدى وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسى والادبي والعلمى وقد جعل الانكليز السكسونيون للاعلانات قواعد حتى صارت علما من العلوم لا يبرز فيه إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملماً بالاقتصاد السياسى وعلم النفس ومحيطا بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذاهبة بالتفنن والادب والخطابة حاسباً كاتباً مقنعاً يعرف التفنن فى المسائل الحاضرة أو يحسن علم الحال

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا باجور اعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة فى جريدة « لادى هوم جورنال » بلغت ألف جنيه ويؤخذ من احصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن فى الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع مايطبع من اعدادها من كل نسخة ١١٤ر٢٩٩ر٣٣٤ ومجموع ماتطبعه فى السنة ٨ر١٦٨ر١٤٨ر٧٤٩ وبلغ مجموع ايرادها تلك السنة ٨٧٨،٩٤٨،٢٥٠ فرنكا منها ٤٧٩،٣٠٥،٦٣٥ فرنكا من اجر الاعلانات أى ٥٤.٥ فى المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخاً خاصة بنشر الاعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما يطبع غير الاعلانات وتوزع مجانا : ويصرف أحد بيوت الثياب فى فيلادلفيا نصف مليون فرنك فى السنة أجرة صفحة واحدة من احدى الجرائد الكبرى فى تلك المدينة اسمها روكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد . ومن كتاب الاعلانات من يرزق ألف ليرة في السنة

ومن الاعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون اعلانات وينشرونها فى قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤن من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضا وهذه الطريقة اخترعت فى الولايات المتحدة لان ثلاثة أرباع سكانها يعيشون فى القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة

وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لابتياع ما يشاؤن وبهذه الواسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم فى أعمالهم وناهيك بما فى هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشارى وفى شيكاغو وحدها تبيع مثل هذه المحال التجارية فى السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة فى طلب ما يلزم أصحابها . وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالى الولايات المتحدة يبتاعون حاجياتهم على هذه الكيفية

وان لأحد هذه المحال التجارية فى شيكاغو زبناً يبلغون مليونى نسمة يتناول منهم فى السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها فى آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل الى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طلب مع ما يضارعه وتجعل فى لوالب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لولب وترسل فى أسرع ما يمكن الى البيوت التى تقدم للمحل طلباته وهى لا تقل عن ٧٧ الف نوع فتأتى كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنياً عن الايدى الكثيرة على أن محلاً واحداً من هذه المحال التجارية التى تبيع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطلبون الى محله والى غيره من المحال التى على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته

وعلى الجملة فانك لا ترى فى ديار الغرب محلا تجارياً أو معملا أو مشتغلا بالفنون الجميلة بل ولا عالماً ولا كاتباً ولا صانعاً إلا وينفق جزءاً من ماله على الاعلانات ليربح المئة مئات وللاعلان يد طولى فى عامة الاعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب فى هذا السبيل فيعلن خصوصاً عن أصقاعه الجميلة ليجذب السياح اليها ويربح منهم مئات الالوف من الليرات كما فعلت سويسرا

واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم الى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وايطاليا والمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأميركا مثل مدينة دالاس في ولاية التكساس فى الولايات المتحدة فان أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فازمع بعضهم أن يؤسسوا نادياً سموه نادي المئة والخمسين ألفاً أى مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ ألفا وتوصلوا الى أن قال الرئيس روزفلت فى خطاب له أن شمالى التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب ويحق لها ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة

نعم إن الاعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الاسباب المعقولة المشروعة وأثره فى الاعلان عن الاشخاص ظاهر وكم من نابه اشتهر بتحدث الناس فى أمره ومن آخر خمل ذكره لانه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدر به أحد فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين

دور التمثيل والانس والاجتماع فى باريز

٣٠

ان ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جداً فى الديار المصرية والشامية زهدني في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف الى دار تمثيل الا متكارها وذلك فى المدة الطويلة لقلة غنائه وانقطاع الرغبة فيه وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعهده العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه فى قرطبة ولا في بغداد ولا فى دمشق ولا في القاهرة أيام عزتها ولذلك قلما مال أبناء العرب اليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياه حق قدرها .

ولما حللت باريز كان من أوائل المسائل التى توخيت دراستها حالة التمثيــل فى الغرب والسر فى توفر أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل ، وأصبح عنـدهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لاحياة بدونهما وكذلك التمثيل لاحياة روحية بدون الاختلاف الى دوره ولو مرة فى الشهر ان لم يكن مرة أو مرتين فى الأسبوع .

والتمثيل في باريز من أعظم ملاهيها وقل ان تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنفق من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبلغاً تستعين به على تحسين حالها فتمنح الأوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتياترو الفرنسوية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطي الاوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وتعطى الاوديون ١٠٠ ألف فرنك وفى باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت الى أشهرها مثل الاوبرا والتياترو الفرنسوية والاوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها

وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم فى أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لى سر تغالى الغربيين بالتمثيل وانه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح فلا عجب اذا عـدوه من أكبر العوامل فى نهوضهم وتثقيف مجتمعاتهــم ، وشغفوا بفصوله ولا شغف الشرقي بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته

أما دور التمثيــل فهى قصور فخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يعرض فيها من المشاهـد والمناظر . وكفى بأن دار الاوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر ، وأقل دار تمثيل تساوى عشرات الألوف وبعضها مئات الالوف من الليرات وان مما يبهج جوق الموسيقى فى الأوبرا وقد حزرته بمائتى شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وماأظن جمهرته تقل عن خمسمائة .

واذا عرفت أن الاوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أى ١٢٨

ألفاً عن ٦٤ ليلة فى السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفاً الى ٣٠ ألفاً ، وعن كل ليلة يغنى فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك فى الشهر جاز لنا أن نستقل اعانة الحكومة للاوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها

ولقد كنت أتمثل نفسي في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهى الى مسمعى أصوات الممثلين والممثلات ، وتنفتق ألسنتهم بكلمات الحكمة والادب ، ويشخصون الفضيلة فى أبهى مظاهرها كانك تراها فلا أتمالك من توقير الممثلين والممثلات واكبار فائدة التمثيل المدارس لتنشئة الصغار فى وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة

حضرت رواية « مثل الاوراق » فى الاوديون ورواية « الباريكاد » لبول بورجه فى الفودفيل ورواية « جان دارك » في تياترو ساره برنارد ، ورواية الجندى الصغير فى الشاتليه فكان يخيل لى وأنا أسمع وأرى أن الامر واقعي ، وأن هذه المشاهد حدثت الآن وقد اجتمع جمال الصوت الى جمال الوجوه الى جمال الكلام الى جمال الهندام الى جمال المكان الى جمال النظار ، وأقل هذا مما يستهوى النفس فلا تدرى أي شئ ترى ولا أى فائدة تعي

وما أظن أكبر متنطع لو حضر التمثيل فى مثل هذه الدور العظمي يستطيع أن يعيب شيئاً مما يشهد ، وأى عين لا تقع على ساره برنارد أشهر ممثلة فرنسوية وهى فى الخامسة والستين من عمرها تمثل دور جان دارك وهى فى التاسعة عشرة فتظاهر كأنها هى بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأى أذن تسمع الحكمة فى رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم « ان الطبقات الاجتماعية كالامم يضيع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه » ولا يفكر طويلا .

ولقد رأيت فى دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئاً من الخلاعة مثل

« مولن روج » أن الادب يغلب على السامعين والناظرين . وأن قاعات الاستراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى الا من يغض الطرف حياء وأدبا . والغالب أن النساء يلبسن لليالى التمثيل أجمل ثيابهن وازيائهن كأنهن فى بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن ، وقلما تراهن فى الشوارع الا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه

أما سائر أماكن الطرب كمحال السماع والموسيقى والمراقص العامة فكثيرة جدا في باريز وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب ، وموسيقى الافرنج وعزفهم وزفنهم يستحسنها الشرقى مع طول الالفة لها والانسة بها ، ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروما من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية ، ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجا ولا نكيراً سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

من باريز الى الاستانة

٣١

قضيت شهرين اثنين فى هذه العاصمة طفت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهى من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الليل بعمل النهار ، ورأيت العملة في حاناتهم ومطاعمهم وواكلت الاغنياء فى مقاصفهم وشاركتهم فى نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستطلعاً طلع خلق جاريا من الاختبار فيه على عرق فكانت عينى تمل النظر وأذنى تسأم السماع

وذهني يتأفف من التفكر وقلبي يتخوف كثرة الوعي . ومع ماصرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما أماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجاري العاصمة تحت الأرض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهي مزينة كقصور الاحياء ومقطعة الى طرق ومناطق .

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المشئوم الذي طغى على السدود والسكور فدكها وبثقها وأودى بالاموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر الى الحدود الالمانية فكان نهر الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والاودية ولم يصل القطار الى نانسي على الحدود ، ويبلغ ستاسبورغ في أرض الألمان وقاعدة الالزاس الا وقد انقلبت تلك الأمطار ثلوجا وذاك الهدير سكوناً ، ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الأبيض الناصع وبلغنا مونيخ عاصمة مملكة بافيرا الالمانية صباح الغد ، فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت أن لاأضيع الفرصة فأخذت أطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أر منها الا واجهات الابنية ورؤوسها وهنا تمثل لي النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا التفت عن يميني وشمالي فلا أسمع الا الالمانية التي لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لي في القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالافرنسية تطيب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى اذا عدت آخذ مكاني من القطار اجتاز بنا بعد قليل في أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثاني الى فينا عاصمة النمسا .

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول أنني يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفتي بلسان أهلها واطلاعي على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنني داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطراً من الاقطار العربية في غربي آسيا أو شمالي أفريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذي يزور بلداً لايعرف لغة أهله كالاصم والاعمى وهذا

ماعاقنى فى الاكثر عن زيارة انكلترا والمانيا خلال هذه الرحلةمع شغفى بحضارة هاتين الامتين لانى استصعب أن أرى غيرى بعيون غير عينى وآذان غير أذنى

قضيت فى فينا يومين استرحت فيهما من وعثاء السفر واطلعت على بعض معاهدها الا أن الثلوج التى بلغت نحوذراع عاقتنى عن اتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصداً بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست فى الليل ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن فى خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا الىقطارنا حتى تخطينا من الغد أرض الامبراطورية الى أرض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل أمام خيالي تاريخ هـذه البلاد ، وبينما كنت أذكر وقائع العثمانيين فى سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب ، وأذكر تلك الدماء العزيزة التى أهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من أول محطة في بلاد الصرب فتاتان صربيتان فى الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سيماءالحشمة والادب فسألت الرفيقـة رفيقتها أن تغنى شيئاً فالتفتت الينا ، وكان معنا رفيق بلغارى يعرف التركية فاستأذن فى ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفتاة تغنى بنغمة على ايقاع غريب فاضت له نفسى بالدموع خصوصاً وقد جاءها الغناء وهى تفكر فيما أصابنا فى هذه الديار من الشقاء . فعجب رفيقي البلغارى وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطنى الصربي قلت لم أفهم ، وانما تأثرت من النغمة ومن أمور أخرى فسألنى ما هى فلم يسعنى الا أن بحت له بذات نفسى ، ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثمانى وسماؤها عثمانى ، وأكثر عاداتها عثمانية عذرنى على شعورى بما فيه من فضل أدب .

ووقفالقطار ساعتين فى بلغراد عاصمة الصرب فاغتنمتالوقتلزيارتها وهى نظيفة لطيفة صغيرة حرية بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التى يقطعها القطار طولا بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا وهى أجمـل وأضخم منظمة على مثال المدن الاوربية ويغلبالادب أهلها وكثيرمنهميعرفون التركية ، وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها

وحدائقها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهي أقرب الى أن تكون مدينة شرقية منها الى أن تكون مدينة غربية ويقال انها ترتقي سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الاوربيون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الالفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها عضوا أثريا يذكرهم بأيام حكم الاتراك عليهم .

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا إلى جسر مصطفى باشا في ولاية أدرنه أول التخوم العثمانية عند العشاء وهناك جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون ويبرقون ويرعدون يحكمون على هذا بالجزاء النقدي ويعفون عن ذاك ويطلبون من هذا جوازاً ومن الثاني أن ينبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الاعلى إلى الادنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط بادياً عليها في كل شيء وادارتها هي تلك الادارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها وما زلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الاستانة عاصمة سلطنتنا العثمانية

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٢

صقع جميل ، وسواحل بديعة ، ومناظر رائقة ، وسماء صافية ، ورفاهية مفرطة ، وأنس دائم ، فمن المضيق الى الخليج ، الى جزر البحر ، الى متنزهات منقطعة القرين ، الى غابات ملتفة ، وجبال مكسوة ، وعيون خرارة ، وكل ذلك بهجة النفس والخاطر وهذه هي الاستانة وأحياؤها وضاحيتها

أما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لانظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبدة ولا راحة للراكب والسائر ولا للمقيم والنازل وغاية مافيها

من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشأوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا وبعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء

والاستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة ، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية ويغلب على الاتراك الاتكال لانهم مازالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد ، أكثر من بقية العناصر ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم ولذلك قلما ترى بينهم تاجراً معتبراً أو زارعاً كبيراً أو مالياً دراكة يعيشون كلهم إلا المرتزقة والباعة عالة على الامة لايعرفون غير تقلد الوظائف الادارية والعلمية والقلمية والعسكرية

فالاستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال المجسم يعيش أهلها كالحلمة الطفيلية على عنق الولايات ، ولكم خربت ولاية أو لواء أوقضاء ليعمر بها احدهم مصيفاً له على ضفاف الخليج أو فى جزيرة الامراء ويقتنى من الجوارى والسرارى والعبيد بقدر ماتطيب له نفسه .

ولاهل الاستانة فضل أدب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملك باقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفى باطنه على الاغلب يسر لك غير ذلك وهذا الخلق عام فى عمال النظارات والادارات الكبرى ولولا ذلك ماانصرفت وجوه أرباب الاشغال من سكان الولايات الى الاستانة يقصدونها لكشف ظلامة ونيل رتبة ومرتبة وراتب .

صرفت في هذه العاصمة عشرين يوماً قابلت فى خلالها كثيراً من أهل العلم والسياسة وكنت اتكاره فى الاختلاف إلى المعاهد والناس إذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التى رأيت فيها من كل شيء أحسنه ومن العالم أرقاهم ولطالما اسودت عاصمة بلادى فى عينى ووددت على الاقل لوكتب لى ان ازورها قبل الرحيل الى الغرب وامتاع النظر والحواس بحضارته البهجة حتى لااري

الانحطاط بعد الرقى ولا الظلام بعد النور .

ومن جملة المعاهد التى هى جملة مقصدى وغاية مناى من زيارة الاستانة مجلسنا النيابى زرته خمس مرات وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائباً من جميع عناصر الدولة وأصقاعها تجد فيهم ذا العمامة البيضاء او الخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة أرباعهم من لابسى الطرابيش ولقد سمعت من أرباب العمائم مناقشات راقية لم أكد أسمعها الا من النواب الذين صرفوا شطراً من أعمارهم فى أوربا يتعلمون ويتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها فان أرباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل فى كل طائفة . خصوصاً ومجلسنا مابرح طفلاً ويرجى أن يكون فى الانتخابات المقبلة أرقى مما هو الآن

رأيت النظام قليلاً فى المجلس يبدأ قبل الظهر بالنظر فى قانون كذا وبعد الظهر يتناقش فى غيره قبل أن يكمله ومن الغد يتناقش فى مسألة أخرى وينسى القانون أو اللائحة الاولى وذلك لانهم وسدوا رئاسته لرئيس اشتهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب . وكم وسدوا النظارات فى هذا العهد الدستورى الجديد الى أناس اشتهروا بعلمهم وعقلهم في الدور السالف حتى اذا جاء الآن دور العمل ابانوا عن ضعف فى المدارك وخور فى العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلا معنوياً لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكاس أو السلام على الناس

وكل أولياء الامر اذا حدثتهم في نقصنا والسعى لاصلاحنا شاركوك فى حديثك وربما تظاهروا باكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك فاذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه ان لم نقل يزيدون الحال أعضالا واشكالا . فهم فلاسفة قول لاعملة عمل وجريدتهم فى أساليب لهم يتقنونها لا فى ظلامة يرفعونها وولاية يرقونها واصلاح يدخلونه .

ولا اغالى اذا قلت ان عمال الاستانة الآن صورة من صور العهد الحميدى

الا انهم يدعون الحرية وهم مضطرون الى الاسراع بمصالح العباد باقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه فى العهد الماضى أما الاصلاح الحقيقى فاظن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفى من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على أدب النفس وأدب الدرس وينشأ بعيداً عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التى غرست مبادئها الساقطة فى القلب واللحم والدم والعظم

المتحف السلطانى (١)

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربى الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا أمام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهى إلى ساحة كبيرة بنى على أطرافها رواق ذو قباب أشبه ببنيان التكايا ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والامراء للمذاكرة والمشاورة وفى صدره مصطبة كبيرة يصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متواريا عن الاعين

ثم خرجنا من هـذه الغرفة وصعدنا الى قصر شامخ يصعد إليه بسلم من رخام جدرانه مزينة بالقيشاني بناه السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هرون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر مبنى على الطرز الشرقى بشكل مثمن منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضيقة ذات منافذ تطل على الخمائل والبحيرات وتشرف على بحر مرمرة وقسم من البوسفور وأحياء

---

(١) لم تتيسر لنا زيارة هذا المتحف فعهدنا الى صديقنا شاكر بك الحنبلى أن يزوره عنا فيكتب لنا هذا الفصل في وصفه ففعل وأنا أشكره لفضله وعنايته .

القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقة الشريفة) وفيها الرداء النبوى و بقية المخلفات والآثار النبوية

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصرا آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعا يقال انها من بناء السلطان مصطفى الرابع ، وفى الجهة القبلية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد ، ويسمونه (سلطان مجيد كوشكى) مبنى على الطرز الايطالى وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر فى هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى أنك تظن النافذة مفتوحة لا بلور فيها لشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخوله دائرة الخرقة الشريفة

ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهى بيت القصيد فى هذه الزيارة وهنا لا يتمالك الانسان من الدهشة عند ما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة النادرة التى لا تقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية دخلنا هذه الدائرة وهى مؤلفة من ثلاث غرف تحتية وثلاث أخرى فوقية وأول شيء وقع نظرنا عليه تخت كسرى الذى غنمه السلطان سليم الاول من الشاه اسماعيل الصفوى فى حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب فى وسط المتحف يوحى إلى الرائى بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سليم الاول ممتطياً جواده مستلا سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الاكاسرة ويشتبك مع صاحب العجم فى حرب عوان فيهزم جيشه ويستولى على عرشه وخزائنه .

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يصعد إليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يبهر الناظر

شاهدنا فى هذا المتحف سيف قسطنطين بالئوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية . وشاهدنا مهد السلطان محمود الثانى وهو على شكل السرر التى تصنع فى دمشق من الخشب

مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالاحجار الكريمة . وفى المتحف ثلاث قطع من الزمرد الاولى بقدر جوزة الهند وزنها ثمانمائة درهم والثانية على شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك أوان من النجف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطى من الصينى ودروع وطبرات ومغافر وبنادق قديمة مرصعة مما لايكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة . وإلى جانبيها دُوِيّ قديمة ذهبية وقماقم ومحاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والاخرى مرصعة بالياقوت والماس فى وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية

ومما امتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة ، رأينا أغطية مناضد من الاطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماس حجرته الوسطى بقدر البيضة ويقال ان هذه الحجرة هى رابع حجرة فى الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد امتعنا الطرف برسم السلطان عبدالعزيز مجسما معمولا من النحاس الاصفر ممتطياً جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم اسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الاول عاهل الالمان

ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الاصفر تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولاب يدار باليد كل ذلك بل أكثره موضوع فى خزائن من البلور لا تمسه الايدى رأينا مسميات لا نعرف أسماءها مما يحار لها العقل ويدهش لها الفكر وانى لنا بابن المعتز يقف فى هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلى والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة فى هذا الكنز الكبير ليس شيء أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألف مشاهدتها ولا يعرف لها

اسماً فهو اذا أراد وصفها عصته الالفاظ وضاقت به التعابير ، رأينا فى هذا المتحف شيئاً كثيراً كله من النادر الغريب الذى لا يوجد الا فى خزائن الملوك ولو أردنا أن نصف كل مارأيناه لطال بنا البحث واحتجنا الى سفر كبير ولكن نكتفى بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المكانة العلمية والقيمة الادبية .

فمن ذلك درع مرصعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضاً مكتوب عليهما هذه العبارة « هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثمانى وأربعين هجرية » وتخت معمول من الباغا مرصع بالفيروز والزمرد وهو تخت السلطان أحمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفى وسطه فراش من الاطلس ، مرصع باللآلى بنقوش لطيفة يصعد اليه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق اهدتها فيكتوريا ملكة الانكليز للسلطان عبد العزيز ومكتب (قنصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة اهدتها كاترينة قيصرة الروس للوزير الاعظم محمد باشا البلطهجى يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من أثمن ما شاهدناه فى هذه الخزينة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل ملوك بنى عثمان وعمائمهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التى كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغورى عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من أصبعه يوم استشهاده ، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوربا للسلاطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية .

وفى الجملة فان هذه الخزينة هى أعظم خزينة على وجه الأرض لانها جمعت بين خزائن الأكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الاسلام وكانت فى الدور القديم تجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لاوقات الحروب ، وتسمى (أيج خزينة) أى الخزينة الداخلية . يروى أن السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها فى الحرب الروسية ويقدر ما صرفه فى ذلك الوقت

باثنى عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان .

أما بناء الدائرة فليس من الابنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جداً على طرز التكايا وليس فيه مايستحق الذكر سوى ماذكرناه آنفاً من القصور الحديثة التى بناها ملوك بنى عثمان بعد الفتح وانما هى تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها ومكانتها التاريخية فالواقف فى فنائها أو فى أحد قصورها يمتع طرفه بتلك المناظر البهيجة ويسرح فكره فى غابرها وحاضرها ويهتز طربا وتتجلى له عظمة آل عثمان وسلطانهم ، ويرى الفاتح يسوق أسطوله على اليابسة على صورة لم يسبق لها نظير ، ويفتتح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنهم كما افتتح أجداده بلاد الأكاسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الأمير الذى امتدحه الرسول وجيشه نعم الجيش .

وفى الحقيقة أن هذا البناء اللطيف من اجمل ما يتصوره الفكر ، وألطف ما تشعر به النفوس فهو يحتاج الى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتب مجيد يصف ما تشعر به النفس من المعانى الشعرية فى جانب هذه المناظر البهيجة والآثار التاريخية ، هذا ولا يسعنى هنا الا أن أثنى الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ محمد رفيق بك لما أبداه من المجاملة والملاطفة فى زيارتنا هذه ، كما انى أشكر للأستاذ الزهراوى وعبد العزيز افندى قولجه لى عنايتهما فى هذه الزيارة التى هى من أثمن الزيارات التاريخية .

المتحف العثمانى [1]

٣٤

ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ،

(١) اعتمدنا على كتاب « موزهٔ همايون عثمانى يه مخصوص رهنما أثر وحيد »

ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثمانى فهو المعهد الوحيد الذى قلدنا فيه الأوربيين وأحسنا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة ، ولا غرو فقد ضم عاديات الأمم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمصريين والحتيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتماثيل واوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية ، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التى انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيد الله أركانها .

ومن أجمل ما يشاهد فيه مسلتان عثروا على الأولى فى صامسون والأخرى فى ازنيق واسد وجد فى هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه الى أربعة قرون ق . م وبجانبه ناووس رومانى استخرج من دراج فى ولاية إشقودرة ومن ألطف عاديات هذه الدار النواويس التى عثر عليها فى صيداء وهى عبارة عن ستة وعشرين ناووساً ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس اسكندر المقدونى لأن الاسكندر توفى فى العراق وجىء به الى سورية على ان روايات المؤرخين مختلفة فى مدفنه ، ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقى ؛ وناووس الاسكندر من أغرب ما نقش النقاشون تحسدنا عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعة فى قاعات متحفنا أهل العاديات والآثار ويبذلون لنا لو أردنا فى الحصول عليها مئات الألوف من النضار ونواويس المتحف البريطانى واللوفر ليشت بأعظم منها .

ومن عاديات المتحف ناووس معروف باسم « صدراب » أحد ولاة فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة ، ومنه يستدل على ما وصلت اليه هذه الصناعة من تلوين الرخام فى ايونيا فى الساحل الغربى من بلاد الاناضول من الارتقاء فى القرن الخامس ق . م وهناك تمثال ثمانى عشرة امرأة من أعجب ما نقش النقاشون جعلن على أشكال منوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة ، وبالقرب منهن ١٩

قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت .

ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا أى البلاد المعروفة اليوم بسواحل اضالية من أعمال قونية وهو رومى الصنعة محلى الأسلوب ، وعلى مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لأبى الهول عثر عليهما فى مدينة اورله أو ميناء قلازومن من أزمير

قلنا ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر هو من أبدع ما صنعت الأيدى ، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأميركا يعجبون بصنعه ، وفيه كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة ، عليها وقائع الاسكندر المشهورة ، ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفى المصرى ، ومنها بالخط الفينيقى .

ومن الرسوم الموجودة فى ناحية قريبة ما يرجح انه رسم الحرب التى نشبت بين الاسكندر فى ايسوس أو اربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق.م

ومما يقع نظرك عليه فى القاعة الرابعة بعض عاديات حيثية مثل اسود وجدت فى زنجيرلى وقصورها وتمثال يمثل أحد ملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لابى الهول وتمثال من الحجر الاسود اسمه « أسد مرعش » كتبت عليه كتابات حيثية وهو أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن

والحيثيون أمم مختلفة كانت فى القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل فى جبال الأكراد فى سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهر قيزل ايرمق وكديز وأصولهم كثيرة متباينة بل ان البلاد التى كانوا مستولين عليها هى كما يقول المحققون فى شمالى سورية أى في المنطقة الممتدة من فرع الفرات الأكبر الى جبال طوروس ، وقد أنشأوا على الفرات قلعة قارغاميش المعروفة الآن بجرابلس وأخذوا يهددون مدينة نينوى القديمة (الموصل) الى أواخر القرن الثامن ق . م وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق . م وقد استولى علي هذه القلعة صاراغون ملك اشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها محي

اسم الحيثيين من عالم الوجود على أن تاريخ هذه الأمة مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شئ يدل على عظمتها لأن خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى أن يكتشف كما اكتشف الخط المصرى القديم بواسطة حجر وجد فى رشيد كتب بالخط المصري مترجماً الى اليونانية

ومن العاديات المهمة فى المتحف الاوانى الزجاجية والخزفية وأحسن الزجاج ماجاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذى عثر فيه عليها . ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها فى استانكوى أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومى ويرد تاريخها الى الدور اليوناني وآثار معبد اشمرن في صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياثلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بلاد الاناضول وأكثرها يونانى . وفي قاعة أخرى أوان وجدت بالقرب من صور وويج في ولاية مناستر فى بعض المدافن وأوان فى ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ماعثر عليه فى لابسكى من أعمال كليبولى

ومن الآثار المهمة فى القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين ومنها ما عثروا عليه فى جوار القدس ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق م وما عثر عليه فى بحيرة حمص فى الجزيرة التى حفر فيها من القدور والاسرجةوقد اعتبروا القسم الاعظم منها من عهـد الزمن النحاسى . وفيه قطعتان من المرمر وجدتا بالقرب من المسجد الاقصى وعليها كتابات بالرومية تحظر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليمان والا فيعاقبون بالموت . وهناك حجر كلسى عثروا عليه فى القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الارض فى قناة حفرت فى الصخور من نبع جيحون الى سور القدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان وينسبونه الى الملك حزقيا أحد من ورد ذكرهم فى سفر الملوك من التوراة

وليست العاديات المصرية كثيرة فى المتحف ومنها صور أبي الهول وفى

ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والاشورية وأكثرها ألواح وأوان وأكواب وعظام كتبت بالخط المسماري .

ومنها ناووس من الخزف يرد إلى عهد بابل أى إلى نحو ٦٠٠ سنة ق . م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب فى وقائعه مع السيتيين . ومن العاديات ما وقع فى خرابة نيفر فى الشمال الشرقى من الديوانية من أعمال بغداد ومنها ما وجد فى تللو من أعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه فى سيبارا أوابى الحبة من أعمال الجزيرة

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحميرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صناعهم وان كانت تشبه الصناعات اليونانية لان مملكة تدمر وان كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لان الاشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ودخلت فى حوزة المملكة اليونانية على عهد الاسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما فى الرسميات وان كانت لغتها الارامية أو السريانية ، أما الآثار الحميرية فهى آثار أهل سبأ ومعين فى الجوف وعاصمة سبأ مأرب وأهل معين كانوا نازلين فى قصبة العلى فى جوار مدائن صالح ومملكة حمير اليمانية انما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين واستدلوا من ذلك على أن الخط الحميرى يشبه الفينيقى ولكن دخله قلب وابدال كثير

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هركول وآفروديت وأوان خزفية ونذور ، ومنها حلى اشورية وفينيقية وحلى وجواهر واقراط وأساور وقلائد وجدت فى مدينة ترواده أى فى محل اسمه الآن حصارلق من أعمال لواء بيغا شمالي جون أدرميد وكان اسمه فى القديم ايدا وهو بين جبل قار وهللسبون أى بين جناق قلعة وبحر الارخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة ومنها ماوجدوه فى ترال من أزمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها فى طرسوس وآخر فى برغمة وفى نابلس

هذه جملة أشرنا بها الى ما حواه المتحف وله قسم آخر اسلامى جعلوه فى قصر الصينى أمام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها إلى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربى ، وقصر الصينى هذا مما أمر بانشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار ايامه الا أثر ضئيل جداً مثل الآثار التى يحويها وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط أى القرون الخمسة الاخيرة ومنها بعض الصينى الذى كان يعمل فى دمشق ورودس وأزنيق وكوتاهية وبعض الكاشانى المكتتب بالكوفى ومنها ما عثر عليه فى مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما تعمل الطنافس البديعة فى معامل دمشق وتوقاد واصفهان وغيرها

ومن عاديات قصر الصينى درفتان من صنع قره مان وقونية ومنها دكات وقاقم وطنافس ومصابيح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر من صنع الرُّها (أورفة) وأوان خزفية وجدت فى الرقة من أعمال حلب وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك واصونة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال أنها أموية عثر عليها فى القدس وبعض نقوش حيوانات رسمت على الزجاج من الادوار التركمانية والارتقية وملوك بنى آرتق من مماليك ملكشاه ابن ألب ارسلان السلجوقى حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب الى سنة ٨١١ هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة الى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضوه عود طرب أو طنبورة وهى من صنع عصور الظلمة أيضاً

وبالجملة فان العاديات القديمة التى جعلت فى البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والتحطيم يغلب عليها لما قاسته من أهاويل الدهر أما العاديات التركية والعربية الاخيرة فتافهة على الاكثر . وفى الاستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضوا فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس صنع النمسا وهم يلبسون البستهم المعروفه وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية

خطابنا[1] في التربية الاوربية

٣٥

سادتي الاخوان الاعزة :

أوعز الىّ أعضاء هـذا المنتدى الكريم أن أحدثـكم بما رأيت فى رحلتى الاخيرة إلى أوربا فلم تسعنى مخالفتهم لان الطلاب أعزة وتبادل الافـكار معهم من أشرف المطالب ولـكن الموضوع كبير لايتسع وقتى الآن للاحاطة باطرافه كله ولا أوقات الحضور الـكرام إلى وعيه وسماعه ولذلك اقتصر منه فى هـذه الليلة على الاشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسى فى درس معالم الحضارة الاوربية في أماكنها واستطلاع طلعها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة . ولذا استميح عفوكم اذا لحظتم فى أقوالى شيئاً مما لم يعتد بعضكم سماعه فأنا أقص عليكم شعورى ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء

أول ما يقع عليه نظر الداخل الى أرض أوربية ذاك الانتظام الغريب فى مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لاول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم فى عينه وذهنه ما سمعت اليه ولا تزال تسعى تلك الامم الراقية من الاخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التـكمل العلمى والنشوء الاجتماعى والعملى

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم فى نظر السائح كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال في القرى والدساكر والحواضر والقواعد . وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر فى وصفه إلى مجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلى وما راء كمن سمعا

(١) القيناه في المنتدى الادبي فى الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية

ماذا أذكر لكم أيها الاخوان من حال أوربا ومدنية الغرب الراقية التى بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل ؟ أأحدثكم بصناعاتها التى تبهر النفس ؟ أو باتساع متاجرها التى لايحصيها العد ؟ أو بارتقاء زراعتها التى تنادى بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية ؟ أم اذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية أم المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والانس ؟

كل هذه المشاهد كنت اختلف إليها فى أوقاتها واجتمع برجال العلم والادب والسياسة منذ الصباح الى ما بعد منتصف الليل ونفسى تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك على مشاعرى فلا استطيع التفريق في الحسنات كأنى ابتليت بداء الاستحسان لاتقع عينى على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصور ذهنى أقل شيء الا واخذ به جملة وتغرق النفس فى استحسانه وتحار فى وصفه

ولقد كنت عزمت ان ادون فى مفكرتى ما يعرض لى من المظاهر والمناظر ويتردد فى صدرى من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت على الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت إنك ياهذا تكتفى متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق فى ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية

نعم تركت التقييد على خلاف عادتى فصدق فيّ قول الشاعر

تكاثرت الظباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

لولا أن اليأس من أعظم الامراض فى الافراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاراة الغرب ولولا انى اعتقد بأن النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وأن الاجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بأن قيام الشرق العثمانى وهو على نهضته المتثاقلة البطيئة التى نشهدها أمر متعذر الا بعد قرون ان كتبت له الحياة

ولكن امامى مثال الدولة اليابانية مماكة الشمس المشرقة رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية فى ثلاثين سنة وفاقت من كانت تعمل منذ ثلثمائة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة .

نعم أن اليأس يجب أن لا يتطرق الينا ، وان كنا ويا للأسف تحت وصاية الغرب اليوم فى كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده أو جاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دى فرانس وهى المدرسة العظمى التى تضم فى صدرها زهاء أربعين عالما من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين فى كل أسبوع فى العلم الذى أخصى فيه وتفرد به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد فتدل على كرم الفرنسويين فى العلم وحضرت دروساً فى مدارس أخرى ووفقت الى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم أر فى أكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه .

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت اليهما لتعلموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق ومبلغ حكم أبنائه علينا ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا وتضحكون بعدها أو تبكون .

فالمحاضرة الأولى كانت فى قاعة السوربون الكبرى أى كلية باريز ، وهى المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسويين فأقامت جمعية آسيا الفرنسوية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسوى ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بليو هو فى الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية فى البيان وهو أستاذ اللغة الصينية فى المدرسة الفرنسوية في الشرق الأقصى ، شرح فى محاضرته مالاقاه فى رحلته التي بدأت

في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي وأتى على ما وفق اليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر للمسيح فكان من ذاك التعصب ان أتى على الآثار بجملتها وقد قرّع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقريع ، أما رحلته فهي كسائر الرحلات العلمية التي يرحلها الغربيون الى آسيا وأفريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديماً كان الشاعر يقول « السيف أصدق انباء من الكتب » فاذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف أما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد أولا ، ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد ادعى بليو صاحب البعثة ، والغالب انه على حق فيما ادعاه أن ما وفق الى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأمة في باريز بألوف من المخطوطات الصينيه ومنها شيء في تاريخ الصين كما أغنى متحف اللوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فأصبحت باريز بذلك عاصمة الدروس الصينية في أوربا ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية ، ولا سيما في مقاطعات قاشار وارومشي البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الاسلامي الى هنالك ، وانه رأى جميع أهل التركستان من أهل الاسلام ، واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة اذ كانت تعبث بها أيدي المتعصبين منهم .

وقال انه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه الى ارتياد تلك الأصقاع أناس من الألمان والانكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق الى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالا بوذيا صغيراً بين الصناعة اليونانية والبوذية حرى بأن يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة

والغربية وظفر فى قاشار تحت أنقاض أحد المعابد فى طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع فى تلك المغاور ووصف تلك البقاع بانه لا شجر فيها ولا عشب مع انك تمشى فيها ألوفا من الكيلومترات اللهم الا فى بعض الواحات ، وأكثر تلك الاصقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة فى الصيف تصل الى الأربعين درجة ، وفى الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الحبر يجمد فى أيدى أعضاء البعثة متى أرادوا أن يقيدوا آثار بعثهم وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية فى عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغنى المتحف الطبيعى وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحرى على الحضور تلك الليلة حتى لكأنهم ذهبوا بأنفسهم الى تلك الأصقاع النائية

هذه المحاضرة الأولى التى تكهرب بها جسمى وتأثرت عواطفى وسمعت بها مهانة أمتى بأذنى . والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسويين وصاحب المقالات الافتتاحية فى جريدة الطان فى الدولة العثمانية فهو أول اخصائي فى سياسة الشرق ، ولا سيما دولتنا يقلب القلم بين أصبعه كما تشاء حكومته . حضرت خطبة له فى مدرسة اللغات الشرقية الحية ، ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من العجم أبلغ منه لم يتمتم ولم يعطس ولم يكرر ، وقلما رأيت انساناً درس موضوعه وأعد له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك ولكن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبى بتحامله على هذه الدولة أكثر من عجبى بذلاقة لسانه ، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول فى الحروب الصليبية قد أبى عليها زمن حالفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسيس ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم ترخيراً لها

من تلك المحالفة نزعت يدها من يد حليفتها ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها الى القريم ليحاربوا مع الانكليز والعثمانيين جيوش الروس ، لأن مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وأفاض فى نشأة الامتيازات الأجنبية فى البلاد المصرية والعثمانية ، وقال ان فرنسا فى كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وأن لها اليد الطولى فى المسألة الشرقية أى استقلال بلاد البلقان واليونان ، وانها لا تقصر كل حين فى بتر عضو من اعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى

فيا اخوانى ويا سادتى ايسمع عثمانى هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمداً وحسرة وتسود الدنيا فى عينيه ؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب ؟

نحن يا قوم لا نحفظ كياننا ولا نحتفظ بلغتنا وديننا وآدابنا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذى يقاتلوننا به ، وأعنى به سيف العلم ، نحن يقضى علينا ان نأخذ من تلك المدنية الغربية التى تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمناً لنستفيد ونعرف الطرق التى يجب علينا سلوكها .

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا فى مدارس أوربا ولا سيما فى مدارس باريز فقدرت عددهم قليلا جدا بالنسبة لمجموع هذه الامة . وانى لا اخجل اذ أقول لكم أن عدد الطلبة البلغاريين فى روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا والبلجيك وانكلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين وايا كم أن تظنوا ان جميع طلبة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل ان لهم الافراد شأناً عظيما فى هذا الباب وكثيراً ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد أتى على آخر فلس مما عنده وهو مغتبط بما صنع لانه أحرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والكرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمته وبلاده

نحن مقصرون كل القصور فى ارسال ابنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون درر

العلوم من بحار كلياتها ومدارسها والعرب فى هذا المعنى أكثر العثمانيين قصوراً ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سورية فى أوربا على نفقة الحكومة أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم الى ثلاثين طالباً أكثرهم يدرسون على نفقتهم فليت شعرى أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين هذا من سورية أرقى البلاد العربية وما أظن أحداً من أبناء العراق والجزيرة والحجاز واليمن وطرابلس وبرقة وغيرها من الاقاليم العربية يدرس فى مدارس اوروبا فيكون هؤلاء الثلاثون طالباً لخمسة عشر مليوناً من العرب العثمانيين يصيب كل مليون نسمة طالبان وما اعظم ذلك من قصور وتقصير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وخمودهم كاد يصدق به علينا حكم الغريب وانى لارجو انلا تكون اقوالنا اكثر من افعالنا فان الكلام لا أثر له بقدر الفعل ، نريد معاشر العرب أن نجارى الامم الراقية بل سائر العناصر من اخواننا العثمانيين ولا نجاريهم على الاقل فى مضمار التعلم ؟

نتناغى بالوطنية ونندب حظ اللغة العربية ونحن أبناؤها الذين نعقها ولا نتعلمها ، أليس مما يزعج أن يخاطب العربي أباه وامه واخاه وصديقه بغير لغته الاصلية ؟ يعمل ذلك ليتمرن على تاقف غير لغته بل لانه لايعرف ان يتكلم ويكتب بلسان ابيه وامه وقد يكون فى الاكثر ممن يفرض عليهم فرض عين تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد اذا لم اخاطبهم واخطبهم واكتب لهم بلغتهم التى يفهمونها ، انا ان كنت اريد الاطلاع على مجد آبائى واجدادى أاتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من آثارهم وهل يتيسر لى هذا الا باللغة التى كتبوا بها ؟ اقول هذا وانا آسف كل الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا ابالى اذا قلت ان فيه العار والشنار

ايزهد سلالة العرب الاكارم فى لغتهم ويتعلمها المستشرقون اكثر من

علماء العرب انفسهم ؟ ايزهد العربى ابن العشرين فى العربية ويتعلمها رجل اعجمى فى الستين من عمره ، واعنى به الكنت دى ساردبج الفرنسوى : هذا الرجل من اهل الطبقة العالية فى غناه كان والده سفيراً فى طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً في السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا فى مدريد ثم استقال وهو يسكن فى الصيف فى قصر له فى لوزان فى سويسرا وفى الشتاء فى باريز وقد قام فى ذهنه منذ اشهر ان يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنيتهم الباهرة فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنينا ميشيل افندى بيطار وانشأ يتخرج به فقطع شوطاً فى التعلم واذ كانت الدواعى تضطره الى المقام فى قصره في سويسرا اكثر من باريز وكان استاذه لا يستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه يلتمس منه التماس التلميذ من استاذه ان يبعث اليه بدروس عشرين يوماً حتى لا يضيع وقته مدة مقامه فى سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل فاذا آب الى العاصمة يعاود ما بدأ به

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة وهو فى هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لاعهد له بمعرفتها ، أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدنية أهله وشبان العرب أنفسهم يترفعون عن أن يقضوا ولو بعض أوقات فراغهم فى إحكام لغتهم ، هذا هو مثال صغير من أمثلة الهمم فى الشرق وأمثلتها فى الغرب فهل فيكم ياشباب المستقبل وقرة عيون العثمانية العربية من يمشى على أقدام الشيخ الفرنسوى حتى لا يجيء علينا وقت نضطر فيه أن نأخذ لغتنا بل ديننا عن أوربا ونكون تحت وصايتها حتى فى أمس الامور بنا وأعلقها بقلوبنا ؟

كل ما نراه من همم الغربيين ومتانتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فانتم وأمثالكم شباب هذه الامة فى أيدى اقتداركم أن تجددوا لها شبابها إذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب وقضاء سنين فى الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا

وسعادتهم ليعلم انى لاغالى فيما اوردته لكم بل انى عاجز عن الوصف والتعريف ولا يقمن في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المنال وانه لا يتيسر الا لكبار الاغنياء ؛ فالعيش فى معظم البلاد الاوربية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة اجورها او لا يكاد يكون لها اجور ، ومنها ما اجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكا فى الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب ان يعده او يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده .

يا أبناء قومى ويا زهرات أمتى : أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش الا بالزراعة ولا تحيا الا بالزراعة . خالية من عارفين بها على الأصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن فى أوربا سوى طالبين اثنين ، احدهما فى المدرسة الزراعية فى لوفان من أعمال البلجيك وهو رفيق بك بيضون من بيروت والآخر في كرنيون من أعمال باريز فى مدرسة كرنيون الزراعية واسمه مصطفى افندى الكيلانى من حماة ، كلاهما من أبناء الاعيان ، ولهما ارض ومزارع فنعما عملا بالاختصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس فى ابناء سورية بل البلاد العربية أحد من ابناء الاعيان يملك اراضى وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كثار ولكن محبي الدرس قلائل ! هذا فى فن الزراعة فمتى يقوم منا أناس لتعلم الكهربائية ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة ، وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الأوربيين .

زرت مدرسة كرنيون الزراعية ، وهى على مسافة ساعة من باريز ، فرأيت شعارها مكتوبا بقلم غليظ فى مكتبتها بما معناه : « الأرض هى الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » ولكن قومى غفر الله لى ولهم يحتقرون هذا الفن فيما أرى . فان كنا نختلف فى البديهيات فمتى نتفق فى غيرها ؟

زرت كرنيون ورأيت بها أن عبد القادر الكيلانى يلبس مشلح الزراع

ويدرس كما يدرس أبناء الاعيان فى فرنسا ويجاريهم فى ذكائه وأطلعنى على مافى مدرسته من متاحف ومعارض واصطبلات وحظائر لتربية الماشية . وحدائق لغرس النبات والبقول ، وغابات للنزهة والانتفاع ، وأدوات للعمل وحرث الأرض وكربها .

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت في نفسى لو حذا السوريون فى الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيس فيها وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لاغتنينا غنى يغنينا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية ، فقد ذكروا لى أن خروفاً علفته ادارة المدرسة سنتين على الطريقة العلمية فبيع فى أحد المعارض بسبعين ليرة ، فأين خرفاننا التى يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهلنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيح والقيصوم والعرار والعرعر .

ولكن الآمال معقودة بأن نعلف خرفاننا على طريقتهم ونستثمر تربتنا على أصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع دوابنا وماشيتنا بحسب سنتهم فيكون اذ ذاك أبناء عبد القادر فى التوفر على زكاء التربة فى نفعهم لهذه الامة على مستوى جدهم الذى زكى النفوس فى عصره ، وتزكية التربة لا تقل عن تزكية التربية والمآل واحد .

مدرسة كرنيون الزراعية هى التى أوصي أبناء الاعيان وغيرهم الى التخرج فيها لتخصب بهم تربتنا بعد اجدابها وتملأ جيوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل وفاتحة كل ارتقاء مادى وأدبى

نحن لا نرقى الرقى المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملى وزهدنا قليلا فى شقشقة الألسن والنظريات المجردة . ومن جملة المدارس التى زرتها في فرنسا وتأثرت أيضاً بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز ، زرتها بدعوة من صديقى مرمى افندي محمود أحد كتاب مصر فكانت زيارتها وزيارة مدرسة كرنيون من أسعد الايام التى قضيتها فى أرض الفرنسيس وانى أحب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لتعرفوا الغرض منها فاقول : قام منذ عشر سنين فى فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه ادمون دمولانس ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند

الالمان والانكليز والاميركان وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ماعند الفرنسيس منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعى التى تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الانكليز السكسونيين الذي نقل الى العربية فعمت فائدته العرب كما عمت الافرنج

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بان التف حوله أناس من أرباب الغيرة على ارتقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذي حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيس على الطريقة الانكلوسكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى عقيب دعوته الاولى مدرسة روش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى فى أقليم نورمانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى فى ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهى التى أريد أن أحدثكم عنها

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وستمائة وهى على نحو ساعة من باريز الى الشمال فى مقاطعة الواز وفيها مافى سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الفنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفى قصر الدوك دى لاروشفوكولد فى أرض مساحتها مائتا هكتار أى نحو ثلثمائة فدان لم يبق منها إلا دائرة حشمه أما دائرة قصره فقد أتى عليها رجال الثورة الاخيرة فدكوها وجعلوا عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة فوسعت كل صفوفها ومرافقها ومعاملها .

فى هذه البقعة الجميلة الواسعة بل المزرعة الكبيرة والحانوت الفخم التى حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسويون وأكثرهم من أبناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتقاليين والاميركين والمصريين . يعيشون فى هذا البيت كأنهم فى أسرة لا فى مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التى تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته في المدرسة أوفى

حجر الدروس وأن يلعب فى الاماكن التى هى ممر لاخوانه وان لا يخرج من المدرسة ولا يركب فى قارب الغدير بدون رخصة أولاً وأن لا يبتاع أى شيء كان من المدينة بدون استئذان وان لا يدخل جرائد ولا كتباً إلا اذا وقع عليها المدير ولا يدخن وان يلبس ثياب اللعب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا يومى الخميس والاحد وأن لا يعبث بما حوت حديقة المدرسة ومكتبتها وان لا يتكلم بعد أن يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل أن يستيقظ رفاقه صباحاً وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعب الذي يختاره فى الاوقات التى خصصت لذلك منذ الظهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده .

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لانه يعرف أنه لابد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة الا كذلك والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هوكنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو لبلا وهو فرنسوى لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم فى البلاد ، وفى المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة ورئيسة المدرسة الآنسة بارى من أقرباء اديمون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليز السكسونيين فى التربية ومن أولئك المعلمين معلمان انكليزيان واثنان ألمانيان

ويقسم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادهم ولا يختلط الكبار بالصغار الا فى بعض أوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا أو العالمية ولكن على غير الطريقة التى يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العملى بمعزل . فالمدرسة تربى الارادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تربي الذهن والذاكرة

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين فى التعليم ويلاحظون الدروس أيضاً ولا يراجعون التلامذة فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفى لذلك ويتولى الاولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق أكثر الاولاد هذه الطريقة خصوصاً

وأكثر من فيها من أبناء الاغنياء والامراء اعتادوا أن يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خدودهم كبراً من القيام به .

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والفرق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره استاذ ويعهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقي وتعليم الاحداث من الطلبة وهن يعشن فى المدرسة نفسها ، وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات فى الاسبوع لتعلم لعب الكوكى والكريكة بنظارة أساتذة فى هذه الالعاب ، وفى المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف ، ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التى يدرسها بطريقة عملية أكثر منها نظرية

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التى هى أحب الى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والتصوير والتجليد وصنع المقوى والفخار والجلد وغيرها ، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التى يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه ، فاذا عاد الى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملا من مثل ذلك ، فلا يكون فرق بين ما عمله فى المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى أكثر شؤونه كما قلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد فى حياته فان الرياضات التى يقومون بها فى البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة أم ركباناً على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم للرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعاب النهار

وتمتاز هذه المدرسة بان يرحل تلامذتها بمراقبة اساتذتهم أو بعضهم الى البلاد المجاورة كالباجيك وهولاندة أو غيرها من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعتادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل

الاحوال التي كثيراً ما تصادف الانسان في حياته وذلك أيضاً ليحتملوا بصبر وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام وتتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد الفصح تنقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن التلامذة المؤلفة منهم فتذهب كل واحدة في وجهة خمسة أيام وكل من حسنت أخلاقه ودروسه يرحل به أيضاً كل ثلاثة أشهر مرة أو مرتين يوما أو بعض يوم الى مكان بعيد ، وللمدرسة في الصيف شهران أيضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين يوما وتستوفي المدرسة أجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك أكثر حاجاته ماعدا بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع أجرتها على حدة ، وهو مبلغ كثير بالنسبة لأهل بلادنا ، ولكنه لا يستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق النفقات الطائلة على الاساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربى الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة

حدثني أحد أساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولانس أن تكون على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقلبت أوضاع الدروس والرياضات الى ما يشبه الاوضاع الفرنسوية لان ما توهمه ديمولانس من انه يمكن تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيراً ولو كان حياً — مات منذ نحو سنتين — لرجع عن كثير مما نعاه على قومه وعد عدمه نقصاً في تربيتها وسبباً في ضعفها ، وهو قول حق سديد ، لان ما يوافق أمة لا يطبق بالحرف على أخرى وللعادة والمحيط والتقاليد دخل كبير في أوضاع الامة على ان هذه النغمة قد أفادت فرنسا وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسوية مع ما هي عليه من الحسن هي في رقيها دون التربية الانكليزية السكسونية من وجوه ، وان كانت هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تستفيد من كل ذلك عبرة .

تقدم ان تلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيس وخليط من البرتقاليين والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولاسيما

كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الاناث وانى لا أذكر انى حضرت خطبة أو درساً أو مجلساً علمياً ، ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الا ورأيت الفتيات سبقننى الى تلك الامكنة ومعظمهن روسيات وانكليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات والبولونيات[1] أكثر الفتيات الاجنبيات فى فرنسا وأكثرهن عناية بتعلم اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها لا فرنسوية لكثرة اتقانها للغة الفرنسوية واجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسر مثله لغريبة ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا أكثر النساء الاوربيات تفانياً فى احكام ملكة لغتهن وحرصاً على آدابها وتلقينها .

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم أولادها لغتهم فى الغابات والحقول عند ما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لتجعلهم روساً مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب انشاء مجلس النواب كان من البولونيين ان فتحوا فى شهر واحد فى البلاد التى وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة

---

(١) شارك النساء الرجال فى أوربا فى كل عمل من أعمال الحياة وفى فرنسا شاركن الرجال فى الامور الذهنية أيضاً وثلث ما ينشر فى فرنسا من الكتب هو من أقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويجدن كالرجال مثل مارسل تيناير مؤلفة كتاب دار الخطيئة والكونتس دى نوايل والعقيلة دي رنيه امرأة الشاعر المشهور وهى شاعرة مثله ومريم هارى صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات أمثالهن من المشهورات . والمنافسة الادبية بين الجنسين النشيط واللطيف على أتمها فى فرنسا حتى قال لى أحد كتابهم انه سيجيء يوم على فرنسا لايبقى لكتابها وجه للمعاش الا أن يطيروا فى مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالنساء يتولينه بدلنا . ولعل من يسيح في أوروبا بعد عشرين سنة يشاهد مالم نشهده الان من الارتقاء المادى والادبي فقد ساح الشيخ رفاعة الطهطاوى فى منتصف القرن الماضي ولم يكن من مرسيليا الى باريز سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فاغتبط بما رأى وساح احمد زكى باشا فى أوائل هذا القرن فركب القطارات فى أوربا جماء . وسحنا نحن اليوم فرأينا مالم يكن يعهد من السيارات الهوائية والمؤلفات فى العلوم والصناعات الادبية فماذا يشهد أولادنا وأحفادنا بعدنا يا ترى ؟

آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلامذة

فالمرأة البولونية وإن عنيت بتعلم اللغات الاجنبية عنها تحتفظ بلغتها ووطنيتها احتفاظاً أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه حتى انها اذا تزوجت من أجنبي لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغتها بحيث اضطر بسمرك أن يسن في عهده قانوناً يحظر فيه على الضباط الالمان أن يتزوجوا من البولونيات اذ ثبت له أن الوطنية الالمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذى أصاب مملكة روسيا من ارث صاحب بولونيا

فياليت شعرى متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية مع الحرص على الجامعة العثمانية التى هى عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذى رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن ان أنصفنا لا ننزع يدنا من الجماعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والالمانية والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاضد ويعرف ان المركب الكبير يستحيل أن تأتى عليه الانواء بقدر ما تضر بالصغير فقد يغرق هذا أو يستغرق في غيره ولا من يسمع به

تعلمنا أوربا وأميركا كل يوم معنى من معانى الوطنية والجامعات الجنسية ، فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة أوربية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة أميركية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة صفراء من اليابان والصين واحد أفلسنا نحن يا أبناء العثمانية أحرياء بأن نزيد في تكاتفنا وتكافلنا ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعى العقلاء منا .

طال المقال وبت أخشى عليكم الملال فهل تأذنون بأن أختمه بجملة واحدة للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين وهى الأخلاق التى كانت من أعظم الوسائط في ارتقائهم كما كان نقيضها واسطة في انحطاطنا وذلك انى تبينت بالاختبار ان

الافرنج أكثر تفكراً منا فى مصادر الاحوال ومواردها فهم لا يقدمون مثلنا على أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه ، فالصانع فى الغالب لا يتطال الى أن يكون سياسياً والمحامى لا يعمل فى الزراعة ، وهكذا اختص أهل كل طبقة بطبقتهم وتفرد كل عالم بما يعلم ولم يتعده فالاختصاص أو الاخصاء هو الذى كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شيء هى التى كانت واسطة انحطاط الشرق .

الغربى يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه فى مدرسته وحصله من حرفته ، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية ،أما نحن فنسارع فى الهبوب كما نسارع الى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نخمد كذلك

الغربى يهمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم نخمة خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر أعمالنا مختلة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها أول مرة فاذا ما ذهب تذهب بذهابه .

الغربى استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الانتفاع بكل شيء ، ونحن من عادتنا ان نهزأ فى الاكثر بكل شيء .

الغربي يدخل الاصلاح الى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سنة النشوء فى عالم الكون والفساد ، ونحن نحب أن نطفر طفرة فى اصلاحنا والطفرة محال لان سنن الفطرة لا تغالب ولا تعاند . الغربى يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمنا النظام ولا التنظيم ، الغربى معتدل على الاكثر فى عامة أحواله ونحن أميل الى الافراط أو التفريط ، الغربى عبد الواجب ونحن قلما نقوم بفرض أو واجب فالغربي كما أحسن تقسيم الاعمال والاخصاء فيها أحسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة فجده جد ولكن فى أوقات الجد وهزله هزل ولكن فى أوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن فى اوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن فى زمن العمل والشرقى ويا للاسف ليس كذلك .

أحسن الطبائع فى الغربى خلق الاعتماد على النفس وانكار النفس فهو يعتمد على كفاءته أولا ثم على محيطه وأمته وقد يهتم فى الاكثر بمصلحة أمته اهتمامه أو أعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راقٍ أمة برأسه وأمة تتألف من أفراد هذا حال سوادهم الاعظم ينبسط ظل عمرانها ويمتد على الارض سلطانها ، فالله اسأل ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا الا بتكثير سواد امثالكم يا طلاب المدارس العالية ، فطلاب المدارس العالية هم ولا جرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التى تعلقها عليكم امتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا



الرحلة الثانية

دواعي الرحيل وجهلنا ببلادنا

٣٦

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الاقطار الراقية ، يدرك لاول وهلة اننا عيال على الغرب والغربيين في كل شيء ، وأنهم إذا قطعوا عنا أقل صادراتهم نعود أدراجنا على النحو الذي كنا عليه منذ بضعة قرون، وهذا ممايصدق علينا في عامة شؤوننا ، والعلم هو أول بضاعة يجب علينا أن نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات ، وبدونه المهات .

وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع « خطط الشام » اننا كلما أوغلنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا ، واننا سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة ، إلى أن نقصد الى مكاتب أوربا نأخذ منها مافاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط ، مما كتب لنا الاطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة

أي غضاضة على الشرق أن يرحل باحث في شؤونه حباً باتقان عمله الى غير أهله وبلده ، وأن يتسقط الفوائد من الغريب ، والقريب في معزل . بيد أن يوماً طويلاً أمتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منا بحكم تنازع البقاء وبقاء الانسب ، تراث أجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنا غير آسف اذ لم يعرف لها الاخلاف قيمتها الحقيقية ، والاسفار في كل الاعصار ، هي هي مفتاح فتح الامصار ، والعلة الاولى في سعادة البشر ؛ ونقل المدنيات من النظريات الى العمليات

هاجت الخواطر في النفس خصوصاً عند ما ذكرت أن أميراً واحداً من أمراء ايطاليا وهو البرنس ليوني كايتاني مؤلف تاريخ الاسلام الكبير هو الذى جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه فيها كل ما يحتاجه باحث في تاريخ الاسلام والعرب و بلادهم فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوربا وأميركا وآسيا وافريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل ومالم يقدر على نقله أخذ له بالتصوير الشمسي فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب .

شبهتني وأنا أشد الرحال قاصداً إلى رومية للبحث في مكتبة الامير الايطالى بطلاب العلم في أوربا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الاسرائيليين يقصدون بلاد الاندلس ليقرأو على علماء العرب علومهم ورجعوا من كتب المسلمين بيلة تروي غلة جهلهم ، فسبحلت وحوقلت ، قائلا : ما أغرب تبدل الامم والبلاد ، وما أهنأ الغرب بما صار اليه من دواعى المنعة وأسباب العلم وما أشقانا بما فعل السفهاء منا .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام

وليت شعري أيعود ذاك العهد السعيد بالعلم على العرب ويصبح أبناء اليوم يفاخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق و بيروت وحلب و بغداد والموصل وصنعاء ومكة كما يفاخرون بغرناطة واشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن في الاندلس وصقلية التي استعمرها العرب بالعقل والعلم وأضاعها بعد ذلك جهل ابنائهم وغرورهم أيظل الشرق ياترى يعتقد في نفسه الكفاءة والغناء ويقلع عن القول بأن الغربي يغمطه حقه باستباحته حماه وا كتساحه دياره الحين بعد الآخر ؟ أم يهب باحثاً عن جميع علل هذا الارتقاء عندهم والتدلى عندنا ويتعلم ما جهل مع الشكر لكل من يعلمه وينعشه من سقطته .

حكوماتنا هي السبب الرئيسي في اظلام العقول واشتغالها بالفضول وأهل

الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرك جيلا من الناس يقوم اعوجاج حكومات الشرق و نتمتع على الاقل بمعرفتنا بانفسنا ومن عرف نفسه عرف ربه

دار الدعوة والارشاد فى القاهرة

٣٧

اغتنمت فرصة مقامى بضعة أيام فى القاهرة لقضاء بعض المشاكل أثناء شخوصى إلى ايطاليا لازور دار الدعوة والارشاد التى أنشأها صديقى السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار في السنة الماضية وكان ينوى انشاءها فى الاستانة أولاً لو صادف من القابضين على زمام الامر تنشيطاً على مشروعه وغرضه الاول من انشائها ايجاد هيئة صالحة بالعمل من رجال الدين يجمعون الى معرفة الدين النقى وأسراره وحكمه المطابقة لاحوال الزمن معرفة أحوال العصر حتى تحل هـذه الطبقة محل الهيئة القديمة التي كادت الامة تنزع ثقتها منها .

أنشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف أو « جماعة الدعوة والارشاد » وهى جمعية مؤلفة من أهل الفضل والعقل والتدين « لتخريج علماء مرشدين قادرين على الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والارشارد الصحيح وارسالهم الى البلاد الشديدة الحاجة اليهم » و « يرسل الدعاة الى البلاد الوثنية والكتابية التى فيها حرية دينية ولا يرسلون الى بلاد الاسلام الا حيث يدعى المسلمون جهراً الى ترك دينهم والدخول فى غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن الاسلام ويبينون حقيقته لاهله »

وقد جاء فى النظام الاساسى لجماعة الدعوة والارشاد انه « تتكون أموال الجمعية من الاشتراكات الموقوتة والاعانات والتبرعات والهدايا والوصاية والاوقاف التى توقف عليها أو ماتناله من ريع أوقاف أخرى ومن ريع رأس مالها »

و « يضاف ربع دخل الجمعية السنوى الى رأس المال للاستغلال وهذا ماعدا المبلغ الاحتياطى » وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الاجواد من العرب وفى مقدمتهم الشيخ قاسم آل ابراهيم من كرماء جزيرة العرب بألفي جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة

فى جزيرة الروضة [١] المشهورة الآن بالنيل حيث قام فى جنوبها مقياس النيل المبارك بين جسر (كوبرى) عباس وجسر الملك الصالح أو بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والارشاد فى احد مصايف أبناء شريف باشا الوزير المثرى المشهور وقد ضمت فى حجرها الى الآن صنفين عدد طلبتهما الداخليين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ الى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم أناس من رجال الدين وآخرون أساتذة علوم صرف وطعام الطلبة ونظافتهم ونظامهم في قيامهم ومنامهم ممالم يعهده طلبة العلوم الدينية اللهم الا أن يكون طلبة مدرسة القضاء الشرعى في مصر لان مؤسس مدرسة الدعوة والارشاد أفراد ومؤسس مدرسة القضاء الشرعى الحكومة . والحكومة أقدر على البذل من الافراد .

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه أنها تدرس العلوم والفنون التى تدرس عادة فى الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية تنشأ أقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة الى الاسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربى ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الاوربية ويجوز أن تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولا سيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والاوردية والملاوية . ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار

---

(١) هذه الجزيرة هى التي ورد ذكرها كثيراً فى شعر المصريين منذ القديم وتغزلوا بمحاسنها وللسيوطى كتاب فى تاريخها أسمه « كوكب الروضة » من جملة مخطوطات الخزانة التيمورية أو مجموعة أحمد تيمور باشا من علماء القاهرة وأعيانها

طلابه من متخرجي صنف المرشدين يمكثون ثلاث سنين أيضاً وذلك ماعدا السنة التمهيدية الاولى .

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجانى والمدرسة تنفق على الطلاب الداخليين فيه وتكفيهم كل ما يحتاجون اليه فيها وتعطيهم أعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهذيب لاتقل عن ريال مصرى فى الشهر وأما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئاً .

ومما يشترط فى قبول الطلبة الداخليين أن تثق المدرسة بان طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و ٢٥ وأن يكون حافظاً لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه اتمام حفظه قبل اتمام دراسة الصنف الاول وأن يكون قد حصل قدراً صالحا من النحو والصرف والفقه وعرف القواعد الاربع من الحساب على الاقل وان يكون صحيح الاملاء حسن الخط فى الجملة جيد المطالعة فى الكتب العربية ومن أصل قديم فى الاسلام وتتحرى المدرسة أن يكون طلابها من الاقطار المختلفة وتمرنهم على القيام بالفرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحي داخل المدرسة وخارجها

واذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التى تدرس فيها حق التطبيق يجيء ولاشك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكثلكة والارثوذكسية والبرتستانتية فى علمهم واستعدادهم خصوصاً ومن غرض المدرسة في باب تربية الاخلاق ان يعلم الطالب « الفرق بين زماننا وزمان القرون الاولى من المسلمين فى الحاجة إلى سعة الثروة وتوقف حياة الامة عليها الآن وعدم توقفها فى ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لا ينافيان تحصيل الثروة وعمارة الدنيا لانهما من صفات القلب وفائدتهما أن يجعل الانسان فضل ماله لنفع أمته ومجد ملته وأنه لا ينبغى تعمد ترك تحصيل الثروة الا لعمل أنفع للامة والملة . » ويعلمون فى باب انتقال الامم والدول من حال الى حال مثل قوله سبحانه «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقوله « وتلك الايام نداولها بين الناس »

هـذا ماأمكنني التقاطه مما عساه يفيـد واني لارجو لرئيس جماعة الدعوة والارشاد محمود بك سالم أحد علماء مصر العاملين وسائر مؤازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل أن يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الاستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وان يكون أساسه على صخر متين سداه الماديات ولحمته المعنويات فيكون من مادياته مخرجا الى معنوياته والسلام

في طريق رومية

٣٨

أول مايلاحظه المسافر من الأرض العثمانية الى الديار الاوربية ان كل مايقع نظره عليه هو غريب عنـه ليس له منه الا النظر . فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين .

ركبت هذه المرة القطار من دمشق الى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم أبحرت من ثغر الشام على باخرة ايطاليـة (تيفرا) حتى اذا بلغت الاسكندرية واردت الركوب منها الى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة « البرنس هنري » من بواخر شركة نوردتش لويد الالمانية وهكذا كنت عالة في تنقلي على الفرنساوي والايطالي والالماني ولو قصدت وجهة أخرى لكنت في ضيافة الرومي والنمساوي والانكليزي والروماني !

حالة يأسف لها وأيم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لأنها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظنـه بنفسه انحطت عن كل عمل . نعم يتألم الفؤاد من هـذه الحركة الاقتصادية المباركة لان العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربي يذكرون به ماينهضهم من كبوتهم ولا مضاؤه ليتمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا أسبابه المادية التي تبعثهم على تقليـد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر

نحن ويا للاسف نريد أن نعيش فى القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا ان مجدنا القديم يكفى تذكره وحده ليحيينا الى الابد حياة طيبة رشيدة ونتطال الى أن نقنع العالم بل أنفسنا بأننا شعب راق بمجرد ايراد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة فى تاريخ المدنية السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقى على ضعيف فى قوته ومعرفته ومادته وحكومته . هى تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاؤها قارة أفريقية وتوشك أن تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين .

مدنية أوربا هى التى حملتنا فى البحر المتوسط من بيروت الى الاسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الاسكندرية الى نابل فى ٧٠ ساعة ومن نابل الى رومية فى أربع ساعات على السكة الحديدية . والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الاوربي بل المثال الحى من هذه المدنية الحية التى سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الارض شاء أهلها أم أبوا فتحيا الامم التى تقوم بما قامت به أمم الحضارة الحديثة وتموت لامحالة الامم التى لها من حكومتها أو من تقاليدها أو من ضعفها مايعوقها عن الانبعاث والحركة .

تهتز نفس الشرقى وأى اهتزاز عند مايدوس أرض الغرب وتتوارد الخواطر عليه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات . هكذا كان حالى يوم أزعجنى القدر منذ أربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا أنا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان . وليس فى هذه الفرصة من جديد فان حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة اجمالاً تكاد تتشابه لأنها قائمة بالعمل قوامها انتظام أحوال تلك الحكومات وتناغي سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق واللطف

من أجل هذا كانت نابل مثالا مصغراً من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المكبر والفرع يدل على أصله والكتاب يقرأ من عنوانه . لم يتسع لى الوقت وقد قضيت يوماً فى نابل ان أزور معالمها وكليتها وآثار بومبي

الرومانية خصوصاً وهي علىمقربة منها لأنى فىصدد البحث عن تاريخ أجدادى وبلادي لاتهمنى أولاً الا الغاية التى أنا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى اذا كان في الزمن متسع أزور من معاهد هـذه الديار ومصانعها ما نستفيد منه عبرة لنا ولامتنا وينفعنا فى الاخذ بمذاهب الرقى ان صحت نياتنا عليه .

الى ساعة كتابة هـذه السطور لم أتمكن من معرفة شيء من أحوال ايطاليا اللهم الا ماهو معروض فى الازقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات وهذا لا يبنى عليه حكم ومع أن الطبقة الراقية تكلمك باللغة الافرنسية وكذلك تتخاطب مع أهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الاماكن العمومية فانك تجد صعوبة فى التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية . هذا مع تقارب اللغتين الافرنسية والايطالية احداها من الاخرى واللغات اللاتينية أى الافرنسية والايطالية والاسبانية والبرتقالية متشابهة لانها من أصل واحـد كما أن اللغتين الالمانية والانكليزية متشابهتان لانهما من أصل سكسونى واللغة الروسية والرومانية والبلغارية والصربية متشابهة لانها من أصل سلافى .

ومع أن جليسك تنقبض نفسه منك فى العادة اذا لم تكن لك معه لغة مشتركة لاتجد فيما تسمعه فى المحال العامة ودور التمثيل والموسيقى هنا ثقلا على سمعك من لغة الطليان وان كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتها صماخ أذنك كأنها أوتار موسيقار تتكلم ألحانها أكثر من ألفاظها . ولا عجب فايطاليا مهد الصـناعات النفيسة بل هى بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ أوائل عهد الاسلام وباعت من الغرب بل ومن الشرق موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهى بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت الى فرنسا وأوربا كلها وطليان الجنوب يشبهون السوريين فى كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد المدنية ويفخم العمران .

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بأن يعرف القارىء ان البلاد الاوربية كلما قربت من سمت الشمال كانت أقرب فى الجملة الى الاخذ بأسباب الرقى والحضارة

وهذا مشاهد محسوس . فانك تجد شمال ايطاليا أرقى وأعمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل ان ألمانيا فى جنوبها أحط منها فى شمالها وهو سر غريب من أسرار هذا الكون ولعل الباحثين فى طبائع الاقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لايعدمون تعليلا لذلك . أما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لانها معدودة من أواسط ايطاليا على ماسنذكره

الامير كايتانى

٣٩

كان الاغنياء والأمراء فى الغرب قبل أن تتقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وأرجحية القدم . أما الآن فان أمثال هذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألغتها القوانين الدستورية فى الامم الحرة النيابية فلم يبق من أسباب الفخر الا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لاتسمع بامثال هؤلاء الناس الا اذا أتوا عملاً ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرقيها درجة أخرى

وممن جمع بين فضيلتى المجد القديم والمجد الحديث فعد عصامياً عظامياً الاميرليونى كايتاني من كبار الأسر القديمة فى رومية التى يرد تاريخها الى زهاء ألف سنة ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف العصور والمنازع فكان منها البابوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من أمراء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذصغره فدرس فى كلية روميةالآداب وأتقن من اللغات الايطالية والافرنسية والانكليزية والالمانيةواللاتينية والفارسية والعربية

ولما أحرز حظاً وافراً من العلم والآداب سمت به همته وهو قبيل الخامسة

والعشرين أى منذ زهاء عشرين سنة أن يضع لامته كتابا فى التاريخ الاسلامى بلغتها يغنيها عن أكثر الكتب ويرفع كثيراً من المشاكل فى تاريخ العرب الذى أدهش العالم . فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ وأخذ بالتصوير الشمسي كل ماعرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثراً فى مكاتب أوربا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة فى الشرق والغرب في موضوع التاريخ الاسلامى خاصة ومن رآها فكانما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الاسلام وهو يرجو ان يفسح الله فى أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للاسلام فيقع فى خمسة وعشرين مجلداً (1) ولا يطبع من تاريخه أكثر من مائتين وخمسين نسخة يوزعها على المجامع العلمية فى بلاده وفى الغرب وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربى :

كفاف عيش كفانى ذل مسألة وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى

يقول كفاف عيش وثروته وثروة أبيه فيما بلغنى تقدر بمئة مليون فرنك دع ثروة حليلته الأميرة وهى غنية أيضاً ولهم المزارع الواسعة فى ضواحى رومية اذا استثمرت حق الاستثمار على أحدث الطرق تزيد ثروتهم أضعافاً والأمير مع هذا تفرغ الى العمل فى مزارعه ويتعهدها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف على اتقان عمله الذى صرف شبابه وهاهو يصرف الآن فيه سن الكهولة وسيصرف فيه أيضاً سن الشيخوخة بحول الله شطراً ليس بقليل من المال فعنده ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابه من المواد ماعدا ماينفقه

(١) عجيب صبر الايطاليين على تآليفهم فان المستشرق ميشل اماري قد تعلم اللغة العربية واتقنها خاصة ليكتب كتابا فى تاريخ صقلية فكتب مطولا لم يسبق اليه عند قومه وهو المرجع اليوم فى تاريخ هذه الجزيرة الايطالية التى دانت للعرب قرنين ونصفا وقد نشر اماري جميع ما كتبه مؤرخوا العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية فى كتب ورسائل كثيرة

فى الكتب وطبع كتابه ولكن كل ماينفقه فى سنة لا يعادل ماينفقه غنى واحد من فساق أغنياء الاميركان أو الروس مثلا فى ليلة واحدة فى باريز أو مونت كارلو فسبحان من أودع في كل قلب ماأشغله

طاف الأمير كثيراً من بلاد الشرق ولا سيما الهند وفارس والشام ومصر ودرس أحوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فاذا تكلم فى تاريخنا صدر عن علم نظرى وعملى . ولقدذهب منذ ست سنين الى بلاد الشام ليرى بعينه المكان الذى كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم فى اليرموك . وهذا قلمايتيسر الا لمن أوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب فى سبيل تحقيق رغائبه .

وما زال منذ بدأ فى التأليف وهو يدأب وراء منضدته فى مكتبته كانه عامل بسيط فانه يبدأ فى عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحا على الغالب ولا يزال أكثر النهار يعمل ويطالع لاتعرو همته ملل ولا ينظر في سفساف الأمور . ولقدكان نائبا فى الانتخاب الماضى فى مجلس النواب فأضاع فى النيابة شيئاً من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لانه توفر بجملته على خدمتهما .

وعدم انتخابه ناشىء من أن خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الأمير فى مسألة فتح ايطاليا لطرابلس وبرقة حجة أثاروا بها الرأى العام حتى لايعودوا الى انتخابه وذلك ان الأمير أحب أن يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لامته عن أن يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد ان هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لايليق بأمة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح فى المجلس وكتبه فى الصحف الايطالية وغيرها بالتصريح فحنق عليه من حنق وأثاروا الخواطر من جهته وقد بذل مالا كثيراً للنيابة عن أمته قيل انه عشرون ألف ليرة ولكن خصمه بذل خمسة وثلاثين ألف ليرة ففاز عليه .

والأمير على مارزق من الشهرة العلمية لجمعه بين المجد التالد والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لأول مرة حاملا اليه من صديقه

أحمد زكى باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلني للبحث في مكتبته اعتذر عن كونه قابلني بثياب عمله وقال ان عنده شيئاً من المخطوطات العربية أخذت بالتصوير الشمسى ولا يدرى ان كان فيها حاجتى على أنه تفضل ودلني على مظانها وما برح اليوم بعد الآخر يشير على بالرجوع الى كتاب كذا ففيه مادة لكتابى وهو يبش ويقول فى الاحايين أنه مسرور لعثورى على شذرات تهمنى كل هذا وهو لا يضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارتفاع أسعار الأوقات فى الغرب ولا سيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم أرباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلاً .

لئن امتازت الخزانة التيمورية فى مصر بانها تحوى أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الاسلام فى علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكية بالقاهرة بجمعها أنفس المطبوعات العربية في الغرب فان الخزانة الكايتانية فى رومية تحوى على الغالب أهم كتب التاريخ الاسلامى أو ماله علاقة فيه وذلك باللغات المختلفة ولا سيما العربية مما هو جدير ان يرحل اليه من الصين لا من دمشق .

وقديماً كان أمراء المسلمين وعلماؤهم يفتحون خزائنهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب والسعة كما فتح منصور بن نوح السامانى خزانة كتبه لأبى منصور الثعالبى فألف فقه اللغة وكما فتح على بن يحيى المنجم من أهل القرن الثالث فى قرية له نفيسة بكركر من ضواحى القفص خزانة كتب عظيمة فى قصره الجليل وسماها خزانة الحكمة فأخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيي وكما وقع من غيرهما كثير أما اليوم فان هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وأمراؤه وأصبح الشرق بلقعاً حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة الى من أحسن تعهده واستثماره سنة الله فى خلقه .

نساء الافرنج

٤٠

الانكليز أعجب أمم الحضارة فى أخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد الا بشق الانفس ولكنهم إذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم وسابقهم

والغالب ان كل الحاجيات تمت أوكادت فى هذه المدنية الغربية حتى قامت بعض نساء الأمم وطالبت باشراكهن فى حقوق المدنية فاصبحن ينتخبن نائبات فى المجالس النيابية ويشركن الرجل فى أعمال السياسة ومن الفائزات السابقات فى هذا السبيل نساءفنلندا وأوستراليا وزيلاندة الجديدة والنروج .

رأى النساء الراقيات من الانكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع الرجل وغرن — والغيرة من خصائصهن — من اللاتى سبقنهن من بنات جنسهن وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلنر احتجاجا فى لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على وتيرة واحدة من السعي وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن

خطبت اذ ذاك العقيلة ميلنر وقالت انها أزمعت أن لا تدفع الخراج الذى عليها للجابى بحيث تضطره الى أن يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة وكل سنة تزيد قسوة واملالا . فضحكت الصحف من هذا القول اذذاك ومن الغد أرسل اليها من جميع أطراف انكلترا ابر للخياطة . اشارة الى أن المرأة هذا شأنها ولا يليق بها ان تخرج عن هذا الحد

ولكن المطالبات بهذا الحق ظللن يجمعن قواهن هذا وهن على عهد الملكة فيكتوريا التى سنت للملكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوقة سنة توفر النساء على تربية أولادهن وتدبير منازلهن والقيام على أسراتهن وبيوتهن حتى

قالت فى مفكرتها ان أحسن امرأة هى التى تبدو صالحة لزوجها وأولادها .

ولقد ربت ملكة انكلترا وأمبراطورة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية حتى ان الأميرة أليس دى هيس درامستاد كتبت الى أمها تقول : ها قد صنعت الفساطين اللازمة لبناتى الصغيرات فى الشتاء فعملت منها سبعة ولم أطرزها فقط بل فصلتها وخطتها وعملت أيضاً رداء من الصوف للطفل الذى ننتظر قدومه وأنا التى أتولى حسابات الدار ولذلك ترينى مستغرقة فى العمل . ان أسرتنا الصغيرة تزداد بسرعة وستقضى علينا الحال بعد بضع سنين أن نعيش باقتصاد زائد .

فى مثل هذه الأمة التى ملكتها وأميراتها على هذا الطرز من حب الانصراف الى الاعمال البيتية يقوم ربات الحجال فى أقصى بلاد الشمال ويعمدن الى القسوة فى المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجأن كما قالت جريدة الماتين من مقالة افتتاحية الى استعمال القوة فى مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الأيدى اللطيفة التي يجب أن تكون رباتها ملكية الاخلاق بلطفها ودعتها هى التى تتهمها « التيمس » بانها تشعل الحريق فى بعض بلاد الانكليز لتحمل الحكومة على اجابة تلك المطالب وانه قد حرق فى شهر تشرين الاول الماضى فى بريطانيا من الأملاك مايقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف وثبت بالتحقيق أن للمطالبات بحقوق النساء يداً فى نحو عشر حرائق منها وان النساء المتحمسات لهذه الفكرة يطلبن شيئاً من المال فلا يلبث أن يحمل اليهن فقد طلبن مرة مئة ألف جنيه وأخرى ربع مليون جنيه وكلما طلبن مالاً يأتيهن عفواً ويقدر مايصرف النساء الانكليزيات فى الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن

هذه هى أعمال النساء الانكليزيات ومعظم البشر لايوافقونهن على استعمال القوة فى مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا أثر لها فى الشرق وكيف تكون حال نسائنا مرضية وهن راضيات عن تقهقرهن فرحات بجهلهن . العاقل لايطلب لنساء الشرق أن يشاركن الرجال كما هن فى الغرب فان تقاليدنا وأدياننا وعاداتنا لاتنطبق مع هذا ولكن كل ماتتقيد به من قديم لايحول بين

نسائنا وبين التعلم . وليت شعرى كم مدرسة فتحت لتربية البنات فى عهد الدستور فى القطر السورى وكم رجل فكر أن يعلم بناته فن تدبير المنزل كما يعلم فى الغرب .

القشور التى يتلقفها بعض بناتنا فى مدارس الاميركان والفرنسيس والالمان ومدارس الحكومة لا ترقى أمة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه فى صدور كبرائها فما بالك بالصغار . ان ما يراه السائح فى أوربا من مظاهر تربيـة المرأة ومضاهاتها الرجال فى جلائل الاعمال يبكيه على الشرق ولا سيما الشرق الاسلامى الذى تأتيه العبر عن ايمانه وشمائله ولا يعتبر

تسعى ايطاليا اليوم لاعطاء المرأة حقها فى التصرف بمالهـا كما تحب دون أن تكون مقيدة بارادة زوجها أو وليها كما كانت حتى الآن وفى الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا فى شىء لانهاض المرأة من كبوتها فما أبعد الفرق بين الجنوب والشمال فى تربية الرجال وربات الحجال

***

وبعد فانا نشاهد كل آن العجب العجاب فى هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة فى أعمال الحياة مشاركة هى على غير الطريقة التى جرى عليها الشرقي الاقرب الذى جعـل المرأة فى منزلة يصح أن يقال انها أقصى دركات الانحطاط وهيهات ان تنجح أمة نصفها عاطل لا يعمل ولا يفكر ينظر اليـه بغير العين التى يجب أن ينظر اليه بها وينزل منازل الجهل والخمول .

قلنا ان العاقل لا يطلب لبلادنا ان تكون المرأة فيها كما هى فى الغرب فان هذا أشـبه بمريض يحتاج الى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلا وبذلك تقتله لامحالة . نعم لا نريد لنسائنا الآن أن يكون لهن حق المشاركة فى السـياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا ان يكن منقطعات الى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقي الذى يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة أم تحسن التوفر على تعهد بنيها وبيتها وتدخل

السرور على قلب بعلها ومحارمها وان نقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكن من الدارسات العلوم العالية بالطبع

قرأت الآن فى « الجورنال » مقالة افتتاحية لاحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكرى الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين ان فرنسا استاقت ألفاً وستمائة معلم فى سن القرعة للخدمة العسكرية وانها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب انه ساح فى أوقات مختلفة فى عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معاً على نحو ماتقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب فرأى ان ذلك لايضر بالآداب بل ينفعها فان الرجال لما كان شأنهم أن يعيشوا مع النساء فمن السخف ان يفصل بعضهم عن بعض عشراً وخمس عشرة سنة وان يعود كل جنس أن يعتبر الجنس الآخر دخيلا وخطراً فان التعليم المشترك يغرس فى الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياء بدون أن يكشرن عن أنيابهن . فانا نجد فى البيوت التى يكون للبنات فيها اخوة وللاخوة اخوات يحرزن صفات ليست أصلا لغيرهم من الاولاد ونحن لانريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم أزمة التعليم فيها للنساء

المرأة تحب الأولاد وتعرف مراميهم فان فطرة الامومة التى تتنبه فى الفتاة تحبب اليها الأولاد وتعرفها بهم ويكون الأولاد فى الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت أو عجوزاً فى حين ان شبان المعلمين لايتيسر لهم أن يحبوا الاولاد وذلك لأن المتزوج رب الأسرة ربما توسع فى حبه أولاده فاحب أولاد غيره على مايوحى اليه العقل ولكن معلماً فى العشرين لم يتزوج لايحب الاطفال بل يضربهم ولايبالى بهم لانه يعتقد نفسه بأنه أشبه بالمرضعة وان درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والأولاد معاً ان يوسد أمر التعليم فى مدارس الأطفال الى النساء بدون استثناء فان الطفل الذى يبدو شيطاناً امام معلمه يحاول أن يرضى معلمته كما هو الحال في المقاطعات المتوحشة في غربى الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم

لايحسن التصرف مع الأولاد فيعود نظام المدرسة الى أحسن مما كان

قال ان للمرأة أسراراً فى اللطف والصبر والثبات الممزوج بحب وحسن النظر يجهلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمبتدىء بالتعليم . المرأة تعلم وتفهم ألف أمر لا يستطيع الرجل أن يفهمها ولا يحرزها . انها رزقت جميع أسباب اللطف التى ترافق الاحسان .

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فمتى تنشأ لنا مدرسة فى كل حاضرة من حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات أولا وان أمكن للصبيان أيضاً وريثما تتم هذه الامنية يكتفى اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين أو المدارس الطائفية ويوسد اليهن تعليم البنات والبنين .

وما أظن الا القليلات من المتعلمات فى بعض المدن العربية والقليل من المتعلمين يفكرون فى هذا المطاب الجليل الذى هواهم الادواء القتالة فى جسم مجتمعنا وهيهات أن يحصل على شىء من البرء الا بتعليم البنين والبنات بل انه بدون العناية أولا بتعليم البنات لاتستقيم لنا مدنية وتكون تعليمها الأمور النافعة بحسب ماتقضى به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربى بانهاض شأن المرأة وبدون ذلك لا أمل لنا باصلاح بيوتنا

المدنية لا تشفي

٤١

أحببت أن أخدر أفكارى موقتاً عن النظر في اخبار بلادى فأخذت أطالع بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما باريز منها وأعنى عناية خاصة بالحوادث الداخلية مما لا يتيسر للصحافى الشرقي كل حين فاتلو كل يوم مرات أخبار القتل والانتحار والاعتداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربي بالحياة جرياً علي ماورد في المثل العربي « احرص علي الموت توهب لك الحياة »

لا ينكر ان من الحوادث الطارئة هنا ما يسوق اليه اختلال الشعور من الاكثار من الخمور وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منها ما يدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجد والشهرة . وبينما نجد ابن البادية عندنا يقتل عابر سبيل ليذهب ببندقيته أو فرسه أو كيسه أو ثوبه ترى الغربي ينتحر هو وزوجه أو ولده تخلصاً من شقاء الحياة أو تفاديا من الوقوع فى فضيحة أو لسائق غضب أو غير ذلك من الاسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة .

قرأت الآن فى «البتى جورنال» ان العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض أجناس من الحيوان كادت تضمحل بسوء تدبير الانسان وظلمه وقسوته وان المجمع العلمى الباريزى قد حصر جلسته الأخيرة فى البحث عن أسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التى تكثر فى البلاد الحارة وتصاد بلا شفقة ليتزين نساء الغرب بريشها واذا لم ينظر فى طريقة تحفظ بها انسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بضع سنين لا محالة فيكون الناس أشبه حالا بحكاية من قتل الدجاجة اعتقاداً منه ان فى بطنها بيضة ذهب .

قال صاحب المقالة : منذ عرف العالم مازال الانسان يظلم ويطمع فى القضاء على الحيوانات ويسيء استعمال الأسباب التى جعلتها الفطرة أمامه فلاجل نفع معجل بل وربما كان لجلب سرور بربرى يقتل بدون خشية أنواعا من الحيوانات النافعة التى يحدث من فقدها اختلال فى ميزانية هذا الوجود . هو يقتل الفيل لان العاج ثمين جداً ويذبح كلب البحر لان جلده يباع بثمن غال ويصيد الجوارح والطيور لان ريشها تزدان به رؤس النساء المتبرجات الخ

وبينا أتصفح هذا وأعجب من رقة شعور القائمين بهذا الأمر وعطفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة أن يحدث منه خلل فى ميزانية عالم الكون والفساد ، اذا بى أرى فى الصفحة الثانية أخباراً من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة أيام في الغرب لان مدنيته لا تشفق بل لا تقوم الا ببذل بعضهم أرواحهم فى سبيل اعلاء كلمة العلم

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون فى الصحاري والقفار أو فى القطبين وتجشم أخطار البحار أما اليوم فبعد ان اكتشفوا العالم الأرضى أصبحوا يريدون أن يكتشفوا العالم السماوى كانوا بالامس يعملون فى البسيطةوهم اليوم يريدون أن يسخروا الجو وما ندرى غداً ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التى تباع فى تحقيقها الارواح بيع السماح

كنا بالأمس نقول اذا تلونا سياحة أحد أرباب الرحلات من الغربيين ان كاتب الرحلة فى حلم يملى من عالم الخيال ليرى أنه لقى أهوالا من سفره ويشتهر بين جيله وقبيله ونرجح أن معظمها أشبه بقصة السندباد البحرى وحكاية ألف ليلة وليلة بيدان مانقرأه اليوم بل نشاهده عياناً من أخبار الطيارين فى طيارات السماء كاد يدعونا الى تحسين الظن بأكثر ماأورده أرباب الرحلات وان هذه المدنية التى نتمتع بها ان هى الا ثمرة الاستهانة بالحياة فى سبيل الأغراض الشريفة .

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الانسان بل تقتل الانسان لفائدة الانسان وهذه التجارب التي خص الغربى بطول الروح عليها هى التى نشأت منها أكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسناتها للبشر اليوم منادية بأن الأمم التى قام أبناؤها بشيء من هذه الاعمال حرية بأن تنال ذروة المجد لأن من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لايعسر عليه أن يسخر الانسان للانسان .

مدنية الغرب لاترحم أحداً ومتى رحم من لايرحم نفسه . والغرب لايحزن لفقد ألف أو ألوف من أبنائه قذفاً من الجو وهم يطيرون لانه موقن بأن هذه التجارب تنجلى فى النتيجة عن خير لهذا المجموع فتى نرى أناساً من الشرقيين ينهجون هذا المنهج ويقلدون الغرب فى صالح أعماله فان مما يخجل الشرق أن يعمل الغرب كل هذه الأعمال المدهشة وهو نائم باهت وأن يقتل الشرقى أخاه في غرض تافه ولا يقتل نفسه فى تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثل

وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء ان يعطى مناه ويأبى الله الا مايشاء

وكل شديدة نزلت بقوم   سيأتى بعـد شدتها رخاء
ولا يعطي الحريص غنى لحرص   وقد ينمي على الجود الثراء
وبعض الداء ملتمس شفاه   وداء النوك ليس له شفاء

تكريم الرجال

٤٢

عرف الغربيون حسن الانتفاع من كل شيء فصاروا إلى زمن هم فى العالم كل شيء لاقول إلا قولهم ولا مدنية الا مدنيتهم التى هى خلاصة مدنيات العالم بأسره فيها اندمجت مدنية رومية واثينة وبابل واشور ومصر وفينيقية والاندلس وبغداد وفارس

ان هذه المدنية التى تتمثل لنا كل يوم فى صور شتى قامت بعقول الرجال وأعمال الابطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذى كان عليه المعوّل فى نبث المدفون واختراع المعدوم

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرقى انهم على شيء من المبالغة وأكثر الامم ايغالا في ذلك الفرنسيس على ما رأيت فان رجالهم لقوا من التكريم والتنويه مالا يكاد يراه أمثالهم فى الأمم الغربية نفسها . وأن المرء ليعجب كل العجب من تغنيهم حتى اليوم بجاندارك احدى فتيات القرون الوسطى التى بزت الرجال بشجاعتها ودافعت عن وطنها أمام جيوش الفاتحين من الانكليز وإلى اليوم هى المهاز الاعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها فى وصف سيرتها .

ولا بدع فان الفرنسيس كما قال برزباين — أشهر رجال الصحافة الاميركية — ورثوا عن اليونان والرومان نبوغاً كانوا به أدلة وموحين بالافكار للعالم منذ

عهد شارلمان فقد كانوا الاولين فى الحركة العقلية السابقين فى شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين فى فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة فى انشاء السيارات والطيارات وفى عامة الاعمال التى تحتاج إلى عقول لاتخاف وتتطلب اقداماً عليها لساعتها .

قرأت أمس فى « الماتين » مقالة جاء فيها أن الفرنسويين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتيه (يوم ١٣ كانون الاول سنة ١٩١٣) وربما يقلّ فى قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته ليذكنوا على الاقل من هو الذى يعاد ذكره بعد أن نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفائح التذكارية وأنشئت الجواد والشوارع بل أنشئت قرية باسمه فى الجزائر .

بارمانتيه هو مخترع البطاطا فى فرنسا أومدخلها اليها على صورة عم استعمالها جميع طبقات الناس لخدمتهم فى اقتصادهم وبيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضى . كان هذا الرجل من أبناء العامة سافر من بلده مونتيديه إلى باريز ليسابق فى وظيفة صيدلى فى الجيش فقبل وأرسل مرات الى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى أعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضو فى مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلى أول فى الجيش الفرنسوى وفي خلال حرب السبع سنين أخذ أسيراً وفى أسره تسنى له أن يدرك مافى البطاطا من المواد المغذية وكانت فى معظم الاوقات الغذاء الوحيد له ولاصحابه الاسرى .

حملت البطاطا من أميركا الى أوربا من سنة ١٥٨٠ الى ١٥٨٥ نقلها الاسبانيون أولاً ثم الانكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيراً فى فرنسا وينظر اليها فى الجملة نظر ازدراء . وما زال بارمانتيه منذ استقر أمره فى صيدلية « الانفاليد » بباريز يكرر فى منشورات منوعة فوائدها ويدفع اعتراض المعترضين بشدة لانهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلا ان رأى الناس فى البطاطا انها غير صالحة لغذاء الانسان ساقط لايؤبه له وكذلك دعواهم انها تضعف الجسم وتحوى

الاخطار وعلى العكس فهى لذة للاغنياء ومعوان للفقراء وسلوى فى الشدائد .

وكان هذا المحسن مدفوعا إلى ذلك بالعامل الذى وضعه بعضهم بقوله : لا يكفى من أراد أن يكون نافعاً لابناء جنسه أن يقول لهم مرة واحدة مارآه وما عمله ومايجب أن يعمل بل يجب عليه أن لايمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق منوعة اللهم الا القوة فانها لاتستحب . ولا تنفع العلوم الا اذا عمت الطبقات كلها . هكذا كان شأن بارمانتيه حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة واصبحت تزرع في أرض تبلغ مساحتها مليونا وستمائة الف هكتار فى وطنه

ولم يقتصر بارمانتيه على الدعوة الى البطاطا وتحبيبها الى الناس بل كان له أثر محمود فى الخبز والخبازة ودرس الاغذية الرئيسة عند هذه الامة وله العمل المهم فى تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية الى غير ذلك من أعماله فى تنشيط الاشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم وطبخ الاحسية الاقتصادية هذا الى جمعيات البيطرة والاحسان والمآوى التى كان عضواً فيها أو مديراً لاعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه أحد واصفيه السابق الى كل مكان يمكن العمل فيه كثيراً وأن يخدم بدون عوض ويجتمع لعمل الخير ويتأتى لمن يدعوه أن يكون على ثقة من أنه باشرا كه بارمانتيه فى العمل يتسلط على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القارىء وكيف وجد من قلبه متسعاً للقيام بكل هذه الاعمال التى تحتاج الى بضعة رجال والجواب أن بارمانتيه كان يصحو باكراً ويجلس الى منضدة عمله فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحاً . قالت (الماتين) وما أحق مدارسنا الابتدائية أن تتخذ من هذا الولدان الشعب مثالا يبعث الهمم على العمل فانه قد خرج من مسقط رأسه مستخدماً صغيراً فى الصيدلية لاسند له ولا مال بل ولا تعليم الا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ المناصب العالية وجلس فى الصف الاول بين المحسنين الى الانسانية

أبعد هذا نلوم الفرنسيس اذا غالوا بحمد رجالهم ؟ وهل نشأ لنا نحن يا ترى معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتيه منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله حريا بان نحتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه فى سجلات الازمان .

صناعة الفنادق

٤٣

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل أصبحت الفنادق والانزال صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق فى الغرب ولا سيما فى البلاد التى يكثر اليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثلا يهون عليه أن يتصور معنى الفنادق فيرى قصوراً شاهقة ذات حدائق غناء مجهزة باجهزة قصور الملوك أو أكثر وفيها من التحف والالطاف وبدائع الصناعات ما يلفت عقل البليد دع الحساس الذكى

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل الا لعين من كثرت سياحاته الى الاقطار المختلفة وهناك يدرك خطرها كما يدرك قدر الصحف فيرى ادارة كل نزل أشبه بديوان كبير من دواوين الدول أو مصرف عظيم أو جريدة منتشرة . واتقان تلك الصناعة متوقف على العلم الحديث فكلما تأصل فى الشرق والغرب وكثر الترف والنعيم زاد رواء واتقانا

ان ما نراه فى مصر والشام من اتقان بعض الفنادق ان هو الا جزء مما أوجده العلم فى القارة الأوربية والأميركة وفى مقدمة الأمم التى استفادت من فنادقها وأحسنت القيام عليها الامة السويسرية حتى سمى بعض الفرنسيس أهل سويسرا « الفندقيين » تحقيراً لهم مع أن هذه الصناعة كغيرها مما لا يثلم الشرف ولا يعبث بالمروءة شريفة فى ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وعاراً . وكفى السويسريين بان

أهم الفنادق في ايطاليا وغيرهاهى بايديهم يديرونها ولا يفوقهم أحد في هذا الشأن .
ليس الفندق أو النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن بعض الشيء فانه قد يوجد في الفنادق الحديثة من أسباب الرفاهية والنعيم مالا يوجد مثله في قصور العظماء . الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة أمور تحتاج حسن سيرها الى عناية وملاحظة ، خذ لك فندقاً متوسط الكبر تجد فيه بحسب طبقته ومساحته أعمال الكهربائية (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة والتهوية وأدوات لاستخراج الجليد وحجراً مبردة وأفراناً للخبز والحلويات وآلات للتصعيد ومطبعة ومكتباً للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات والسيارات وعقوداً وقد يساوى مايحويه الفندق من المواد مئات الالوف من الفرنكات تكفى النزل الشهرين والثلاثة ومعملا للتصليح ومحل نجارة وحدادة الى آخر ماهنالك مما لا مقابل له بالعربية للتعبير عنه .

وللفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتنزهاته وطرقاته وسواق تامة أدواتهم لنقل الأمتعة والاثقال منه واليه على الخيل أو السيارات . ورجال ادارته أكثر من رجال وزارة فمنهم المستقبلون والقائمون على اعطاء التعليمات لمن يطلبها ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك

فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم أقساماً قد يختلف عدد القائمين بأعماله من ١٠٠ الى ٣٥٠ شخصاً . ومدير الفندق سواء كان مالكه أو مديره مسؤول عن كل مافيه يديره ويعنى به ويموله ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله العاملون باشارته أو النازلون عنده . والقانون يسأله وحده فقط عن كل مايحدث

ولذا لايكون صاحب الفندق في الغرب رجلا عاديا يكتفى منه أن يكون حسن البزة عارفاً بالقراءة والكتابة والحساب بشوشاً مؤنساً بل هو رجل متعلم من الدرجة الأولى يحسن ادراك ألوف من التفاصيل في ادارة تحتوى غرائب معقدة بحيث يكون أهلا لأن يتصرف في الحوادث اليومية التى قد تقع اضطراراً في عمل يحوى في جملته أعمالا صناعية وتجارية مختلفة وليست الادوات التى يقوم بها

الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلابدع اذا طلب هنا من صاحب الفندق أن يكون مهندساً نقاشاً سياسياً تاجراً بل طبيباً للارواح والاشباح

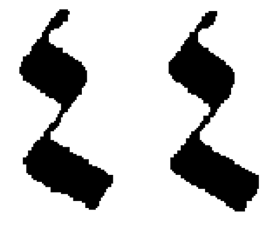
عرفت الامم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الأول فى حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعيـة وفتحت المدارس لتعلمها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذى تتوقف عليـه حياة البيوت وسعادتها وغبطتها . ولقد كانت النفس تحدثني وأنا أشهد من لذاذة الحياة فى فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحذاقة طهاتها ونظافة خدامها وخادماتها بان يأتى أناس من الطبقة المستنيرة المثرية من أبناء بلادى ليروا شاهـداً عيانياً محسوساً على ترقى الغرب وتدنى الشرق ويفاضلوا اذا رجعوا الى أهلهم بين حالنا وحال غيرنا وينقلوا بعض مايمكن نقله من أسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخوائن والمغاسل والحمامات وأماكن الاطمئنان وغـير ذلك من أساليب الراحة والنعيم الذى لم يظفر ببعض بعضه أغنى الاغنياء فينا اللهم الا بعض عقلاء الكبراء فى الحواضر الكبرى وخصوصاً فى مصر .

ولكم كنت أشتهي أن يأتى بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة أو النظر فى فنادق مصر والشام واختلطوا بالافرنج وعرفوا خصائصهم وتأنقهم فى مطعمهم ومنامهم وملبسهم أن يقضوا ولوا شهراً فى الفنادق الكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل فى سويسرا وأظن أن من يفتح فندقاً ويحسن النظر فيه بحيث يضاهى به أو يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وأمته فى اقتصادياتها أكثر من ألف موظف في الحكومة متوسط المعارف لا يهمه الا رضا من سبقه فى الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب .

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ فى السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لانها عرفت من أين تؤكل الكتف فى خدمة الناس وتوفير أسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء أن يكون فى الفندق سعيداً كما هو فى بيته وزيادة . وان اتهم بعضهم الدماشقة بالا يفكر ون

فى غير الاكل والنوم وان هذه العادة غالبة عليهم ولكن يشفع فى ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه الشؤون الحيوية أيضا وان يكن الفرق بيننا وبين غيرنا اننا نكثر التفكر فى ذلك وهم يجعلون له وقتا لا يبحثون فيه بغيره والسلام

رجال الكنيسة



يجدر بنا ونحن فى مهد انتشار الدين المسيحى وكل ساعة يقع نظرنا على قساوسته ورهبانه ونرى بيعه ونسمع أجراسه أن نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتفانيهم فى واجبهم

من يمر فى شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمراً زمراً ويجدهم على الجملة يحلقون شواربهم ولحاهم ويلبسون لباساً أسود فى الاكثر على عادتهم فى الشرق ويختلف هذا اللباس فالالمان والمجريون منهم يلبسون أردية حمراء فقط والفرنسيس والانكليز يلبسونها سوداً والايكوسيون سوداً مع زنانير زرقاء وياقات سوداء والباجيكيون يلبسون سوداً فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسون السواد وغياراً أخضر والبوهميون سواداً وغياراً ممزوجاً بزرقة فاتحة واليونان والروتنيون يلبسون زرقة وزنانير حمراء مبقعة بزرقة وقسوس أميركا الجنوبية يلبسون الاسود مع غيار أزرق وبطانة زرقاء والاميركان يلبسون لباساً أسود واسع الاكمام والاردان وغياراً احمر وأعضاء الدعوة الى الدين يلبسون أردية سوداء مع غيار وبطانة هما الى الحمرة

هذا هو الشكل الظاهر فى طلاب المدارس الاكليريكية الذين يأتون من أنحاء العالم الكاثوليكى ليدرسوا ويتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا الى بلادهم أو غيرها يعلمون ويرشدون . وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون فى مدارسهم وبعد الدرس يذهبون الى منازلهم وقد يعيش بعضهم بين أهله وذوى قرباه فمن

هؤلاء لايطلب الا أن يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم أحرار فيما عدا ذلك أما الرهبان فدائرتهم أضيق لانهم يعيشون فى مدرسة واحدة مع أقرانهم ويطعمون طعاماً واحداً ويكون فى الاكثر طعام تقشف ولايخرجون الا برخصة أى أن هؤلاء مقيدون كثيراً ولا قيد صغار الطلبة فى المدارس الداخلية

والرهبنات أقسام منها الفرنسيسكانيون والدومنيكيون واليسوعيون والعازريون وغيرهم ولهم أنظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وأفادوا النصرانية بنشرها فى البلاد التى لم تدخلها ولا سيما فى الصين والهند واليابان وأواسط افريقية وغيرها من البلاد النائية

وكان لليسوعيين يد طولى فى هذا الشأن وهم بين الرهبان والقسوس أى أنهم يترفهون ويأكلون ما يشاؤن لكنهم يأوون الى بيت خاص خلافاً للرهبان الذين يأكلون اكلاً معيناً وخلافاً للقساوسة الذين يأوون الى بيوتهم واليسوعيون أشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة مانالهم من اضطهاد الحكومات فى الازمان السالفة

قال الامير بورغزه فى كتابه « ايطاليا الحديثة » : أن تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقى فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لادارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وارادته . ويتراءى للناظر فى نظامهم أن واضعه جندى فان كل شيء فيه يشعر بالنظام . وقال أن نظام هذه الرهبنة ربما جرى فى وضعه اغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الاسلامية التى كانت مشهورة فى الاندلس فبنى نظام رهبنته على طاعة لا نهاية لها فتوصل بهذه الصورة أن يؤلف جيشا يتصرف به رؤساؤه تصرفا مطلقا وتفنى ارادة صغيرهم فى كبيرهم

ولمعظم الرهبان والقسوس أعمال علمية وغيرها يتعاطونها ويبرزون فيها فاذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم واذا أخذوا بالتأليف

قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس فى ايطاليا وفى غيرها كثيراً مايفضلون أن يربى أولادهم على أيدى القسوس وان كان آباؤهم ملاحدة مارقين من دينهم

ترى الرهبان اذا أخذوا بالزراعة والصناعة ربما سبقوا من تخرجوا فيها أعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتبا للحبر الاعظم منذ يوم أخذت حكومة الوحدة الايطالية أزمة الامر بيدها واستولت على أموال الرهبنات وكنائسهم وأوقافهم سنة ١٨٧٠ لان جميع مرافق البلاد المهمة كانت بأيديهم اذ ذاك فغيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكنا للجند وغير ذلك وحظرت على أى جمعية دينية امتلاك ملك الا أن لرئيس الجمعية أن يملك ما يشاء وقد عادت الملة النصرانية فأخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحدة الجديدة ولذا تراهم يعيشون عيشا حسنا وأديارهم وكنائسهم منظمة وواردتهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع الى المتدينين من أغنياء الكاثوليك فى العالم

قلنا أن الحكومة الايطالية عينت منذ زهاء أربعين سنة راتبا لامام الاحبار ولكنه لم يقبله بعد أن نزعت منه السلطة الزمنية وكانت بيده هى والسلطة الروحية بيد أن الحكومة وضعت المبلغ تحت أمره فى المصارف وفى كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقى رأس المال بحاله الذى يزيد كل سنة حتى بلغ فيما بلغنى (١٨٠) مليون فرنك وحضرة البابا لا يريد أن يتناوله وهكذا عف هو وأسلافه وسيتعفف أخلافه عن أخذ مال ممن يرونهم غاصبين حقهم معتدين على سلطتهم

ان انشقاق المانيا وانكلترا وغيرهما عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام أمثال جان هوس وكلفن ولوثيروس فى أوائل القرون الحديثة وتلك الازمة التى دخل فيها المقام البابوى اذ ذاك لم تؤثر كثيرا فى سلطته على الارواح والاشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية فى ايطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيراً فبقى مقام حضرته مقدما وكذلك الكرادلة والاساقفة والقسس والرهبان وذلك لان عمل هؤلاء

الرجال قائم على أنظمة وقواعد معينة لاتغيرها الطوارئ والرزايا ولان هـذه السلاسل في مراتب الـكهنوت لايصل إليها المريد الا بالتعلم والتهذيب على الاصول المتبعة وكل ما جعلت التربية والتعليم أساسه يثبت ويعم أثره ويوفق الناهضون به

ولقد لاحظنا أن الفتن الدينية التى أثارها التعصب الدينى فى القرون الوسطى كانت فى ايطاليا أقل مما هى فى فرنسا واسبانيا حتى أن الاسرائيليين فى اسبانيا لما ذاقوا العذاب الاليم جلوا عن بلادهم فـكان من إيطاليا أن قبلتهم وهذا ناشىء من لين أخلاق الشعب هنا ويرجح أن كل ما وقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته

ولو رجعنا الى تراجم أكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء اساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكر كانوا كذلك يوم كانوا ملوكاً زمنيين وروحيين ويوم أمسوا روحيين فقط فقد حدثنا التاريخ أن البابا ليون العاشر فى القرن الثالث عشر للميلاد وهو من أسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبى وكان يبسط جناح حمايته للمصورين والنقاشين والمهندسين والادباء ويفضل عليهم وبالطبع أن من يأتى بعده فى الدرجة يحاول أن يقلده فى محامده . والله أعلم

العرب والطليان

٤٥

وصل العرب الى بلاد الأمة التى هى وارثة الرومان منذ القدم أوائل عهد فتح أفريقية وما برح العرب يطمعون فى فتح جزيرة صقلية (١) لقربها من الشاطىء

(١) وصف ابن جبير الاندلسي فى عودته من الشرق ماقاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يغرقون وقال

المقابل لافريقية حتى تم لاسد ابن الفرات فتحها سنة ٢١٢ هـ . قال المؤرخون

ان قد وقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صقلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن العجب ان هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لان أصحاب الزواريق أغلوا الناس في تخليصهم فسأل عنهم فاعلم بقصتهم فأمرهم بمائة رباعي من سكته ينزلون بها وخلص جميع المسلمين عن سلام . ووصف مدينة مسينة فقال ان أسواقها نافقة حفيلة وأرزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة لا تزال بها ليلك ونهارك في أمان وان كنت غريب الوجه واليد واللسان وقال ان مرساها أعجب عجيب لان المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسه وتنصب فيها الى البر خشبة يتصرف عليها . ووصف مدينة برية ووصف بلارمة قاعدة جزيرة صقلية وما فيها من المساجد وسرقوسة . وقال ان شأن ملك صقلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لخالته متمسك بشريعة الاسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى أن الناظر في مطبخه من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم الا من له الماشية والخيول والاتباع قال وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جدا وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وادر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه وسنه نحو الثلاثين سنة ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لانعمه وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن . ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فتيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الافرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ولهن في فعل الخير أمور عجيبة واعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة ذعر لها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع الا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به تسكينا لهم واما فتيانه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم الا من يصوم الاشهر تطوعا وتأجراً ويتصدق تقربا الى الله وتزلفاً ويفتك الاسرى ويربي الاصاغر منهم ويزوجهم ويحسن اليهم ويفعل الخير ما استطاع .

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من جزيرة صقلية فقال في ثرمة سرنا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسوننا فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل . وكانوا يكلمونه بالعربية وقال ان زي النصرانيات في مدينة صقلية زي نساء المسلمين فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في العيد وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة والتقين بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الادبية قول الشاعر

ان من يدخل الكنيسة يوما يلق فيها جآزراً وظباء

ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ويؤدي الى أباطيل اللهو ونعوذ به من تقييد يؤدي الى تفنيد انه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة اهـ

كان ابتداء حصار بلرم عاصمة صقلية فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام الى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالامان وفى سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرصه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب ومرنا وغير ذلك

وهذه القلاع مازال بعضها الى اليوم أسماء مدن تبدأ بلفظة « قلتا » أي قلعة فيقولون قلتا جيرونة وقلتا بلونة وقلتا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت أسماؤها كما بقيت أسماء كثيرة عربية فى لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلا « منديللو » للمنديل وغير ذلك مما يشهد بأن العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفاً وأثرت فى أهلها مدنيتهم ولسانهم وعاداتهم كما هى عادتهم فى كل ماملكوه

راجت حضارة العرب زمناً فى صقلية ومنها تسربت الى البلاد المجاورة فكان يرشح منها شيء كثير الى الأقرب فالأقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت أيضاً فى جزيرة قورسقة وأهلها يتكلمون بالايطالية أيضاً وهم اليوم تحت حكم فرنسا . وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة « المقتبس م ٧ ص ٦١٩ » وكانوا يغزون شطوط اسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك اذا دخلت كلمات عربية كثيرة فى لغات الفرنسيس والطليان والاسبان والبرتقال

ومن يعلم ان تلك الجزائر مما ارتفع عليه علم الاسلام وان اقريطش (كريت) وقبرص ورودس ومالطة كان حظها كذلك يعرف أن العرب كانوا رجالا فى البحر كما هم رجال فى البر وانه لاسبيل الى الامن من الداخل اذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والموانى والفرض ولطالما كانت الحكومات تمتلك الساحل فلا تلبث أن تبسط سلطانها على الداخل .

كان الادارسة حكام تونس هم المتكلفين بغزو جزيرتى سردانيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب أخذوا على عهدتهم غزو منورقة

وميورقة فاستولوا عليهما وعامل العرب الايطاليين والاسبانيين بالحسنى على نحو ما يأمر به دينهم ولما رأى الايطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا أن يغيروا شيئاً من مصطلحاتهم حتى ان الملك رجار الذى عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربيـة وهو الذى أفضل كثيراً على الشريف الادريسى الجغرافى الذى وضع كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الافرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التى أهداها أمير المؤمنين الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا .

قال الادريسى فى رجار هو الملك المعظم رجار المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وايطالية وانكبردة وقلورية أمام رومية الناصر للملة الناصرية اذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً

ولقد كان أهل الشرق على صعوبة ركوب البحر فى أيامهم يرحلون الى بلاد ايطاليا كما يرحلون الى الاندلس فيكتبون عليها فى رحلاتهم ماتقع عليه أنظارهم وممن زار بعض ايطاليا الجغرافى ابن حوقل فقد قال ان مدينة ملف « ويقال لها الآن ملفى » تتصل بأرض نابل وهى مدينة صالحة بحال دون ملف فى كثير من الأحوال وأكثر أموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال انه رأى بها ثيابا لم ير فى سائر أقطار الأرض لها شبهاً ولا يستطيعها صانع فى جميع طرز الارض وهو ثوب يعمل مائة ذراع فى خمسة عشر الى عشرة ويباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعى وزائد وناقص .

ووصف ابن حوقل صقلية فقال ان طولها سبعة أيام فى أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون وجميع أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم وهى قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهى خمس جادات محدودة غير متباينة ببعيد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينـة الكبرى التى تسمى بلرم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم وفيـه هيكل عظيم

ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور أيضاًمن حجارة وليس كالسور الأول يسكنها السلطان وأتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان

وبعد أن وصف أسواقها وباعتها استطرد الى كثرة مساجدها وقال ان فيها نيفاً وثلاثمائة مسجد وفى قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم أر مثل هذه العدة فى بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق قال وسألت عن ذلك فقيل لى ان القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لايحب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته وربما كان اخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التى ذكرتها مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لاغير . قال وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالبطالين والفساق ووصف أبواب بلرمة التسعة وقال ان هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقيها الى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة .

ووصف الشريف الادريسى جزيرة سردانيـة فقال انها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلا وعرضها من المغرب الى المشرق مائة وثمانون ميلا وطولها ماراً من الجنوب الى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن منها الفيطنة وهى مما يلى جنوبها وهى مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمرة وهى رأس المجاز الى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشتالة وأهل جزيرة سردانية فى الاصل روم أفارقة متبربرون متوحشون من أجناس الروم وهم أهل نجدة وحرم لايفارقون السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة ومنها تخرج الفضة الى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلا

ثم وصف جزيرة قرسقة وجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرة وشكلة وبنت برة ومونسة وبونسة واسترنجو وجزيرة البركان وليبر ودندمة وفيكوذة واركوذة واشتقة وجزيرة الراهب واليابسة وغيرها وقال فى وصف مدينة بلرم : وبها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بنائها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهى على قسمين قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد وأقليم وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة فالسماط الاول يشتمل على قصور منيفة ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية

وذكر القزوينى فى عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مدينة رومية فقال انها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهى فى شمالى غربى القسطنطينية وبينهما مسيرة خمسين يوما وهى فى يد الفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذى تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الامام الذى يكون واجب الطاعة ومدينة رومية من عجائب الدنيا لعظم عمارتها وكثرة خلقها ذكر الوليد بن مسلم الدمشقى ان استدارة رومية أربعون ميلا فى كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب الأول يرى سوق البياطرة ثم يصعد درجا فيرى سوق الصيارفة والبزازين وذكر ان بين يدى السوق سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعا وبين هذه الاعمدة نقير من نحاس فى طول السوق من أوله الى آخره فيه لسان من البحر تجرى فيه السفن تجيء السفينة فى هذه النقرة وفيه الامتعة حتى تجتاز على السوق بين يدى التجار فتقف على تاجر تاجر فتختار منها ماتريد ثم ترجع الى البحر.

وذكر أشياء عجيبة عن كنيستها وقال ان فيها عشرة آلاف دير للرجال والنساء وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم والحكمة والهندسة وغير ذلك قالوا انها مائة وعشرون موضعا قال وقد مثل فى الكنيسة صورة كل نبى بعث من وقت آدم الى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليها السلام كأن الناظر اليهم يحسبهم أحياء وحكى أن أهل رومية يحلقون لحاهم ووسط هاماتهم فسئلوا

عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم الى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلما ظهر لهم صدق قولهم ندموا على مافعلوا وحلقوا لحى أنفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك

وممن رحل الى ايطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضى القضاة بحماة وكان اماماً مبرزاً بالعلوم العقلية عارفاً بالمنطق والهندسة والاصول والفقه والهيئة والتاريخ توفى سنة ٦٩٧ ذهب هذا رسولا الى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحي وذكر أنه أقام عنه وفى مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالاندلس من مدينة أنبولية واجتمع به مراراً ووجده متميزاً ومحباً للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس قال وبالقرب من البلد الذى كنت فيه مدينة تسمى لوحارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الاسلام

وفى هذا القرن كان الايطاليون هم رجال التجارة والاساطيل فى البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من أقليم طوسكانيا تجارات واسعة فى الشام وقال ياقوت أن السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزة وجنوة والبندقية هى أكثر البلاد الايطالية في القديم والحديث اختلاطا بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية أمم أوربا غائصة فى مفاوز الجهالة

نشر المستشرق ميشيل اماري فى مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (بيزة) وفلورنته (فلورنسة) أو أفلورنسا وبين ملوك المسلمين فى تونس والغرب الاقصى ومنها عقد من الملك قايتباى للفلورنتيين ذكر فى شروط البنادقة أن تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة اصنافاً من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسعمائة هجرية وأولها فى منتصف القرن السادس

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على أتمه بين الامتين ولا سيما عندما تضع الحرب أوزارها وكثيرا ما كان رسل ملوك

الاسلام يأتون ايطاليا فقد ذكروا أن ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولا من قبل صاحب تونس وصوره الطليان اذ ذاك على الحجر وجاءها فى القرن الحادى عشر الأمير فخر الدين المعنى صاحب لبنان وأقام بها عدة سنين ملتجئاً ووصف عمرانها بالضخامة وتفنن أهلها فى النقش وارسم والبناء

ولا يتسع المجال هنا الى ذكر كل من زاروا ايطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا الى هذا العصر . ولقد كانت اللغة الايطالية فى مصر والشام معروفة أكثر من الافرنسية والانكليزية الى منتصف القرن الماضى ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون الى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم أكثر من أن يحصوا وفى مقدمتهم السمعانى اللبنانى المشهور واللبنانيون الموارنة على مايظهر أشد الكاثوليك رغبة فى المهاجرة الى رومية وتاريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك

لذائذ الغربيين

٤٦

قرأت فى الصحف البارزية أن أمبراطور المانيا منع ضباط مملكته من رقص *« التانغو » « وألوان ستب » فى الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الانكليز* وهما رقصتان قيل انهما من أصل أميركى فى أقصى ما يكون من الخلاعة خلافا للرقص الذى اعتاده الاوربيون فى حفلاتهم الراقصة خاصة كانت أو عامة

ولعل الآن بعضهم يقول وأنت الآن تحدثنا عن الرقص وأمامك محيط أوربا وكله مما يستملى القرائح مهما كانت كليلة للكتابة والتأمل . نعم أن البحث فى الرقص هو مما يجب البحث فيه أيضا لشرق يبحث فى مدنية الغربيين

اننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادى ننكر الرقص

ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه . يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لاتكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأةالاويعتادون الرقص على أنواعه من غير نكير اللهم الا رقص التانغو وألوان ستب فان العقلاء أنكروه لانه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عما وضع له

والرقص (١) فى الغالب يكون على ايقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما أشفع بغناء .فالرقص والموسيقى والغناء هى من المستحبات وربما تجوزنا وقلنا من الواجبات فى بلاد الغرب لايعد الفتى ولا الفتاة من أهل الظرف بدون الاخذ بحظ وافر منها فكأن الغربيين رجعوا فى مدنيتهم الى الفطرة الاولى وذلك لانا نرى سكان البوادى فى الشرق أيضا يرقصون ويغنون ويضربون بطبل أو ينفخون بمزمار. أمور يأتونها على الفطرة وعلى حالة أولية ولكنها على كل حال تدل على أن سكان غير المدن فى شرقنا أقرب الى الفطرة من المتحضرين

كانت الطبقة العالية من رجالنا أيام رقى العرب فى الاندلس ومصر والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التى تأصلت فيها الحضارة لاتستنكف من الضرب بالعود أو غيره من أدوات الطرب أو ترفع أصواتها بالغناء ولا من ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ماتستعيده الامة الناهضة وأول ماتفقده المنحطة وما الغناء والموسيقى الا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء والموسيقى فى أمة دليل ارتقائها فهما محركان عظيمان لارواح أبنائها ومهمازان قويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يصرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب .

(١) قال طاش كبرى فى مفتاح السعادة : علم الرقص وهو علم باحث عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التى يرغب فيها أصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجرى مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ويعلمونها الغلمان الحسان والجوارى الفائقات ليلتذ السمع والبصر معا بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور وأهل الهند ماهرون فى أنواع الرقص ولهم فيها يد طولى الاأن هذا العلم محرم فى شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اه

تصدر هذه المجالة من بلاد هى مهد الرقص والغناء والموسيقى ، من أرض أين اتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنى، من بلد قام فيها من الموسيقيين القدماء أمثال روسينى وبلليني ودونيزيتي ومن المحدثين أمثال فردى وبوتنشيني وماسكانيه وليون كافاللو ومن المغنين فى المحدثين بونشى وماركونى وكاروسو وديللوكا وباتستينى وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن أعظمت الأمة منزلتهم واحلتهم فى منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها

وكل مانراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب « النوتة » بادوار وتقاطيع مخصوصة وهو مالم يتم حتى الآن عند العرب اللهم الا الموسيقى الوترية فى مصر ولما يعم استعمالها فاذا أصبحت موسيقانا وغنانا ضمن دائرة القانون يكون قد وضع الحجر الأول فى أساس نهضة هذه الفنون الجميلة فى شرقنا العربى على نحو ماجرى عليه سكان الاستانة وأفلحوا فيه من تقليد الاوربيين فى موسيقاهم وغنائهم .

الموسيقى والغناء هما مثال من حالة النفس ومن لا يريد أن تكون نفسه شفافة براقة حساسة ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الأمة الأخرى وتعده منكراً ولكنه يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الاسكندرى من سياح القرون الوسطى فى وصف أهل شلشويق (أى أهل شلزويك هولستاين في شمال ألمانيا) وقال ان لهم نوعا من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذى يقوله اليوم أيضا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناءه ومراميهما

اللذائذ الثلاث هما من أول ماتدور عليها الحياة الغربية اليوم ولا تضر بالوقار بل تعد من أدوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذى فى الموسيقى والغناء حذو الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت أو الاصحاب آونة الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء أنفع ألف مرة من لغو الحديث وانتقاص بعضهم بعضا والحط من اقدار أنفسهم والسلام

نهضة ايطاليا

ايطاليا القديمة

٤٧

كنت أحب أن أسطر قبل الآن ما أعرفه وعرفته عن النهضة الايطالية الا أني انتظرت ريثما قضيت شهراً فى هذه الشبه الجزيرة ورأيتها اجمالا من جنوبها الى شمالها .

وقد اعتمدت فيما أكتب على من وقعت لى معهم صلة تعارف من خاصة الطليان أو ماقرأته بأقلام الطليان بالافرنسية أو ما كتبه الفرنسيس عن الطليان وهو وان لم يكن مجموعا صحيحاً من كل الوجوه لكنه أقرب الى الصحة من كثير من الاحكام التى يصدرها صاحبها عفو القريحة بادىء الرأى

وكنت أود لو سمح لي الزمان بتعلم مبادىء من لغة الطليان الرقيقة لاخاطب العامة كما أخاطب الخاصة بلغتهم نفسها واسمع تصوراتهم وألقى عليهم الأسئلة وأدرس أحوالهم بالنفس ولكن المدة التى قضيتها لا تكفى لأن يتعلم المرء القدر الكافي للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جداً من الافرنسية ولولا الخوف من علماء أصول اللغات لقلت أن الايطالية تحريف الافرنسية أو هذه تحريف تلك

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة الى ايطاليا ان مسألة اللغة من أهم المعضلات الاجتماعية التى يصعب حلها الا بأن يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وان العامة أيضا لاغنية لهم عن تعلم ولو مبادىء طفيفة من لغة راقية منتشرة وان من كان يبيع منا أفكاره الصائبة بأن الموظف يستطيع أن يحكم فى بلد لايفهم لغة أهله وان التاجر يستطيع بواسطة الترجمان ان ينفق سلعة ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن أفكاره أرقي من أنه اذ لم يستند فيها الى تجارب ولا الى تاريخ واجتماع .

وها نحن نتكلم على نهضة ايطاليا فنقول : قضى مركز ايطاليا الجغرافى أن تكون فى الأزمنة القديمة مركزاً عظيما من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الاول وأخذوا يدوخون الأمم والشعوب لسلطانهم . ولما وضع الشعب اللاتينى أول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن أكبر أنهر ايطاليا أصبحت رومية مطمح الانظار وصار هـذا الجسر الذى كان بناؤه أقرب الى الفطرة مما يستهوى قلوب شعوب الشمال للاغارة عليه لان منه يخلص المرء الى ساحل البحر المتوسط على أيسر سبيل . ولما دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الأتر وسكيين واليونان أصبح مقدساً ومن ملكه كان هو الزعيم بلا مدافع .

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب أساسية للمرء والمجتمع وهى ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الأدبيـة والصعود الى الحياة العقلية بمعنى أن المرء يعيش ويحب ويعرف وأن يكون في المجتمع قانون ودين وعلم .

قارب الرومان القدماء هـذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت أتم عنـدهم لانهم محاطون باعداء ان لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لامحالة . وكانت الحياة العقلية فى كثير من أدهارهم تامة بالنسبة لتلك الأيام ونظام الأسرة ثابت الدعائم وحب الجندية مغروسا فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية فى السادسة عشرة ليعفى منها في السادسة والأربعين وعلى قلة عدد السكان اذذاك وهو كما قال المؤرخون (١٥٠) ألف نسمة في رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون فى أرض ذرعها ٤٥٠ ميلا مربعاً كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين الى أربعين ألف نسمة يخرجون به من فتح الى فتح .

وكان الرومان اذا فتحوا بلاداً يقبلون فى الحال مايتراءى لهم حسنا من عادات أهلها وصناعاتهم وأسلحتهم وهذا سر وضع القانون الرومانى الذى هو ابن الاوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة ألف فى قرون وتعاورته الايدى بالشرح والتذييل والانتقاص حتى أصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الانسانية التى لاتتغير . وكانت تلك الحروب الرومانية من مجددات حياتها وحماستها الوطنية حتى

لقد قال ليكورك الخطيب اللاتيني ليس أحسن عاملا من الحرب في تقوية الشعب لأنها تعلمه احتقار الاخطار والاخلاص لسلامة غيره ولاسرته ووطنه

ولما تخلص الرومان من السيزيليين كاد القرطاجنيون أن يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت روميــة مجد قرطاجنة التي سقطت بعد الحروب البونيكية وقضت رومية على أنيبال القرطاجي الذى جاء وهددها فيعقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير من أقطار آسيا ومنها الشام من أكبر دواعى قوتهم فجلبوا به ثروة وأعلاقاً نفيسة وكان من أكبر المشوقات للعسكر الذى أخـذت رومية تستخدمه بالاجرة ان كان يعطى له شيء من الانفال والغنائم لا كما كان في القديم يستأثر بها الزعيم أو رب الأسرة .

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولايةرومانية أخذتعنها الذوق فى الفنون الجميـلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآتينة أثراً من آثار الهنـدسة والنقش والجواهر كانت تتربي أذواقهم ولميكتفوا بالآثار بل جلبوا معهامؤثريها من مثل الخطباء والسفسطائيين من الحكماء فأصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب « الفوروم » المشهور الباقية الى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتناقشون وأخذوا يبعثون بفتيانهم الى اثينة يتعلمون على حكماء الوقت اذ ذاك ماينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الاتينيين الى رومية وأنشاؤا يعلمون كل طالب وبلغت هـذه النهضة أشدها على عهد الامبراطور أغسطوس وسقطت بعده بقليل شأن أكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم أو أمير أوبضعة حكام ثم يتناسى الأمرويزهد فيه .

جاءت أزمانأدخلفيها اليونان على الرومانأموراً أضعفت من سلطة الوالدعلى أولاده وتركت الحياةالجندية وأخذت الشبه والشكوك تسرى الى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرفاهيــة فكان بذلك انهيار ذاك البناء وخراب العالم الروماني فقضى على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت فى النفوس آثار الوثنيةوأخذ الاضطراب يدخـل فى نظام تلك الحضارة ويبعثرها وكثر الانتحار واليأس من

الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس فى الطبقة الممتازة والاغنياء الى البائسين والخدمة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على انقاض المدنية الرومانية وكان لها من النساء أكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاء لهم وسلوى . والدين وازع قوى في الدنيا والآخرة .

اضطهد القائمون بالدعوة الدينية أيضاً وقام أمثال نيرون يظلم ولا يبقى على أحد وبينما كان يحرق المتنصرين أحياء ليضيء بهم حدائق الفاتيكان كنت ترى أولئك المتنصرين يذهبون الى الحرق باسمين لاعتقادهم بأن فى العالم الآخر حياة سامية لايخيب من قضى فى سبيلها . وكلما كانت الشدة تنال أولئك المضطهدين كنت ترى أشياعهم يكثرون .

وكان النزاع بين الامبراطورية الرومانية والدين المسيحي من أعظم ماذكره التاريخ حتى دان الامبراطور قسطنطين بالدين الجديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البلاد خصوصاً والدين أخذ يوافق ميول المتدينين به وحاجاتهم

توطد أمر ايطاليا بعد ذلك وأخذت تقطع أشواطاً فى سبيل جمع شملها وتتناسى ما نالها في سبيل انتشار النصرانية التى عمت ايطاليا وبينما الامر على ذلك كان برابرة الشمال يتجمعون ليغزوا ايطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة يدفعهم فجاؤا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يلبثوا ان دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة اليه فى القاصية بيدانهم لنقص فيهم حرفوا ماتلقنوه ولم يعملوا بتعاليمه فأتوا مظالم كثيرة حتى اضطر البابوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا الى القوة علماً منهم بأن سلطان الروح لا يؤثر كثيراً ان لم يكن وراءه سلطان القوة .

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصاً على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصا عليه ثم كثرت البدع والالحاد

وقاومها البابوات بالشدة وان جاء من هؤلاء أنفسهم من لم تحمد سيرتهم أحياناً ولقد كانت ايطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين البابوية والامبراطورية فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة فى الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية على الشرق وكان الدافع اليها دينياً ثم انتهت بالماديات وبعد سنة ألف للمسيح حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربى وكانت الدواعى الى الحماسة الدينية حب الظهور والاتيان بالغرائب ولا سيما فى نفوس العامة والزعماء من الامراء ولكن حرب المسلمين قرنين لاستعادة الارض المقدسة لم ينتج منه الا أن جمهوريات ايطاليا أصبح لها مكاتب تجارية على شواطيء البحر المتوسط وباختلاط ايطاليا بل أوروبا بالمدنية الشرقية البديعة عاد الى الغرب شيء من الحياة أصيبت به الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية فى ايطاليا أثر تقاليد اليونان المغلوبين على أمرهم فى مدينة رومية .

ايطاليا فى القرون الوسطى

٤٨

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما الى ان تحكم العالم فالاول على عهد عظمة قياصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثانى على عهد التحمس الدينى وبلوغ سلطة البابوات حدها وكان من أثر الحروب الصليبية ورؤية القوم للفنون القديمة البزنطية والمغربية اذ تمت لهم مقدمات النهضة الاولى . ثم أن المقاطعات تحررت من سلطة من كانوا يرهقونها من أمرها عسراً فأخذت تتنافس فى اقامة الابراج وتحب كل منها أن تكون كنيستها أوسع وأكثر بهجة وأغنى وخطيبها أفصح ومتفننها أشهر . وأنشأت تبحث عن الرجل الذى يكون أقدر من غيره على التغني بأمجادها فى أشعاره وتعظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش والرسم وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس

الكاندرائية فى كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الارض الى الاجواء

وانتشر فى جميع شبه جزيرة ايطاليا ميل حقيقى للجمال فحدث منه ازدهار الفنون التى لم تزل تبهرنا الى اليوم فكان هذا العهد مناسباً لتكوين أعاظم الرجال ليستطيعوا أن يحدثوا أعمالا غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس تومادي آكيك والقديس فرانسوا داسيز فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر أثر يذكر فى السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الايطالية الاولى متشبعة بالفكر الديني الا أنها كانت تحوى فى مطاويها بذوراً أنبتت بعد النهضة الثانية .

وقام على الاثر الشاعر دانتى الايطالى واضع أساس اللغة الايطالية الحديثة وأخذ ينادى فى شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية . ينطق فى ذلك بلسان طبقة كبيرة فى عصره فلم يكد يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الاثر أرباب الافكار الحديثة ممن أخذوا ينزعون ربقة الدين بل ينحون عن جوهره . وكان فى هذا القرن أيضاً أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حباً بالمجد والشرف والمال خصوصاً وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس اذ ذاك تغدق الهبات على أرباب تلك الصنائع . حتى لقد قيل أن رافايل المصور رفض أن يكون بابا وآثر العمل بالتصوير . وهذا العصر يسمونه بعصر ليون العاشر الذى كان من أكرم الباباوات وأكثرهم علماً وعصره كعصر أغسطس قام فيه أرباب الافكار الحديثة وأخذوا يشيرون من طرف خفى بتحكيم العقل فى المسائل فأصبح أهل العلم والادب مرغوباً فيهم أكثر مما يرغب فى الامراء وساعدهم اختراع الطباعة اذ ذاك فأخذوا يبثون أفكارهم فى روح القوم على صور مختلفة حتى غدا أمثال بوج وفيللف وأرتين الحاكين المتحكمين بالافكار فى عصرهم يصرفونها كما يشاؤن .

فى ذاك العهد أيضاً نشأ للطليان أمثال المؤلف لورانزو فالا نخدم الآداب والتاريخ والخطابة والفلسفة خدما تذكر له على الدهر ومثله جيور دانوبرونو الذى

أحرق لافكاره الفاسفية وكان عالما كاتباً مؤثراً دينياً كانت الافكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ومنشاؤها من بيع الغفرانات واستئثار البابوات بالساطة المركزية يريدون أن يتم كل شىء فى رومية فى الامور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن ينزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوى والفلاسفة والادباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلما كان المجتمع يدخل فى طور الكمال كانت الحالة تستدعى تقسيما أكبر فى العمل وتوجيه المناحى وجهاتها حتى ان أكثر من واحد من المتدينين جداً قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شؤون وشجون انفصلت ألمانيا وانكلترا عن رومية .

كان العلم فى أواخر القرن السادس عشر قليلا وقام أمثال غاليله الذى قال بدوران الشمس حول الارض فأوذى لما نادى بآرائه العلمية وان التجربة هى الشرط الضرورى فى تحقيق المسائل العلمية وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الاسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها وأخذ ماكيافيل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها في كتبه السياسية وكما كان الشاعر دانتى يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليله يثبت بأن العالم العلمى يجب أن يكون منفصلا ومستقلا عن الاعتقاد الدينى وهكذا لم يبرح غاليله يؤكد مع شدة احترامه للدين أن العلم والدين أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط . ويرى أن الكنيسة هى الحاكمة فى المسائل الدينية وليس لها أدنى سلطة فى المسائل العلمية وينبغى لها أن تحاذر من الحكم فى مسائل هى غريبة عنها تماماً .

رأت الكنيسة بعد عصر دانتى أن تحافظ على كيانها السياسى بالقوة وأرادت بعد غاليله أن تحافظ على كيانها العلمى بالتعليم خصوصا بعد ان شاهدت النتائج التى تمت على ايدى اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين واتحدت الكنيسة مع الامراء وأخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وامن الناس واغتبطوا ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الاصلاح الدينى بقيام لوثيروس

ونزع ألمانياوانكلترا يدها من الكنيسة الكاثوليكية ان الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التى ظلت كاثوليكية على اختلاف فى عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لأن التعليم كان محدوداً عند هؤلاء الشعوب ومقصوراً على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبداً يرغب فيها فقلت فى هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرفاه المادى كان مضمونا لأهل ايطاليا بما أنشىء فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التثبت والتراجع .

وعلى عهد مثل هذه الادارة ينزل ميزان العقل من كل وجه فقد أمست الصناعات والآداب والعلوم لاترتقى الا ببطء حتى أن الشاعر كيودى المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضاً بالجفاء البربرى الذي كان يشاهد من خلال أعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون الا بفتح العالم

ومن حسن الحظ أن ايطاليا لم تعدم في ذاك الدور أناساً ينهضون هنا وهناك يثيرون العواطف وينادون قومهم بأن ماهم فيه باطل لابد له من التجديد وأن هذا العالم ليس عالم الأموات . فقام بيترومبكا بالدفاع عن تورينو وقام فيليكايا يتغنى بأغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الأمير أوجين دى سافوا يحمل أمجاد الحرب والسياسة الى القاصية وأخذ بيكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم بأعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها ماأمكن .

ايطاليا فى القرون الحديثة

٢٩

بينا كانت ايطاليا غارقة فى هذا السبات كانت أفكار غاليله قد وصلت الى انكلترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت الى ايطاليا منعكسة من طريق فرنسا

فى كتابات الفيلسوف ديرو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف (سنة ١٧٥١ ـ ١٧٧٢) فأحدث حركة فى أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من الفرنسيس آملين أن يروا منها سلاحا يحاربون به رجال الكهنوت والاشراف أما العامة فقد استعملوها واسطة للارهاب وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها فى التخريب وذلك لان فرنسا كانت مستعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ماتكون ثم ان صلاتها مع الشعوب البرتستانتية كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها فكانت ألفاظ « الحرية » « والمساواة » « والأخاء » تؤثر فى السواد الأعظم من القوم فتدفعهم الا الأعمال الخارقة فى باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيس بفتح شبه جزيرة ايطاليا سنة ١٧٩٦ كانت حالة الافكار فى فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها فى ايطاليا ففى الأولى مضاء واعتماد على النفس وفى الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الامراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنساوية على صورة بشعة بل ربما ركبوا عار الفرار قبل أن تحتل بلدهم فلما استحكمت سلطة الفرنسيس فى ايطاليا قلبوا كثيراً من أوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنساوي وألغوا امتيازات رجال الدين والاشراف بيد ان ماحدث من الاحتلال الفرنساوي لايطاليا فى أوائل القرن التاسع عشر قد نبهها من سباتها العميق وحدابها أن تعقد مع سائر أوروبا الممدنة علائق ولم يفهم العامة من الطليان مايراد بهم فكانوا يساقون كالانعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الاعمال بعثت هممها حالة الفرنسيس فأخذت تدرك امكان اعادة الوطن وتأليف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الأمنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى أثمر جهاد أرباب الافكار تأليف الوحدة الايطالية الحديثة وحدة قوامها المساواة أمام القانون ومنح الحرية السياسية .

أعاد رجال السياسة في مؤتمر فينا خريطة أوروبا الى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد البابوات والملوك والدوجات والامراء الى سابق أمجادهم تحميهم

الحراب الأجنبية ولكن استحال الرجوع الى الحالة الأصلية لأن رجال الشعور الخارق للعادة ومن تؤهلهم الجاذبيـة العقلية الشديدةالى أن يتحرروا بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا فى وجهة الافكار وجددوا ميدان آمالهـم فكان الشعراء وأساتذة الكليات والقسس والاشراف المتعلمون فى مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثيرالحوادث وما تم لفرنسا من المجدقد أفهمهم معنى الجمال الذى ينطوى فى مدارج القوة . وتراجع الايمان بالحق الآلهي وعادت الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت مقعد الكنيسة الرومانيةضربةقاسية وتحمس الأذكياء وأرباب القلوب لفكرة أن وطنهم سيستعيد بهاءه ويعودعظيما جميلاً فأخذوا يعملون بمضاء وحماسة تدعو كل من اطلع على أعمالهم أن يمجدهم ويحترمهم وكثر تجدد طبقات من الشعراء أخذت على عاتقها أن تنبه بلسان الشعر وألحانه الرخيمة شعباً متناوماً منـذ قرون فتناول الشاعر جيوشى سوط الهجاء الذى سقط من يدباريني وأخـذ يضرب به وتحمس الشعراء بلليكوا ومازوني ونيكوليني حماسـة الغيرى المفجعة . وساعدت قصائد فوسكولو وأغانى برشت الوطنية على هذا النشور .

بيد ان الدعوة الأدبية لاتستطيع أن تعمل الا فى الافكار المستنيرة ولو قليلا فأخذ الاشراف والطبقة الوسطى من الأحرار يدركون ضرورة نشرهذه الحركة بين العامة فأنشأوا يدخلون التعليم الى القرى وكان تكثير سوادالقائلين بفكر التجدد وضم الشمل فى المدن قدتسهلت أسبابه بارتقاءمستوى العقل فى الشعب واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة ، ولطالما أعار بعض الكتبيين مؤخرة حوانيتهم لعقد الاجتماعات يتهامس فيها المتهامسون بأفكارهم وآمالهم وأحلامهم فى المستقبل ونهضة البلاد .

ثلاثة عوامل أعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها : قدماء الضباط والموظفين على عهد نابليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة . ومعظمهم كانوا دخـلوا فى الجمعية الماسونية فتعلموا فيها أساليب الاجتماع ، وجمع الشمل

وحب النظام ، وبالنظر لحالة البلاد اذ ذاك لم يتأت ان تنعش من سقطتها الا بجمعية سرية وذلك لما عرا الأخلاق من الانحلال والضعف ولقلة عدد ارباب الشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من أجل ذلك فى البلاد كلها ؛ وكان أشياعها كثاراً أولا فى الكليات ودخل فيها أبناء الطبقة الوسطى وكثير من أبناء الاسر الكبرى وجماع الاسرائيليين ؛ وكان أكثر الداخلين مدفوعين الى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون الى جمع شمل الوطن .

كان للاسرائيليين فى هذه الحركة الكعب المعلى فانهم وان كانوا فى ايطاليا أقل حيفاً من حيث ماديأتهم خلافا لما كانوا عليه فى سائر أوربا لكنهم كانوا خاضعين لقانون يحرمهم من الوصول الى المناصب التى يؤهلهم اليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل ، ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم ، فكانوا محتقرين وسذجا فى الصورة الظاهرة ويتذكرون أحياناً شيأً من الخير نالهم ولكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على ثباتهم وحسابهم للعواقب قد أصبحوا متضامنين بدواعى مقاومتهم للعدو المشترك يكتمون أمرهم ويسرون ما يجول في قلوبهم وهم قد أثروا اثراء مهما فكانت منهم قوة لا تعادلها قوة لمقاومة نظام سياسى تكرهه نفوسهم .

فلم يكونوا يعتقدون ان فى وحدة ايطاليا قلب الأوضاع التي طالما قاسوا منها الامرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من انكلترا المسيحية فى رومية الباباوات ولذا يمكن أن يقال فى ذاك العهد ان جميع الماسون في ايطاليا ان لم يكونوا كلهم اسرائيليين فان جميع الاسرائيليين كانوا ماسونا واذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التي تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الاسرائيليين ما عدا بعض الشواذ مالية أكثر منها شخصية وعظمت معاونتهم المالية في هذا السبيل حتى ان الحكومة الموقتة فى ميلان بالنظر لما ادره عليها الاسرائيليون من المال بعد مغادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على اعانتهم الكريمة في سبيل الحرية .

وما كان القسيسون غرباء عن هـذه الحركة فان أول من صاح « ايطاليا واحدة وحرة » كان قساً فمات فى هذا السبيل وآخر من قضى فى هذا المقصد هو قسيس أيضاً كان فى صحابة اسرائيلى ، وكان هذاشأن جميع المستنيرين من عامة طبقات ايطاليا يريدون أن يحيوا وطنهم ولا يبقوه أرض الاموات ؛ وماصادفته هذه الدعوة من العواطف في طبقة رجال الدين لا يعجب منها اذا علم أن البابا بيوس السابع كتب الى الكونت بورو بمناسبة أعضاء جمعية الكاربونارى الثورية « انهم يحبون ايطاليا وانا أحبها مثلهم » وكذلك كان الأشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم فى الحكومة وأقصاهم الملوك عن قربهم فانهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة .

قلنا الكاربونارى وهى جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية وأعضاؤها من الجند والضباط على عهد نابليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية فى مملكة نابولى أولا ثم فى معظم أمارات ايطاليا ، ولكن قلة عدد اعضائها وفقدان المرددين لأعمالها غادرت حركاتها قاصرة . ولما قام مازينى الكاتب الذى كان يؤثر لانه كان متأثرا يرمى الى انهاض ايطاليا وجد أنصاراً واعوانا وان كان العيب الوحيد انه كان يتعجل قطف الثمرة قبل نضوجها ، ويضيق المجال اذا اردنا احصاء من دعوا الى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيوبرتي الذي اغضب الكنيسة بعمله ، فقضى آخر ايام حياته شريدا فى باريز لانه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والاخلاق

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمد اخرى فيظن ان البلاد عادت الى حالتها من الامن والطمأنينة ، ثم لا تلبث فوهة البركان ان تقذف حممها ، وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية وأخذت تهتز أعصاب أوربا فتحركت ايطاليا من أقصاها الى أقصاها كأنها متأثرة بمجرى كهربائى فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الألب الى صقلية أى من الشمال الى الجنوب وظهر ان الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وان شئت فقل

انه كان أكثر من غيره وتنازل الأمراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون أولا طرد النمساويين من البلاد التى كانوا احتلوها

ولقد تمثلت الثورة العامة فى سنة ١٨٤٨ فى جميع الطبقة الوسطى لمناهضة السلطة المطلقة فصادفت أولا عطفاً من البابا وغيره فلما تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة وأعيدت البلاد الى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفر وله نظام بزعامة الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثانى وما كانت المهمة التى انتدب اليها هذا الملك بالأمر السهل بل كانت تحتاج الى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل أحرار الطليان وتهدئة خواطر الكاثوليك وهم كثار متحمسون في أقليم البيمون واقناع أوربا التى لا تصدق أوهى معادية لهذا الفكر واتخاذ أنصار من حكومات أوربا ليفتوا فى عضد العدو العظيم . كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهى مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من أحرج المراكز ولحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي تهيأ له هو « كافور »

قام هذا السياسى العظيم وعرف بما خص به من حسن الانتفاع أن يستخدم أمثال غاريبالدي ومازينى للمقصد الذي يرمى اليه فى حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية . ومن دهاء هذا الرجل انه بعث من أقليم البيمون جنداً الى حرب القريم يعاون الدول الأوربية التى عاونت الدولة العلية اذ ذاك فعد العالم عمله خرقاً في الرأي على أمة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المناداة هيأت لا يطاليا بل لمملكة البيمون مركزاً بين الدول وصار لها الحق أن تبعث بمن يمثلها في مؤتمر باريز . ولا عجب فالأعمال بمقاصدها ونتائجها أتم هذا النابغة كل ما كان يظن انه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال ايطاليا لولا قيام هذا الرجل . وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التى اندمجت فى جمعية « جيوفانى ايطاليا » لأن عملها لم يؤد الا الى فظائع فقام كافور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أسرة سافوا محط رحال

الآمال وساعد أن كان الأمبراطور نابوليون الثالث الفرنساوي من أعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر الى مساعدة ايطاليا ولما أيقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاضدة الجيش الفرنساوي نهض بالعمل بصورة أفخم وأعظم وأعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عند ما وقع على اعلان الحرب اني سأكون بعد عشرة أشهر ملك ايطاليا أو المسيو سافوا .

ظفرت الجيوش الفرنساوية فى مونتبللو وبالسترو وماجنتا وسولفيرينو ، وبموجب معاهدة زوريخ تركت لومبارديا لمملكة البيمون وقامت طوسقانة رويداً رويدا على دوجها الكبير وأعلنت انضمامها الى البيمون ، ونزل غاريبالدى الى صقلية وتآخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الاخاء من قبل مع جمعية مازينى السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافراً الى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد أيام أعلنت جزيرتا صقلية وسار دانية انضمامهما الى الوحدة الايطالية وفى ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البرلمان فى تورينو ونادى بالملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكا على ايطاليا وتوفى كافور بعد بضعة أسابيع كأنه انتظر حتى أتم عمله المجيد مخلفاً لقومه شعاره « الكنيسة الحرة في المملكة الحرة »

وبقيت البندقية ورومية فقط لم تفتحا فقام اخلاف كافور ، وعقدوا محالفة مع بروسيا فأخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنساوية من ايطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الايطالى أن يدخل ظافراً الى رومية مقاتلا جيش البابا الذى قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته أمام هذا التيار العظيم وارادة الامة فى نزع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فحصرت سلطة البابا بعد ذلك فى دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية .

ايطاليا بعد الوحدة



هاقد ألقينا نظرة مجملة على ماضي ايطاليا وأصول مدنيتها وامجادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعاً فى صورة ايطاليا الحديثة كما أثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية الا على تغيير قليل فيها ، ونشأت مؤثرات أخرى نفعت فى نهوضها كل النفع وهى سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الامم الأخرى وغير ذلك ، وبعد ان صرفت ايطاليا كل جهادها الماضى الى سنة ١٨٧٠ فى تكوين الوحدة الايطالية والغاء امتيازات الاشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديموقراطية وجب عليها ان تنظم هذه القوة ، فاختارت القانون الاسامى الذي كان معمولا به فى اقليم البيمونت مع بعض تعديل أخذته عن القانون الفرنساوى .

ولقد حق على القائمين بهذه الوحدة من أهل الطبقة الوسطى وأبناء أشراف من الدرجة الثانية والاسرائيليين والماسونيين والبيمونتيين وكل من وجدوا مصلحتهم فى قيام هذه الوحدة أن برعوها فلم يجدوا أمامهم الا العامة يتقوون بهم فأنشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعديهم فيها بوعود خلابة أقلها ان الجمهور يعيش بدون ان يعمل ، وكل ذلك لمناهضة الاشراف ، ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الاشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديماً . اما رجال الدين فاحتفظوا بمراكزهم وذلك لانهم يمثلون شيأ لا يبرح حياً فى نفوس الشعب ولان لهم قانون يضم شملهم .

التفتت الحكومة بعد الوحدة الى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربي مفقوداً من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد اوائل الوحدة

مئة ألف نسمة فأصبح الآن خمسمائة ألف جندى منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جندى زمن الحرب يدخل فيهم البوليس. وكل ايطالى بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكر لا يعرف فى الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند باخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك نرى مجلس النواب الايطالى يمنح ميزانية الحربية وهى ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون أن ينظر فيها ثقةمنه بانها تصرف فى سبيلها على أبناء الامة ، ومما يعمل لنفع الجند أنهم أنشأوا بالقرب من بعض الثكن فى البلاد دروساً زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ماينفعهم مع التعليم العسكرى اذا رجعوا الى قراهم من العمليات الزراعية

أما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليونا فيمكن أن يقال على الجملة أن ايطاليا لما تكونت لم يكن فيها أثر للقوة البحرية فأخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن فى البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون فى مدرسة ليفورنه يبدون كل اخلاص في تخريج الجند البحرى

وهكذا تعمل ايطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك أن تجد مورداً لامتها التي يكثر نسلها وتريد أن تجد لها مرتزقاً فى الارض ولا سيما بعد أن طلبت بعض الحكومات التى تكثر مهاجرة الطليان الى أرضها أن يحمى العملة من غير الطليان الحماية الكافية التى تخولهم عدم منافسة العامل الايطالى . وأن ايطاليا لمضطرة بحكم الطبيعة أن تكون أمة بحرية من الدرجة الاولى لان شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كيلو متر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة

وتناسل السكان والخوف من اغلاق أبواب اميركا ذات يوم فى وجه المهاجر الايطالى دعا ايطاليا أن تفكر فى فتح طرابلس وبرقة حيث يجد أبناؤها ولاسيما فى الجنوب مناخاً يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من أرضهم ومساقط رؤوسهم ومما دعاهم الى الغارة على شمالى افريقية ذكرى أن أجدادهم الرومان فتحوا

تلك البلاد واستعمروها أيام عزهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك

ربما كان الايطاليون من أكثر الامم الاوربية حبا بالهجرة وذلك لان بعض الجنوب من بلادهم فقير بزراعته ولانك لاتجد فى ايطاليا طبقة وسطى على الاغلب فاما فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد فى أرضه من المواد الاقتصادية مايقوم بعيشه أو غنى كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق أمام الطليان غيرالهجرة فقد كان عددهم سنة ١٨٦١ أى بعد الوحدة بقليل ٢١ مليونا وهم اليوم ٣٥ مليونا بحسب الاحصاء الاخير دع الطليان المنبثين فى اقطار العالم ، وعدد من يسكنون فى كل كيلو متر مربع ١٢٢ ساكنا أى أكثر من معدل السكان فى المانيا وفرنسا ولا يفوق ايطاليا فى كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الارض من الممالك الاوربية الا البلجيك وانكلترا وبلاد القاع (هولاندة)

واكثر المهاجرين يهاجرون هجرة موقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة قطعية بل ان من المهاجرين من يقضون الشتاء فى اميركا ويأتون فى الصيف يحصدون ارضهم ويقطفون ثمرات أشجارهم ولولا النقد الذى يحمله اولئك المهاجرون من اميركا يضعونه فى المصارف وصناديق التوفير لبطلت حركة ايطاليا الاقتصادية لان النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الامة ان تجرى اكثر معاملتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب الا نادرا ، وقد بلغ من هاجروا ايطاليا من ابنائها فى الشهور التسعة الاولى من هذه السنة ٢٢٥ر٣٣٥ مهاجراً ولا يقل عدد المهاجرين كل سنة عن خمسمائة الف ومنهم من يهاجرون الى البلاد المجاورة ولا سيما جنوبى فرنسا ومنهم الى اميركا

والعامل الايطالى قنوع للغاية يقتصد جانباً من اجرته ومنهم من يعودون برؤوس اموال الى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الايطالى يقبض دولاراً أو نصفا فى الولايات المتحدة فيصرف النصف دولار ويقتصد الباقي حتى اذا عاد الى قريته تحدثه نفسه ان يبتاع له ارضا يبنى فيها كنه ولذلك ارتفعت اسعار الاراضى فى القرى اكثر من ارتفاعها فى المدن الكبرى ولا سيما بعد ان انشئت جمعيات ومكاتب

للمهاجرين ومنها ما اسسته الحكومة ومنها ما اسسه الافراد لتسهيل المهاجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به وليس لايطاليا من المستعمرات ماعـدا طرابلس وبرقة غير الاريتره وبنادر والصومال الايطالية وهي مجاورة فيهما لفرنسا وانـكلترا. وايطاليا جاءت الى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت اوربا مغانم افريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها

احتاجت ايطاليا بعد وحدتها ، وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية الى موارد كثيرة. فالتفتت فلم تر أحسن مورداً من الزراعـة ، وثلث الايطاليين يعملون بها فى أرض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنويا مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وأرزاً وأربعين مليون هكتولتر من الخمور وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار دع أعمـال الألبان وتربيـة الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التى تعد من جملة الزراعة ويبلغ مجموع قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد أدهشنا ما رأيناه من بدائعها فى ضواحى فلورنسه وضواحى بولونيا وذلك لأن اقليم طوسقانة وعاصمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر أمجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الالب الى طوسقانة فان أرضها حدائق غناء وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيراً بالأمم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين أما سكان الجنوب ولا سيما فى صقلية وساردنيا وغيرهما من الاقاليم الجنوبية فان المناخ مؤثر فى أخلاق أهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم ، وسكان الجنوب أشبه بالأمم الشرقيـة النازلة على شواطىء البحر المتوسط .

وصناعة ايطاليا وتجارتها راقيـة على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملـكة سنة ١٨٦٠ — ٢١٩٨ كيلومترا من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩ — ١٨٠٠٠ كيلومتر يضاف اليها خمسة آلاف كيلومتر من الترامواىات والاتوبوس وكانت الطرق العادية على عهد الوحدة ٤٨ ألف كيلومتر فتجاوزت اليوم ١٤٠

ألفاً وكان لايطاليا سنة ١٨٦٢ — ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ٢٢٨ر١٠ طناً و ٣٥٦ر٩ سفينة شراعية تحمل ٩٩٦ر٦٤٣ فأصبح لها سنة ١٩٠٨ — ٦٢٦ سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و ٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٣٢٤ر٤٥٣ طناً وبلغ عدد السفن الايطالية التي خرجت ودخلت فى الموانى الطليانية ٥٥٥ر١٩٠ سنة ١٨٦١ فبلغت فى سنة ١٩٠٩ — ٢٤٦ر٢٤٦ وكان اذ ذاك عدد الداخل والخارج الى الموانى الطليانية من بواخر الأجانب ٨٣٦ر٢٣ فبلغ فى العهد الاخير ٤٣٤ر١٧ واشتركت فى ذلك جميع موانى ايطاليا وفى مقدمتها جنوه ثم تجيء نابل وليفورنة والبندقية وبلرمة وكان لايطاليا عام ١٨٦٠ — ٨٠٠٠ كيلو متر من الاسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ ألف كيلومتر ، تضاف اليها الاسلاك البحرية والتلغرافات اللاسلكية مع مالها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشيء الذي يذكر فى بعض أصقاع ايطاليا على عهد الوحدة فبلغ وارده في سنة ١٨٨٦ — ١٦ مليونا وفى سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك

وكانت الصناعة أيام الوحدة غير موجودة الا فى اقليم البيمون ولومبارديا فعمت الآن أقاليم ايطاليا كلها ولا سيما فى الثلاثين سنة الأخيرة فقد كان سنة ١٨٨٩ معمل واحد للسكر فى جميع ايطاليا فأصبح لها ٣٢ معملا وارتقت صناعة حياكة الصوف والقطن والحرير والحديد والعربات والسيارات ارتقاء هائلا ، ووجدت الكهربائية فى ايطاليا محيطاً حسناً للغاية بالنظر لما خصت به هذه البلاد من الأنهار السريعة فى جريتها ، ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة أجل خدمة ، وربما أوصلت الكهربائية الى مسافات متنائية ، ولا تسل عن معامل الأساحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو فى مقاطعة جنوه وغيره كثير . واذا ضم ما يرد ايطاليا من صناعتها الى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة ٧٥ مليارا من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ويستدل على الرفاهية والغنى مما يودعه الاهلون فى صناديق التوفير فقد بلغ ما أودع فى الصناديق العادية مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف اليها ما أودع في صناديق التوفير

فى البريد وهو ٧٠٠ر١ مليون هذا عدا ما يضعه الناس فى المصارف وجمعيات التعاون مما يعد جزءا عظيما من ثروة الامة . وما كانت البيوت المالية تعرف فى ايطاليا الا فى اقليم البيمون قبل الوحدة الايطالية ، وقد كثر عددها اليوم ، وهى من الدرجة الأولى بين المصارف مثل بنك ايطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ماعدا أموالها الاحتياطية النقدية التى تبلغ ملياراً ونصفاً

وفى ايطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية ، وشركات تجارية مساهمة ، وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة . وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك فى سنة ١٩١١ فى قسم النفقات ، وملياريين وثلثمائة وأربعة ملايين فى قسم الواردات ولقد أصيبت ايطاليا بأزمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ أثرت فى ماليتها كل التأثير فكان شأن المضاربين على الأراضى للبناء فى المدن الكبرى شأنهم فى مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم الا قليلا بسقوط أسعار تلك الأراضى وذلك لان بعض المدن الايطالية أرادت أن تجدد أبنيتها على الطرز الحديث ، فأخذت طائفة كبيرة من أبناء الاسرات القديمة ومنهم من يعتقد بأنه الكفاءة فى كل شىء يبتاعون من تلك الأراضى والأبنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من أرباب رؤس الأموال الصغيرة ومن المصارف وبسبب هذه الأزمة عرض الوزير كريسبى الايطالى على البرنس بسمارك الألمانى أن تكون ألمانيا وايطاليا يداً واحدة فأحست فرنسا بالامر من الغد فلم تر أحسن من اخفاق مسعى ايطاليا واشغالها بقطع الموارد المالية عنها ، وكانت ايطاليا اذ ذاك لا تعتمد فى اقتراضها وتجارتها الا على البيوت المالية والتجارية فى باريز ، فأخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من ايطاليا ويشحون عليها بالمال فحدثت تلك الأزمة التى منشأها فى الحقيقة من أناس ما خلقوا ماليين ولم يستعدوا لمعاناة الشئون المالية بالعمل

وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط ان هيأ الاسرائيليين ليعملا

أعمالا عظيمة فى ايطاليا وللاسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح الا بالاخصاء . فانهم اختصوا بالتجارة ومعاناة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها وقد بقيت سلطة الأب على أولاده محترمة عندهم بخلاف القوانين الحديثة الاجتماعية التى قللتها عند غيرهم وترى النظام في بيوتهم التجارية والصناعية أتم مما هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة وأعمالهم ناجحة أكثر مما عداهم لأنهم يحسنون الانتفاع من القوى والأشياء أكثر من كل الطوائف ، ومنشأ ذلك كونهم كانوا مضطهدين فأحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون به . وهذه الصفات هى قوة المقاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة فى أسباب الحياة .

وعلاوة على ما للاسرائيليين فى ايطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادى قد كان لهم فى المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولكن لها مايشفع بها بما قاموا به من معاونة ايطاليا فى وحدتها بالمال وما أبدوه من الصفات الحسنة التى أبانوا عنها فى تقلدهم ادارة المسائل العامة ، وطالما كان منهم رؤساء الوزارة والولاة فأظهروا من البراعة فى الأمور السياسية ما يحق لهم أن يفاخروا به بل ان حاكم رومية نفسها هو اليوم اسرائيلى ، وكذلك أكثر الولايات التسع والستين الايطالية فان ولاتها من أبناء اسرائيل . لا يأتون ما يمس عواطف الاكثرية من الكاثوليك بل كثيراً ما كان نوابهم ووزراؤهم فى جانب المحافظين اذا أريد وضع قوانين واحداث أمور جديدة من شأنها اثارة الرأى العام مما دل ان الاسرائيلى فى ايطاليا خلافا لما هو عليه فى سائر الممالك ايطالي أولا ثم اسرائيلى وفى غير هذه الديار اسرائيلى قبل كل شئ . وفى المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى .

ايطاليا وعلومها وفنونها

٥١

كان علينا وقد وصل بنا البحث الى هذا الحد أن نتكلم على ما امتازت به ايطاليا من دون سائر بلاد أوربا من التفنن فى الفنون الجميلة والتبريز فى مضمارها على جميع أمم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج الى فصول كثيرة لا تتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع أذواق أكثر القرء ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية فى العهد الأخير وكيف ارتقت حتى عم أهل القرى أثرها .

يعتبر تاريخ اللغة الايطالية الحديثة منذ عهد دانتى الشاعر فانها بعده لم يعد ينقصها شىء من الالفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فأصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافى لا تعرف ما عند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الالفاظ الحديثة فى حين ظلت الايطالية الادبية جامدة تقرأ فى المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية أى كأنها لغة ميتة لا حية ، ودام الحال على ذلك الى قبل خمسين سنة وبفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التى تقضى بتنقل الجند فى البلاد أخذت الايطالية الحديثة تفهم فى كل مكان وبقيت اللهجات التى تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفى بمطالب الفكر الحديث وأصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة ايطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون فى ايطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم أهل هذه لهجة أولئك وأفصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت الى رومية ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيراً وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا وأهم اللهجات الايطالية اللهجة البيمونتية

واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والكالابرية والصقلية والساردينية .

وتعددت اللهجات مما عمت به البلوى لا في اللغة العربية فقط بل في لغات أوربا التي يسعى أهل العلم والسياسة الى توحيدها منذ زمن طويل ، فمن ذلك ان في سويسرا ثماني لهجات ألمانية لا يتفاهم أهلها بعضهم مع بعض بها بل ان أهالي ألمانيا لا يفهمون لهجات سويسرا مثل أهالي بافيرا وورتمبرغ وهيس ، وهكذا الحال في فرنسا وغيرها من البلاد التي يظهر أن لها لغة واحدة والحال انها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناوءن لغة بعضهم بعضاً .

اقتضت وحدة الروح الايطالية أن يكون لايطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والكتاب في أوائل القرن التاسع عشر أمثال مانزوني وبلليكو وكاردوشي فأفادوا على اختلاف في طرق الاداء في بث اللغة الصحيحة في الشعب . ومن الشعراء الكتاب المعاصرين الذين اشتهروا في الآفاق دانونزيو وباسكولي وفوكازارو ودي سانكنيس وفريرو ومن النساء اللاتي نافسن الرجال في صناعة الأدب سيرارو واوساني ودللوا ومنهن من تفردن في القصص التمثيلية وأخريات في القصص الروائية وغيرهن في الصحافة .

كان من توفر أسباب الرفاهية في الشعب الايطالي ان أخذ عدد المختلفين الى مسارح التمثيل يزيد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الاميين سنة عن أخرى ان كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك موادعينة لتعجيل كمال اللغة الحية لان التمثيل كالصحافة اذا أراد القائمون بها أن يفهموا وجب عليهم أن يتكلموا بلغة تتناولها عقول الكافة واذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الاقاليم اقتضى لها أن تعدل من لهجتها في كل محل بحيث تتناولها الاذهان على أيسر سبيل . وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الامم الراقية كالفرنسيس والالمان .

أما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك في الصورة والشكل

وكل يوم تزيد العناية فيها بالاخبار المنوعة المؤثرة وتقل مادتها من الانتقاد الجدى والموضوعات الادبية فالصحافيون هنا مثل غيرهم فى البلاد الاخرى يبيعون من الجمهور ما ينفق عليه ويروج عنده . وليس للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية وأعظم صحف ايطاليا وأهمها جريدة «كورييه دلا سيرا» أى بريد المساء وهى تصدر فى ميلانو من عواصم العلم القديمة أو العواصم الادبية كما يسمونها وتجىء بعدها جريدة «التريبونا» أى المنبر وهى نصف رسمية ثم «جورنال ديتاليا» أى جريدة ايطاليا وهاتان تصدران في رومية . ومن خيرة جرائدهم جريدة «ايدياناسيونالى» أى الفكر الوطنى وهى تمثل الفكرة الوطنية الايطالية يريد بها أصحابها أن يبطلوا أو يقللوا على الاقل كل ما يمزق كلمة مواطنيهم وأن يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن . وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة في كل مكان على توحيد الفكر واللغة .

كان السبب الرئيسى فى كل ما تقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الايطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وهاهى الآن تنفق مئة مليون[1] لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا فى البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة دع المدارس المنوعة التى أسستها الجمعيات الدينية أو الافراد وزاد عدد الطلاب ضعفى ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ فى السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين .

(١) بعد كتابة ما تقدم اطلعنا على خطاب ناظر المالية الايطالي وقد جاء فيه أن ايطاليا ستصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتفيض المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الاجبارى فى البلاد وقد بلغت الحركة الدوابة في المقايضات خلال الاحد عشر شهرا من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليونا أي بزيادة ٤٤ مليونا عد مثلها من السنة التى قبلها وقلت الواردات ٤٨ مليونا وزادت الصادرات ٩٢ مليونا وزادت السفن البخارية الداخلة الى موانى ايطاليا فكانت ١٦٤ ألفا كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠ — ١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين فى ايطاليا مئة ألف وزادت كمية المعدن من مناجم الحديد فبلغ ٣٢٥ مليونا وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديد وكثر الانفاق على المصارف وأعمال الرى والاسباب الصحية كثيرا والحكومة الايطالية ستزيد ميزانيتها البحرية والبرية وكل هذا بدون أن تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة فى الامور المالية .

ومع هذا فايطاليا من أكثر البلاد الأوربية أميين — بعد روسيا — ولا سيما في القرى وان كان التعليم الابتدائي اجباريا الا أنه لا يعمل به كثيراً وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والاكليروس انتهت الحال بان المدارس لاتعلم التعليم الديني الا لولد يطالب أبوه ذلك والآباء قلما يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الديني يضمحل من مدارس ايطاليا وقد تعطي الحكومة أحياناً اعانات المدارس الأخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله حقوق عالية وله الحق بان يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس مايديره اليسوعيون وان ألغيت مدارسهم في ايطاليا منذ زمن طويل . ومدارس الجمعيات الدينية خاضعة اجمالاً لتفتيش الحكومة وتترفع عن البحث في السياسة

يقسم التعليم الأوسط في ايطاليا الى فرعين مختلفين . الفرع المدرسي وهي دروس المدارس المعروفة بالجمناز والليسة والتعليم العملي وهو يدرس في المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الاولى على عهد الوحدة ١٢ ألفاً فأصبحت في السنة الماضية ٤١ ألفاً والدروس العملية التي يتخرج فيها الشبان الذين يتمخضون لفروع الصناعات الكثيرة وقد بلغوا سنة ١٩١١ ــ ١٠٠٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة أكثر من ٦٠٠٠ وفي الفرع المدرسي تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفي الفرع العملي تعلم اللغات الحية أما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين ألفاً ويؤكد بعضهم أن المدارس التي يعلم فيها الرهبان والقسيسون أكثر نجاحاً من التي يعلم فيها العلمانيون لان فتيان القسس ممتازون بانكار الذات والتشبع بالروح الدينية أكثر من غيرهم من الأساتذة

أما التعليم العالي فان لايطاليا منه سبع عشرة كلية (١) أو مدرسة جامعة تتنافس فيها بلاد الأقاليم ولكن معظم هذه الكليات لاتخرج رجال عمل بل أكثرهم خياليون من أرباب النظر ويضاف الى هذه الكليات المجامع العلمية العالية الكثيرة

(١) للحكومة في ايطاليا سبع عشرة جامعة وهي جامعة بولونيا وكاكلياري وكاتان وجنوه وماسيرتا ومسينة ومودين ونابل وبادو وبلرم وبارم وبافي وبيزا ورومية وساساري وسين وتورينو وفيها أربع جامعات حرة وهي جامعة كامرينو وفريرا وبيروز واوزبيه

لدرس الآداب والعلوم فى كل مدينة عظمى والحكومة تمدها بالمال . والمدارس العليا على كثرة ماتستلزمه من النفقات لاتتناول من مال الأمة أكثرمن أربعة ملايين فرنك مسانهة مما يستبان منه أن الحكومة توفر العناية بالتعليم الأوسط والابتدائي أكثر مما عداهما وعدد تلامذة الكليات والمجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين ألفاً وكان طلاب المدارس العليا فى القرن التاسع عشر يصرفون أوقاتهم فى الأعمال الوطنية أكثر من العلم أما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فانهم أخذوا ينصرفون الى أبحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ماأحرزته ألمانيا وانكلترا وفرنسا فى مضمار العلوم والآداب .

هذا اجمال مايقال فى التعليم أما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء ايطاليا أسوة غيرهم من أمم الحضارة الحديثة فقد اكتشف بامي طبيعة الامراض الميكروبية وهى النظرية التى خلصت الجراحة والمداواة من الاوهام التى كانت تعوقها . وكذلك كان شأنها فى الكهربائية وساعدها على ذلك كثرة شلالاتها وتيسير ارسال الحرارة والنور والاعمال الكيماوية والميكانيكية الى ابعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشنتوفى وماركونى مخترع التلغراف اللاسلكى وغيرهم من الذين شاركوا فى الأعمال العلميـة فاختلط الأمر وأصبح من الصعب التميز بين المتقدم والمتأخر من مكتشفى العلماء فى أميركا وانكلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والبلجيك وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من الممالك المدنية .

والنجاح كما قال الأمير جيوفانى بورغزة فى كتابه ايطاليا الحديثة [1] وعليه اعتمدنا في بعض ماتقدم فى هذا البحث أعلاء الوسط على الدوام ليتأتى للكائنات العليا ان تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها وأعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الأعمال الشريفة التى يخولهم اياها مظهرهم . ومن الخطاء العظيم في عصرنا أن تجعل قيمة شعب على نسبة ماأحرز من الارتقاء العقلى . ان التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفى الكتابة

(١) Prince Giovanni Borghèse : L. Italie Moderne.

والقراءة معنى جديد يجعل بيننا وبين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدون التنظيم الطبيعي من جهة وتربية الأخلاق من أخرى لا يتولد منه انشاء رجال تامة أدواتهم فى الجملة لتنشأ على أيديهم عظمة مملكة .

واذا نظرنا الى ارتقاء ايطاليا نراها دخلت فى ثلاثة أدوار هى أدوار النشوء الشخصى فالدور الاول الدور المادى والثانى النفسى والثالث العلمى وكان بدوء الدور الأول على أوائل تأسيس رومية وفى سنة ٧٠٠ قبل المسيح أى بعد سبعة قرون كان عصر أغسطس وهو عصر مجدها وبعد ثلاثة قرون عندما انقلت عاصمة المملكة الرومانية الى القسطنطينية تراجع أمر الدور المادى والدور النفسي أو الروحي هو دور ظهور النصرانية التى توفر الامبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية فمضى سبعة قرون على ذلك العهد حتى تنصرت أوربا وتم عمل الدين الى أواخر القرن العاشر للميلاد وفى الرابع عشر بدأت تظهر تباشير دور النهضة التى أريد بها تحرير العقل الانسانى من قيوده . والدور الثالث هو الذى نحن فيه والقرن الاخير كان أرقى أيامه وبه ظهرت ايطاليا فى مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعتها سائر الاشياء ولا تستقيم حياة أمة بدون أن تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والاخذ بالاساليب التى اتخذها السابقون فى مضمار التحضر .

ومن أنعم النظر فى هذه النبذة يدرك أن كل نهضة غير متعذرة وان أمما بلغت من الشقاء مبلغاً كبيراً وتيسر لها بقوة الارادة واخلاص المستنيرين من الوطنيين أن تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعا يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى ايطاليا أمس يجوس النمساويون أو الفرنسيس خلال ديارها ويستعبدون أبناءها ويرى الطليان اليوم وقد ألفوا مجموعاً حياً ودولة قوية وهم فى حكومتهم الملكية أكثر حرية من الفرنسيس فى حكومتهم الجمهورية على رأي بعضهم من رأى ذلك لا يقول بأن فى العالم شيئاً مستحيلا . وان قوة

العقل والثبات على العمل تفعلان أكثر من كل قوة فى الارض فى ايطاليا الحديثة عيوب كما فى سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي فى بلادها أن يدركه ولا يحل له أن يخط فيه حرفا لانه لا يرى الا الظواهر خصوصاً مع عدم معرفته لغة البلاد فانه يبقى كالاصم الاخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد فى معرفة أقدار أمة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل ونقيضها ما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر الا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمناً طويلا فى أصقاعهم المختلفة وحكم العقل والانصاف فيما يكتب بعد درس الاخلاق والعادات والتنظير بينها وبين مايماثلها من الشعوب الاخرى .

وغاية ما يستطيع المفكر أن يقول به اذا رأى ايطاليا ان بينها وبين الشرق القريب من الفروق أكثر مما بين مصر أو الشام والسنيغال أو بلاد نيام نيام يشهد هنا لكل شيء نظاماً وقانوناً من خرج عنهما ضل وما اهتدى ويجد نشاط الأفراد على اتمه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقى يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة أوفر مما يناقضها بدرجات السرور تقرأه في الوجوه والبسطة فى الغنى والرفاهية تشهده على الاكثر فى سكان الاقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الأصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعادياته وآثاره ، وذاك بحدائقه وأنهاره ، وهذا بتجارته ، وذاك بصناعته ، وآخر بزراعته ، وغيره بسكونه، وآخر بحركته .

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد . فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانة وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتى وبترارك وبوكاس وغاليله وميكل آنجلو وليونار دي فنسي وبنفانوتو وسيليني وأندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان فى الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لأسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فان جمهوريات طوسقانة بينا كانت فى القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية فى الشعب كانت رومية تضمحل بما قام فيها من المنازعات بين الأسر الكبرى

والذهاب فى الجدالات المذهبية مذاهب . ولذلك كان المجد كله فى النهضة (La Renaissance) لمدينة فلورنسة التى هى اليوم احدى الولايات الايطالية

هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال فى المدن الساحلية فانك تجد مثلا للبندقية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها مما يستدعى الغريب ويستهويه لنزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التى لا تدخل فى عد لكثرتها

وقد اتخذت الحكومة الجديدة أنواع الراحة لجلب أنظار سياح الأرض لغشيان بلادها وفى ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة ايطاليا لأحست بفقر شديد وذلك لما يبذره أولئك السياح من الأموال فى جميع فروع الانفاق . ولها أمثال فى تاريخ ايطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف فى تجارتها عن طريق البر التى كانت تعمل هاته الجمهوريات حتى اذا قام الاصلاح الدينى فى أوربا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل الى ايطاليا من الأموال بالطبيعة فافتقرت .

ان كل كنيسة من كنائس ايطاليا حرية بأن يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لى من الدهشة عند ما رأيت كنيسة « الدوم » فى فلورنسة مثل ما وقع لى من الدهشة عند ما زرت كنيسة القديس بطرس[1] فى رومية مقر البابوية ومهوى أفئدة البابويين فى الأرض . ولكل مكان ميزته .

امتازت رومية بكنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وأنصابها فى كل جادة وساحة مما يستهوى الغريب ويستدعى دهشته كما امتازت جنوه بمقبرتها لتفنن الجنويين منذ القديم بتصوير الأموات على الرخام وهم بين أهلهم أو فى آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما ان أكثر الأبنية هى الآن فى ايطاليا ست طبقات ويضيق المقام لو أردت فقط الالماع الى ما فى رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فانها خصت بكل أنواع الملاحة والراحة وهى مجمع الحسان الرومانيات

(١) كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذى أقام قبتها

كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع نظرك عليه فى هذه المدينة الأزلية صاحبة المدنيتين الرومانية والنصرانية تقرأ فيه روح التفنن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح الا قليلا .

دخلت مرة مع أحد اخوانى من مستشرقي الطليان لأزور كنيسة البانتيون فدهشت لما رأيت واليك البيان : كنيسة البانتيون هى الكنيسة الوحيدة الباقية من عهد رومية القديمة بنيت معبداً فى سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم النصرانية فى رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ فى مجلس الشيوخ فى القرن الثامن للميلاد من جملة ماينبغى له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون .

وكان يدفن بها بعض قديسيهم وأعاظم رجال الدين عندهم وما راعنى الاوقد رأيت الى جانب أضرحة رفايل (المصور النقاش المهندس المتوفي سنة ١٥٢٠) والمصور أنيبال كاراشى (المتوفى سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين والمصورين والنقاشين الطليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثانى المدعو أبو الوطن لانه قام بالوحدة الايطالية وخلف لذريته من بعده التاج الايطالى بعد ان كانت أسرته لاتحكم على غير اقليم البيمون فقط ـ وضريح ابنه همبرت الأول والد الملك الحالى الذى اغتيل سنة ١٩٠٠

نعم أعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون فى مقام التكريم الى جنب القديسين والشهداء وهذا فى تلك القرون التى كنا نظن فيها أوربا متوحشة وراقنى أن يجيء ملوك ايطاليا اليوم ويحبون أن يدفنوا الى جنب أولئك الصناع النوابغ ان لحد المهندس والمصور فى أقدم كنيسة بل أهمها بعد كنيسة القديس بطرس والقديس بولس هو أكبر دليل على حب البابا وات لرجال الفنون الجميلة ولحد ملكين عظيمين الى جنبهم هو أيضا مما يدل على روح التسامح الحديث وعلى ان رافايل المصور ليس فى مكانته فى خدمة أمته أقل من فيكتور عمانويل الثانى . فان كانت باريز قد أقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء فى العلم والسياسة فى أوائل القرن الماضى فان رومية تفاخر بأنها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ

زهاء أربعة قرون . بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفينلون وكوفيه وفولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابوليون واضرابهم . وبانتيون رومية يحوى أمثالهم من رجال الطليان . فمتى يا ترى يقوم في الشرق القريب أعاظم من ابناء هذه الاجيال الحديثة يكونون فى عقولهم واعمالهم على مستوى اولئك الابطال لتقوم بهم مدنيتنا على أحسن الدعائم كما قامت مدنية الطليان فى هذه الازمان .

ايطاليا والمشرقيات

٥٢

طمحت ايطاليا [1] فى كل زمن الى هذا الشاطئ من البحر المتوسط فحملت أولا القوة والسلام الروماني ولما انحلت عرى هاتين المادتين تحت ضربات البرابرة عادت توجه وجهها الى تلك الوجهة أيضاً لا الى الشمال وكان البحر المتوسط ميدان عمل جنوة وبيزا والبندقية وامالفى وبارى وسالرن ولم يقنع تجارها بأن يغتنوا بالاتجار بأقمشة الهند وفارس وجزيرة العرب وأفاويتها وأبازيرها بل أخذوا يؤيدون النفوذ اللاتينى فى آسيا الصغرى ومصر والحبشة وكان من انتشار الاسلام وقوته فى القرن الثامن أن ضربت هذه الفتوح التى تذكر بفتوح رومية أيام عظمتها ضربة شديدة فاحتقر المسلمون ايطاليا على سمو مدارك أبنائها ومرونة أخلاقهم وأغاروا عليها فأدخلوا على قلوب أهلها الهول والفزع فكان الجلاد عظيما ولئن وفقت ايطاليا الى طرد العرب من صقلية فان نجاح مدنها الساحلية فى الجنوب قد تراجع وظلت جنوة وبيزا متأثرتين وعادت البندقية فوجهت وجهتها الى آسيا الصغرى .

وكان من الحروب الصليبية أن تهيأت لايطاليا أسباب الانتقام فان هذه

---

(١) من مقالة لانطوان كاباتون فى مجلة العالم الاسلامى الباريزية لخصناها في مجلة المقتبس ونشرت فى المجلد السابع صفحة ٦٩٢

الغارات وان كان باباوات رومية هم الذين أملتها عقولهم قد بذل فيها العنصر الايطالى بما عرف به من الحميـة الممزوجة بقليل من التبجح من حسن السياسة أكثر مما بذل من الشجاعة فاقتصر الايطاليون فى الحرب الصليبية على مرافقة جيوش أوروبا الى آسيا وبينا كان ملوك الأمم الأخرى يقيمون ممالك صغرى في الأرض المقدسة كان الايطاليون يقطنون ثمرات تلك الحمـلات . وقد ثبت هذا الدهاء السياسى الايطالى فى الحملة الصليبية الرابعة فانه انتج لجنوة وبيزا ان ربحتا كثيراً واستأثرت البندقية بتجارة آسيا الصغرى وامتلاك أراض مخصبة على الشواطىء الشرقيـة من البحر المتوسط وجزء من الاستانة . ولما سقطت القسطنطينيةفى أيدى محمد الثانى سنة ١٤٥٣ حالت دون هذا السير النافع ومع هذا فان البندقيـة بما أتته من عجائب المهارة وحسن المأتى بل بجهادها العلنى قد احتكرت جميع تجارة أوربا مع الشرق .

وبهذا الاحتكاك المتصل تمت للبندقية على قوتها البحرية والتجارية معرفة الشعوب الاسلامية حق المعرفة أكثر من كل أوربا وكان من العادة الجارية مع طبقة التجار من أبنائها ان يتكلموا بالتركيـة والعربيـة ويألفوا بعض العادات والمصطلحات الشرقية ولكن جاءت قوة فى القرون الثلاثة التالية أكثر من قوة البندقية على مالها من الصلات التجارية مع العناصر الاسلامية فزادتعليها لانها روحية تطمع فى امتلاك العالم ونعنى بها « البابوية » .

فامتدتأحلام كنيسةرومية الى الخارج ومطلبها أعلى من الربح المادى وكانت في عهد غارات الجرمانيين تحلم بالقبضذات يوم على قياد الوحدة فأحسنت صلاتها مع المسيحيين بل مع الوثنيين فى الشرق ممن تطمع فى تنصيرهم وأدركت كل الادراك الخطر الناشىء من امتدادكلمة الاسـلام على أوربا المسيحية . ومع أن الحمـلات الصليبية قد اخفقت وقوة الايمان قد انثلمت فى القائمين بها مابرحت كنيسة روميـة الى أوائل القرن السابع عشر تطالب بأعمال اخرى وفى هـذا العهدكان الضعف أخذ من العثمانيين .

بيد ان رومية شعرت فى الحملة الصليبية الثانية أن السيف وحده غير كاف فى مثل هذا الجهاد ورأت أن تعارض التعصب الاسلامى بطوائف متماسكين في اتحادهم من غيورى الاوربيين أو الشرقيين لتقطع أوصال المسلمين قطعاً أدبياً بعد أن أوقفتهم عن سيرهم المادى . وما فتئت رومية منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر تحاول تنصير جميع الشعوب الآسياوية التى ظلت على وثنيتها فبعثت الى بلاد المسكوب وفارس وأرمينية والتاتار والتبت ومغوليا والصين والارخبيل الهندى وفوداً من أهل الذكاء والحصافة ممن خلفوا لنا رحلاتهم ومذكراتهم اليومية وعهدت اليهم أن يسبروا غور أمراء تلك البلاد لينصروهم أو ليتحالفوا واياهم على الاقل ضد المسلمين . وكان نصيب مصر والحبشة أيضاً البحث عن مثل هذا الشأن .

ولم تلبث الرهبنات العظمى ان انشئت مثل الدومينيكانيين والفرنسيسكانيين واليسوعيين والكبوشيين والكرمليين واللعازريين ليكونوا جنداً مخلصاً فى خدمة امام الأحبار وتفتح تلك البلاد لدخول النصرانية اليها . فانبث جيش من الرهبان على اختلاف مظاهرهم فى قارتى آسيا وأفريقية الشمالية لافتتاحها ونشر الانجيل فيها ثم نشر المدنية الغربية فخبط القائمون بالأمر أولا ولم يهتدوا لاحسن الطرق فى العمل فانهال الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون يفادون بأرواحهم ويصبرون على ضروب العذاب فى سبيل دعوة الشعوب الاسلامية فى أفريقية الشمالية الى الدين المسيحى وكانت الطرق التى عمدوا اليها على تحمس فيها ممزوجة بكثير من الجهل فشعروا فى الحال أن الضرورة تقضى على من يريد دعوة أحد الى دينه أن يتكلم بلغته على الأقل ليتفاهم الداعى والمدعو فنادى القوم من كل مكان بضرورة انشاء مدارس لتعليم اللغات كان رايموند لول داعيتها النشيط .

فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ الذى كان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس فى باريز واكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية من شأنها تخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود . وأنشأ الفرنسيسكانيون

والدومينيكانيون فى أديارهم دروساً من هذا القبيل ليعدوارهبانهم لنشر الأنجيل ومنذ ذاك العهد أصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت فى المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين وكان أساتذة العبرية يتخرجون باعلم العلماء الربانيين وأساتذة العربية كانوا ممن رحلوا الى بلاد اللغة التى أخذوا يدرسونها ويصحبهم بصفة معيدين أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة ممن كانوا يعلمونهم العربية بالعمل ورأى هؤلاء القسس بحكم الضرورة أن ينتقلوا من اللغة العامية الى اللغة الفصحى ليشتد ساعدهم فى فهم المسائل الفلسفية ورد حجج المخالفين باسلوب فلسفى أدبي .

ومن أجل هذه الغاية اهتموا أيضاً بمصر والحبشة ومن مدارسهم نشأ العلماء الأول من الأقباط والحبش والامحريين ولكن دراسة اللغةالعربية بقيت الحاكمة المتحكمة فى شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها أنه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية . فقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية بيزا وظلت العربية مألوفة فى عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك نورمانديا وهوها نستوفين وفريدريك الثاني ودى منفروا لغة العلم العالى والشعر والادب . وما كانت العربية على مافيها من القصائد المقيمة المقعدة والعواطف المؤثرة لتحمل أمثال شارل دانجو على تحمسه لدينه ان يخاف عاديتها بل كان الاطباء والطبيعيون فى قصره أما من الاسرائيليين أو من المشفين المتسامحين فى عقائدهم وكان الطب هو الجواز الذى سارت به الفلسفة العربية عند ماقام جيرارد دى كرمون الشهير فى أوائل القرن الثالث عشر فى ظل دولة فريدريك الثاني يترجم بعض كتابات ابن سينا الفيلسوف .

وفى القرن الثالث عشر ترجم المعلم موسى من أهل بلرمه من العربية الى اللاتينية كتاب ابقراط في أمراض الخيل فتسربت فلسفة ابن رشد من أمثال هذه

الطرق ولم تلبث أن صادفت قبولا بين ناشئة ايطاليا حتى شكا من ذلك جهاراً بترارك فى القرن الخامس عشر اذ رأى فى تلقف فلسفة ابن رشد دليل الالحاد والازدراء باليونانية واللاتينية . وكثير من الادباء والعلماء من غير طبقة الرهبان كانوا يرون من موجبات الفخر في القرن التالى أن يعرفوا اللغة العربية سائرين على سنة بيك دى لاميراندول

وعلى توفر بعضهم على نشر كتب فى الجدل مع المسلمين حتى قبل أن يترجم القرآن باحدى اللغات الغربية فان عشاق العربية كانوا يرون من الحيطة ودواعى الغيرة أن يمرنوا أنفسهم على ترجمة رسائل فى الطب ينقلونها عن العربية اذ لم يكن أحد يجهل مكانة العرب فى هذا الفن وبذلك يرون أنهم ينجون من الاتهام بالزندقة وقد أصبح أندرى اريفابن فى البندقية حجة فى هذا الباب وانشأ هؤلاء المترجمون يبالغون النظر فيما ينشرون فكان لهم أسلوب علمى حقيقى . ولما رأى أندرى مونكاجون بللون فى القرن الخامس عشر أن تراجم ابن سينا القديمة واطباء بلاط فريدريك الثانى ليس فيها عناية ذهب يحكم دراسة اللغة العربية فى دمشق وأتم تعليمه الشرقي بالرحلة الى مصر وسورية وفارس وآسيا الصغرى رحلة طويلة وذلك قبل أن يعود الى كلية بادو ليشرح لتلامذته فلسفة ابن سينا . وقصد جيرولا مورانوزيو أحد أطباء البندقية بلاد الشام أيضاً فى سنة ١٤٨٣ ليتبحر فى فهم فلسفة ابن سينا ويعلق شروحاً على ترجمته عليها .

وكان من سقوط القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى ايطاليا وكثير من نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح ان هبت فى أرجاء ايطاليا حركة النهضة العلمية التى تجلت فى أجل مظاهرها فى الدروس الشرقية ولا سيما فى دروس العربية والاسلام .

كانت الحركة فى تعلم المشرقيات عامة وافراديه معاً انتشرت كثيرا بفضل الكردينال فريدريك دى مديسيس فى فلورنسا والباباوات فى رومية والكردينال بورومة فى ميلان والكردينال بارباريكو فى بادو ومن تقدمهم مثل باباغانينى الذي

نشر فى مدينة البندقية أول طبعة من القرآن باللغة العربية ولكن هذه الطبعة لم تلبث أن أبيدت بغيرة دينية خرقاء وكان من الاسقف اغوستينو جو يستنيانى المشغوف بالدروس الشرقية ولا سيما العربية والعبرية أنذقبل من فرنسيس الاول بتدريس اللغة العبرية بعد أن صرف ثروته فى اقتناء مجموعات من المخطوطات المهمة فى العبرية والعربية والكلدانية والرومية وكان تيزيوامبرو كيوفومس (كونت) البونز مستشرقاً مدققاً

وهكذا كانت ايطاليا كلما أولع علماؤها باللغة العربية وتشربوا روحها تميل كل الميل الى الاقطار التى كان يتكلم فيها . وقد نشر اندريا أريفابن من مانتو أول طبعة ايطالية من القرآن بيد أن كل هذه الاعمال على جلالتها لاتعد شيئاً في جانب انشاء مطبعة أسرة ميديسيس المالكة والمطبعة الشرقية لبث الدعوة ومطبعة بادو وكليتها وكل ذلك بغية تنصير المسلمين والوثنيين . فقد طبعت مطبعة ميديسيس ١٨ ألف نسخة من الانجيل باللغة العربية سمته (أربعة أناجيل يسوع المسيح سيدنا المقدسة) وأرسلتها مع تجار لتباع بثمن بخس فى البلاد العربية أو التى تفهم بها العربية على صورة حازمة لايظهر منها المقصد الذى يرمي اليه دعاة الدين .

وكانت النية معقودة قبل كل شىء على اعلان حرب صليبية جديدة روحية علي الاسلام يدخل اليها بالوسائل العلمية وعنى الباباوات الادباء أمثال ليون العاشر واكليمنتس السابع عناية خاصة بتأسيس خزائن كتب من المخطوطات تسلب من المسلمين الاعداء القدماء لتكون من ذلك مجموعات نفيسة فى دار كتب الفاتيكان وكان غريغوريوس الثالث عشر لا يرى أحسن فى النجاح من تنصير الناس وأبادتهم . وانشأ يوليوس الثاني فى مدينة فانو على بحر الادرياتيك أول مطبعة عربية احتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤ بنشرها اول كتاب طبع بحروف عربية وهو كتاب « صلاة السواعى » . وكان فى رومية مطبعة حجرية شرقية انشأها سافارى دى بريف الذى ظل سنين طويلة سفيراً لملك فرنسا في القسطنطينية وهو نفسه

الذى حفر أمهات الحروف العربية التى نقلت عنها مطبعة الامة فى باريز اشكالها . ونشر منذ سنة ١٦١٣ كتاب التعليم المسيحى .

وظل الكردينال فردينالدى ميديسيس متمها لذوق أسرته فى حب المعارف الشرقية فابتاع مخطوطات شرقية باسم البابا وكان يدير بطريركيات انطاكية والاسكندرية ومملكة الحبشة ادارة روحية وانشأ على نفقته مطبعة ميديسيس وولى عليها ريمو ندى الذي ولد سنة ١٥٣٦ فى نابولى وهى اكثر البلاد التى انتشرت العربية فيها . فكان باللغات الشرقية التى يتقنها ولاسيما العربية قدوة الداعين الى تعلم المشرقيات ونشر بالعربية كتاب نحو وكتب ابن سينا وغيرها فكانت مطبوعاته بحسن طبعها ووضعها موضوع الاعجاب العام وبعد ان قضى ريمو ندى نحبه لم تعد اسرة ميديسيس تفكر فى اعلان الحرب الروحية على المسلمين بواسطة الكتب بل عمدت الى احداث الاضطرابات العملية .

ولم تشأ رومية ان تكون فى خدمة المعارف الشرقية بالمطابع والمكاتب والمدارس دون أسرة ميديسيس فى بث هذه الدعوة لتنتشر بها الدعوة على الاسلام فقد صارت بفضل البابا وات ميدان درس كل ماير قى عقول القسيسين الذين تنتدبهم رومية لفتح العالم فتحاً روحياً يتخرجون فى المدارس ماامكن بلسان البلاد وعاداتها ومعتقداتها التى يريدون بث دعوتهم فيها ودار الكتب تتمم لهم هذه المعلومات فيعثرون فيها على ماسطره اسلافهم فى رحلاتهم الى البلاد التى عنوا بتنصير اهلها وما تلقفوه من معتقداتهم وعاداتهم ولهجاتهم وصناعاتهم ويقضى على كل قسيس ان يكتب بعد مقامه فى القاصية كتابة أورسالة تخدم هذا الغرض ومطبعة بث الدعوة تنشر كل مايؤلف من هذا القبيل وتترجم الى لغات شرقية كثيرة الكتب المسيحية والردود على الاسلام وكان للغة العربية الشأن الاول من بين هذه اللغات التى تطبع فيها المطبعة وهى عشرون لغة شرقية

وما كان القصد من هذه العناية الا دينياً محضاً بادىء بدء ولم يكن العلم علم الشرق الا واسطة تساعد على الجدل وكذلك اللغة العربية لم تكن الا سلاحاً

يقاتل به الاسلام ولذلك لم تر المدرسة الاكليركية الشرقية فى بادو غضاضة عليها أن تشتغل بالعلم المجرد أحياناً للأثر الذى يحدث عنه وكانت المطبعة والمكاتب الشرقية من المتممات لتلك المدرسة لذهابها بفضل الشهرة وتأثيرها فى الافكار .

وقد تخرج بالاستاذين ماراسى وأغابيتو عدة من التلامذة باللغة العربية فصنفوا فيها وأفادوا وتعاقب اثنان من الكرادلة على أبرشية بادوكان كل منهما يتنافس في عصره فى خدمة الدروس الشرقية . وهذا كان شأن ميلان فان فريدريك بورومة بث فيها روح العلوم الشرقية وبعث منذ سنة ١٦٠٩ الى الشرق يبتاع بالأثمان الباهظة كتباً ومخطوطات شرقية فأسس المكتبة الامبروزية الشهيرة ولم يكثر تلامذة المدرسة التى أسسها لهذا الغرض بل كانوا قلائل امتازوا باخصائهم وكان ثمة أساتذة خاصة من مسيحي الشرق أو المسلمين الملحدين ولطالما عطف عليهم ونشطهم وتخرج فى مدرسة امبرواز انطونيوجيجى باللغة العربية فكان لها مجداً أثيلا .

عد القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر ازدهاء الدروس الشرقية ولا سيما اللغة العربية فى ايطاليا أما القرن الثامن عشر فكان عصر الانحطاط التام اذ قلت فيه حتى الغيرة الدينية والحماسة العقلية ولم ينشأ فيه سوى الكردينال ميزوفانتى الخارقة في اتقان اللغات المنوعة فكان مفخراً للعلم الايطالى وقد تقاسم جمهور الشعب اقيال وملوك متوسطون صار معهم الى الشقاء والعبودية أما الطبقة العالية فقد حرمت من الاشتراك في ادارة شؤون بلادها ينهكها الاستبداد البليغ أو اضطهاد النمسا الشديد فنسيت فى لذائذها المادية حريتها وعلو منزلتها العقلية .

وفي سنه ١٦٩٠ احترقت مطبعة ميديسيس ثم أعيد انشاؤها وبعد أن تقلبت عليها الاحوال ونقلت الى باريز بامر الامبراطور نابليون أعيدت الى ايطاليا وفيها طبع أعاظم مستشرقي الطليان أمثال أمارى وسكياپارللى وكويدي كتبهم وما نشروه من آثار العرب . ولما فتح نابليون مصر وأعلن للمسلمين بأنه يراعي

معتقداتهم وحقوقهم وانه لا أرب له الا قتال المماليك احلاف انكلترا رأى أن يستولى على قلوب المصريين فظهر لهم بمظهر الحياد وحسن الخدمة وبعث يجلب مطبعة لبث الدعوة الشرقية من ايطاليا فأتته الى مصر وأخذ يطبع بها الكتب خدمة للسياسة والتجارة

فأصيبت من ثم المطابع الشرقية فى ايطاليا بضربات السياسة والحوادث وبقيت المدرسة الاكليركية وخزائن كتبها فى بادو بمعزل وعلى ما عرف به المستشرق العالم بالعربية اسيمانى من سعة الفضل فانه لم يتيسر لبلاده أن يعيد الحياة للمشرقيات بعد أن انطفأت جذوتها بالفتن والكوائن وانقراض بيت ميديسيس. ونشأ للعربية أستاذ فى القرن الثامن وهو القس فللادرس في كلية بلرمة ونشر بعض الكتب ولكن القرن التاسع عشر امتاز بآدابه كما امتاز بالحياة فى ايطاليا التى هبت قوية حرة وراحت ترفرف على كل ما كان فيه مجدها أيام تاريخها المجيد فأزهرت فيه الدروس الشرقية ولا سيما الدروس العربية والعلوم الاسلامية . فكانت الولايات الجنوبية في ايطاليا تخرج أبطالا فى المشرقيات أمثال المؤرخ والسياسى ميشل اماري الذى نشر أحسن تاريخ للمسلمين فى صقلية وكثيراً من الكتب التى تدل على فضل علم وتدقيق . كذلك يقال فى دروس العربية فى كليتى فلورنسا وبيزاء وعاصر أماري الاستاذ سكيا بارللى مدرس العربية فى فلورنسا ثم بونازيا مدرس كلية نابولى واغناس كويدي الذى هو اليوم أحد الزعماء المبجلين من علماء المشرقيات من الطليان وهكذا نشأ لايطاليا أجلة من المتبحرين فى علوم الشرق ولغاته وأمراء يفضلون على العلماء في طبع مايلزم ونشره

وكان امتياز ايطاليا قديماً بنشر المعارف فى كل البلاد فأصبحت كذلك فى عهد وحدتها تريدان تجعل لكل اقليم حظاً من هذه الخدمة ولم تلبث صعوبة الحياة الحديثة والاطماع القديمة التى يظهر أنها اليوم العامل في حياة الممالك الاوربية أن تحدو ايطاليا السياسية الى الانتفاع من هذه المعارف النظرية انتفاعاً عملياً

واذ كانت مصر على قربها من ايطاليا وغناها وعراقتها فى الاسلام مما يكون

منه الخطر كانت هى أول غاية انصرفت اليها كهنة الطليان وتجارهم وكانت ايطاليا منذ القرن السادس عشر مركزاً لتعلم الآداب القبطية وقد انشأت تعلم علم الآثار المصرية والقبطية فى بيزا لتثبت بذلك أنها لاتريد أن تكون غريبة عن علم كانت لها القدم الراسخة قديماً فى الابداع فيه وكانت للغة الحبشية المقام الاول فى ايطاليا لانها رأتها أقرب الى بث الدعوة فى نساطرة الحبش وان التجارة تمكن بدون أن يصطدم الايطالى مع الاسلامى الذى لايتساهل .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أنشأت ايطاليا مجمعاً ومدرسة لتنصير الافريقيين وتعليم دعاة لهذا الغرض تأخذهم من أبناء تلك البلاد وتربيهم ليعودوا الى مساقط رؤوسهم يحيون فيها روح دينهم الجديدة ولكن هذا العمل فى التنصير أخفق لما حال أمامه فى كل مكان من بث دعوة الاسلام ونشر الدعوة البرتستانتية فاقتصرت ايطاليا من ثم على غرس نفوذها فى تلك البلاد وأعداد الأسباب للمطامع الاستعمارية . ولما سحقت الحبشة لايطاليا سنة ١٨٩٥ جيشاً مؤلفا من خمسة وسبعين ألف ايطالى في أدوا اضمحلت آمال ايطاليا وقنعت بما ترك لها من المواني هناك وراح أبناؤها ينتشرون فى تونس ومصر وعلماء المشرقيات المتضلعين من العربية من أبنائها يرفعون شأنها الماضى فى الحضارة وتقاليدها القديمة فى النصرانية .

واتفق أن أحد رجال البيت الخديوى الامير أحمد فؤاد باشا (عظمة الملك فؤاد الاول ملك مصر اليوم) تعلم في المجمع العلمي العسكرى فى تورينو فكان منه بعد ذلك أن عقد أنفع الصلات مع ايطاليا كما بدأ ذلك منه سنة ١٩٠٨ وقد عين رئيساً للجامعة المصرية لتعلم العلوم الحديثة للمصريين ونظم الجامعة بمشورة عالم فرنساوي مشهور المسيو مسبرو وكانت أكثر الدروس تلقى بالعربية فكان من الاساتذة كويدى ونالينو ومالو الايطاليين الذين درسوا الدروس التي عهدت اليهم بالعربية .

ومنذ ذاك العهد مالت الافكار فى ايطاليا الى طرابلس الغرب لتكون لها أهراء حنطة كما كانت للرومان قديماً وذلك لانها بصرف المال وبذل الوقت والعناية

بزراعتها سيكون منها مورد ربح عظيم وتجد فيها اليد العاملة من الطليان مجالا واسعاً للاستعمار فرأت ايطاليا أن يكون الفتح الاستعماري مشفوعاً بالرفق والرحمة والتساهل في معاملة الشعوب الاسلامية وأن يكون أساس الاستعمار فى تلك الاقطار المصالح الاقتصادية وان تدار البلاد بايدي أعظم رجال الادارة ممن تتعلم منهم وزارات المستعمرات الاوربية دروساً فى الاستعمار .

وأخذت ايطاليا بتنظيم كلية بادو التى كانت اتخذتها جمهورية البندقية منذ قرنين مدرسة لتخريج رجال سياستها وتراجمتها وسماسرتها تدرس فيها العربيـة والفارسية والتركية ولا سيما العربية وستعنى هذه المرة بالعربية أكثر ليكون من متخرجيها أعظم الاداريين المستعمرين لليبيا وتضاف الى دروسها اللهجات البلقانية المنوعة ممن تتجر معهم البندقية وايطاليا . ولمدينة جنوة درس عربى طالما تناوب تدريسه أعاظم مستشرقيها وهى اليوم تطالب بأن يكون لها امتياز بتخريج رجال الادارة والاستعمار بانشاء كلية بحرية استعمارية فيها وكذلك سيكون من كلية بولون أثر عظيم فى تخريج رجال بالعربية كما لها منهم حظ ليس بقليل الآن . وفى رومية فى مدرسة الدعوة الى الايمان درسان للعربية والسريانية وكذلك مدرسة القديس أبو لينير فان درس العربية يدرسه فيها الاسقف بوغاريني وتفتخر كلية الحكومة اللادينية فى رومية بان فيها درساً للغة العربية وآدابها بزعامة الاستاذ سكياپاريللي والحبشية تحت نظارة كويدى . وفى جنوب شبه جزيرة ايطاليا المملوء بتذكارات اسلامية والقريب من حيث الوضع الجغرافى من بلاد المسلمين كلية بلرمة التي يدرس العربية فيها كل من الاستاذين نالينو وبووناززا واقتصرت نابولى على تعليم العربية بالعمل كما تعلمها بالنظر أيضاً وفى نابولى مجمع شرقى يعلم بالعمل اللغات الحية فى آسيا وافريقية وفيه تلامذة صينيون وهنود وبلغاريون وصربيون وفلاخيون والبانيون ويونان . وفى سنة ١٩٠١ أعيـد تنظيم هذا المجمع على مثال مدرسة اللغات الشرقية في باريز ويمتاز بان دروسه مجانية ولا يمتحن الطلاب فيه

سويسرا

٥٣

أصحيح أن القطار غداً يخترق العقاب والشعاب ، ليخاص من ايطاليا مهد المدنيتين الرومانية والنصرانية ، الى سويسرا جنة أوربا ، بل جنــة الدنيا ، ومدرسة العمل العليا ، وأبهج مصيف ومشتى ، لملتمس الراحة والسلوى

أيكتب غداً للروح أن تطمئن قليلا فى أشرف ديار ، عرفت فى باب حرية الاديان والافـكار ، ويشهد الطرف حسناء ضمت الى صدرها شمل المدنيات العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الارضية والسماوية، بلاد خص كل شبر منها بمزية غالية عالية ، وتعاورتها الايدى بالتحسين والتزيين والتطرية ، فلم يتصور العقل الآن أرقى من نظامها . ولا أبدع من طرازها وهندامها .

أصحيح أن هذه المدينة الفاضله ، دهشة الامصار والاقطار ، وزبدة جهاد القرون والاعصار ، المغبوطة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع ، على قانونها المتـكامل ، وأمنها الشامل ، سيكون للنفس قسط من الراحة فى رباعها البهجة شهراً من العمر ، يعد كالف شهر ، فتستمتع الحواس بعجائب صنع الديان والانسان وآخر حسنات العمران فى هذه الازمان

سلام عليك ياجمهورية السلام والوئام ، عقمت الايام أن تنشئ مثلك ، أنت الوحيدة في العمل بتعاليم السيد المسيح بين الممالك الغربية ، فلم يعد عليك أن جوزت بعد تحضرك قتل النفوس، لامتلاك النفائس، ولا انظلمت شعباً آمناً لاستصفاء بيته وحقله ، ولا انهتكت استاراً وأعراضاً، لتغنمي عروضا وأعراضا، بلى كنت من خير من عطف على مدحور ومظلوم، وأكرم مثوى وافد مقهور مغموم، وعلم طالب علم وصناعة تعليما مجرداً من النزعات المذهبية والنزغات السياسية ، ومسلاة كل متعب راغب فى التفرغ لنفسه ، لقنت الامم معنى الحـكومة الصالحة

فى الامة الصالحة ، وحققت بالعمل معنى تضامنك فى شعارك « الواحد للكل والكل للواحد » فحكمت نفسك بنفسك حقاً وصدقاً ، لا كذبا ورياء

هذه الوجوه النضرة التى تهش لاغريب ، كما تهش للقريب ، هي صورة صحيحة من اخلاق هذا الشعب القليل بعدده ، الكثير بفضائله وعدده ، فان كان هنا لايتجاوز احصاء المكين ، أربعة ملايين ، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو مترا مربعا ، فلكم كان القليل العالم ، خيرا من الكثير الجاهل وعظمة الامم بعلمها وعملها . لابوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها : سويسرا تفاخر وحق لها الفخر بانها اليوم لاتعرف الاميين الا بما تقرأه عنهم فى صحف العالمين . فهل عهد مثل هذا النور لامة فى القدماء أو المحدثين

يخيل للناظر ان هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية . فرنسا وألمانيا وايطاليا والنمسا قد أخذت من هذه المدنيات الأربع أطايبها . ولعله لا يخطيء من قال ان هذه الممالك أخذت كثيراً من أطايب ماعند سويسرا ، فجاءت هلفسيا أو سويسرا مجموعة الابداع فى البقاع والاصقاع ، وسلسلة مفرغة فى المحاسن لا يعرف أين طرفاها ، تقاسمت القرى مع المدن ، والأودية مع الجبال ، آثار الجمال والكمال فعز لها قسيم فى استهواء القلوب بين هذه الديارات ، بل بين الخمس من القارات وما ظرف عمران الألمانيين والفرنساويين والايطاليين والنمساويين ، اذا قيس بظرف بلاد السويسريين الا كالنضارة فى خدود فتاة العشرين ، فى جنب نضارة ابنة الاربعين .

لا جرم أن هذه الجمهورية الرشيدة هى التى وصفها للناس افلاطون وروسو فكانت بما وفقت اليه ، مما يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان ، وذكر المجردات لا يقنع بقدر الادلاء بالحجة ، ولذا نقتصر على طرف مماعرفناه وعرفه غيرنا عنها . كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى أن يثمر ذلك فائدة لمستفيد ، وعبرة لمعتبر ، فى شرقنا المتخدر الأعصاب ، منذ أحقاب ، الذي كادت تدمع لحاله عيون الأعداء ، بعد ان أدمى مقل الأحباب

سويسرا : الافراد والاسرة

٥٤

أول ما يبده الداخل الى أرض سويسرا : الخضرة والنظافة . فانها كلها أشبه بحديقة فى وسطها مصايف من أجمل ما بنى المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون . الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هى فى سويسرا الفرنساوية أو منقوشة كما هى فى الشمال الشرقي أو من الخشب على ما تراها فى أوبرلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين أو ثلاثة . والغربيون مولعون بابقاء القصور القديمة مهما كانت ويؤثرونها على الجديد من نوعها . وداخل البيوت على مثال خارجها فى الحسن حذو القذة بالقذة .

ادخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة والى منازل الطبقة العليا أو الفلاحين ، والى قصور الأغنياء أو المقترين ، تجدها كلها متناسقة بنظافتها ، وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز فى الصباح والمساء على السواء ، وما أنس لا أنس تلك النظافة التى شهدتها فى المنزل الذى حللت فيه فى مدينة لوزان المطل على بحيرة ليمان ومن ورائها جبال الالب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج ، الى أن تدخل المنزل ، وتجلس فى غرفتك ، الى المائدة ، الى الطعام المنوع المستطاب ، الى أحقر شيء فى الدار .

ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف فى الأرض والنوافذ والدرفات وتنفض الستور والأغشية والكراسى والمقاعد والخزائن والمناضد والزروع الموضوعة فى الأصاصى ودع التحف والصور والتماثيل الصغيرة ومصابيح الكهرباء وغير ذلك مما لا تخلو منه دار فى الجملة ، كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هذا

الحال خاصاً بالبيوت والفنادق فقط بل انك تراه فى الشوارع والازقة على صورة مكبرة فان الاوساخ الخفيفة لا تلبث أن تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث أن يتساقط ٢٠ سنتيمترا وأكثر الا ويرفع من الطرق ، وكل شارع وجادةوساحة وسوق ينظف ويغسل بلا أمهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب : « النظافة أثر من آثار النظام والعمل » والشعوب النظيفة هى التى تحب أن ترى كل شىء فى مكانه تقاسى ضيقاً حقيقياً بل ألماً مبرحا اذا شاهدت الخلل ليست النظافة ابنة الكسل لأنها تستوجب من الافراد والحكومة عملا وجهاداً متواصلا ويستدعى أن تحث عليه الحكومة المحكوم عليهم كما هو الحال فى سويسرا فان بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد فى هذه الحالة من النظافة التى تعجب لها أرقى أمم الحضارة دع شرقياً لا يكاد يقع نظره فى بلاده الا على أقذار فى الشوارع والساحات والحارات بل فى البيوت والحوانيت وخلافى كل شأن من شؤون الحياة الراقية .

وكان من أثر هذه المفاداة التى فادت بها بلديات سويسرا في متصرفياتها أو مديرياتها الاثنين والعشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح وأحسن معلم لبث أفكار النظام والوقار والرفاهية

تتبارى الحكومات والمديريات والادارات الخاصة والعامة فى مضمار النظافة فتجد اقفاصاً من أسلاك لطيفة موضوعة في المدن فى كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور أو الاوراق وربما سار الواحد عدة أمتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة ، وذلك لأن كل سويسرى لا يحب أن يرى متنزهه وشارعه وحيه الا كما يرى بيته طاهراً نقياً ليس فيه ما ينبو عنه النظر . وكيفما انقلبت في سويسرا في القطارات أو المراكب في المحطات والادارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الأمة السويسرية ، وربما نسى الغريب أن يضع ما استغنى عنه من الورق أو غيره فيشير اليه الاهلون بوضعها فى محلها بل ان المفتش فى القطار لا يستنكف أن يرفع اوراقا تتساقط

من ركاب قد يكونون في الأكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين فى النظافة فى كل شيء

ما كانت النظافة فى فطرة السويسريين أو جنسهم بل هى كسبية وثمرة تربية طويلة ومدنية باهرة . ولا جدال فى انهم بنظافتهم أرقى من سكان الجنوب والغرب أى من الطليان والفرنسيس نعم ما كانوا أمس كما هم اليوم والدليل على ذلك ان من البلاد السويسرية مالم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التى لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة الفالى والكريزون والرينتال ، وهى اذا قيست بمقاطعات زوريخ وفو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ولا يزال فى المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ احياء قليلة على شيء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ولكن مثل هذه الاحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تطهر بأسرع ما يمكن وهى نموذج مما كانت عليه سويسرا قبل خمسين أو مائة سنة فاستطاع أهلها بالتربيــة أن يحرزوا فضيلة النظافة التى أصبحوا فيها قدوة الأمم الراقية .

تساءل الباحثون فى حال هذه الأمة فيما اذا كان للدين تأثير فى نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره البردوزا فى كتابه « سويسرا الحديثة »[1] ان الدين أثر بالواسطة لا مباشرة وأن للتربية العملية المقام الاول . فالمقاطعات التى سبقت غيرها فى مضمار العلم وأحب أهلها النظام وتفانوا فى المحافظة عليــه كالمقاطعات الالمانية فى الشمال وأهلها بروتستانت هى أكثر نظافة من مقاطعات الجنوب أى الفالى والتسين والكريزون وأهلها كاثوليك وذلك لان سكان هذه ايطاليون والايطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الالمان وكذلك فى التعليم . ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتى الفوونوشاتل وهما من جنس فرنساوى لا تقلان فى النظافة عن مقاطعتى زوريخ وبرن الالمانيتين

ومهما يكن من اصول السويسريين المانا كانوا أو افرنسيسا أو ايطاليين فان سويسرا أشبه بفسيفساء من الشعوب والعناصر تلاقت وامتزجت وتعاشرت

(١) سويسرا الحديثة لالبردوزا Albert Dauzat: La Suisse Moderne

لا تفرق بينهم الا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من سحناتهم فان أهالى مقاطعتى الفو وفريبورغ وان كانوا فرنسويين بلغتهم فالسحنات الالمانية غالبة عليهم وكذلك ترى فى بعض المقاطعات الالمانية التي تتكلم باللغة الجرمانية أيضاً منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان

نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك بامتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتيني فأخذ السويسرى عن الالمانى صفات التدين والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في الماديات والحقائق واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وجودة الحكم وحسن التقليد والظرف والرأي الدينى فى ابن مقاطعة تسين لا يماثل الرأى الدينى في ابن مقاطعة لوسرن وان كان كلاهما يدين بالكثلكة . والسويسريون الالمان أشد نظاماً من السويسريين الفرنسويين ويغالى الاولون بالاكثر فى توطيد سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم القديمة وحرياتهم المحلية وخصائصهم على العكس في السويسريين الفرنسويين فان هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

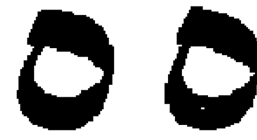
والسويسرى على اختلاف أصوله ولغته افرنسياً كان أو ألمانياً قليل الفضول لا يسألك فى الفندق ولا فى الشارع اذا تعرفت اليه عن مقاصدك ولا يتتبع عوراتك ولا يسألك أسئلة لا تحب ان تجيب عليها على العكس فى السويسرى الايطالى وهو ساكن فى الجنوب طبعاً فانه يملل نزيله وصاحبه بأسئلته ، ومن تركِ الناس وشأنهم في هذه البلاد نشأ في أمم أوربا وأميركا حسن الظن بالسويسريين ، فاختاروا سويسرا مصيفاً ومشتى لأن من تلك الامم ولا سيما الشعوب الانكلوسكسونية من لا يحب أن يسمعك صوته فضلا عن ان يطلعك على عجره وبجره .

وهذا الخلق سرى للحكومة وهى وقانونها صورة من صور الشعب . أكتب هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يوماً وأنا لم أر سوى ثلاثة أو أربعة

من رجال الشرطة بالعرض اقامتهم المديرية بداعي الاعياد فقط ولم أر سوى جندي واحد ، هـذا والمدينة لا تقل نفوسها عن سبعين ألفاً وفيها على الأقل عشرون ألف غريب

هذه هي الجمهورية السعيدة التي أسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والتربية هذا المبلغ من الرقي . وان أكثر مايقع في هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التي لا تخلو منها أرض لا يكون على مارأيت من أنباء الصحف الا من بعض الغرباء وأكثرهم من الطليان والاروام . فبوركت بلاد هذا حالها

سويسرا : النساء والرجال



السويسري كالايطالي والالماني والانكليزي كثير الولد والذرية وأولاده لا يعدون بالزوج بل بالعقد وبلغني أنه ولد لأحدهم من زوجة واحـدة ثلاثون ولداً « فقط لاغير » أما الازواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولداً فهؤلاء أكثر من أن يحصوا فاولاد السويسريين كالبيض أو البرتقال يعـدون بالخمسات والعشرات . وترى الأبوين لا يدهشان لكثرة نسلهما فانهما في الاغلب يلبسانهم ولا سيما في القرى البسة بسـيطة للغاية لا تختلف في الصيف عن الشـتاء كثيراً ويطعمانهم ماحضر من الطعام وأكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الأسمر وقد لا يطعمانهم اللحم الا قليلا اما الخمور فهذه لا تكاد تعرف لأنها محتكرة للحكومة وأثمانها فاحشة لا يصـل الفقير اليها وليست كل المقاطعات مما تجود فيها الكرمة

يلعب الأولاد حول أمهم وفي الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون الى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى ان ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالا

من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا . فتراها من المدرسة الى النزل تخدم في الأوقات المتيسرة لها الى تربية أخيها أوأختها وتعهده الى بيت فلان تغسل لهم الأواني أو غير ذلك

والحكومه تحول دون الأولاد ومايشتهون أحياناً فان أكثر الحدائق العامة لايستطيع الأولاد أن يدخلوها اذا كانوا دون الخامسة عشرة الا اذا كانوا مع كبير من أهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفي بعض المقاطعات يحرم على الفتى أو الفتاة دون الخامسة عشرة أن يخرجا الى الشارع بعد الساعة السابعة ليلا وفي أخرى لايحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل ان له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين .

انتشر فكر الأسرة كثيراً في سويسرا وذلك بتداخل الحكومة أيضاً التي جعلت في جملة المرغبات في الزواج اعفاء المواريث من كل رسم اذا انتقلت الى وارث حقيقي مباشرة كالابن ونحوه وأما اذا كانت تنتقل الى الاباعد فانه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة

وبينا ترى الحياة الصناعية في أوربا بأسرها قد عاقت كثيراً عن تأليف الأسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر في ربوعها البيوت وذلك بأن العامل أو العاملة يعمل في داره مايعرفه من أنواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك . فابن القرى يعمل وهو في بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعي طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من أبناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها واقفار الارياف . فان خلو الدساكر من سكانها هو من أول أسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة الى أميركا مباشرة وكما هو كذلك في فرنسا في الهجرة من قراها الى مدنها والخطب أسهل .

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة في قريتها ماتحسنه من الصناعات في المعمل أو في

بيها بدون أن تنقطع عن محيطها وأسرتها وان تتخلى عن تدبير منزلها والمرأة السويسرية مشتهرة بأنها لاتحب الظهور كل ساعة للناس وهى مخلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتتكر كثيراً بحيث أن السفاسف والزينة لاتشغل من قلبها مكانا فهى امرأة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتماماً غريباً وتظهر حبها للنظام حتى فى عواطفها

مامن بلد فى الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هى فى سويسرا فهي قرينته فى عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشيء ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبه وقد بلغ سـنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللاتى يعملن فى الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حرة ١،٥٧٥،٠٠٠ امرأة . هـذا فى شعب هو اقل من أربعة ملايين فاذا فرضنا ان النساء ١٩٠٠٠٠٠ فى سويسرا وأخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لايبقى الا عدد أقل من القليل غير عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال . وقد أحرزن منـذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات أما حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فانها قلما تهمهن ولذلك كان النساء فى التجارة والصـناعات الحرة أكثر من الرجال . قال لنا رئيس تحرير جريدة « غازت دى لوزان » ان الناس هنا يعملون مهما كانوا أغنياء ولا تكاد ترى عشرة فى مدينـة لوزان لاعمل لهـم على كثرة أغنيائها وأرباب الأملاك فيها

الأخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لان ذلك يسـتدعى أوقات فراغ والفراغ لايعرفه السويسريون والسويسريات . ثم ان المناخ لايساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس مما يحمل على الرغبة فى الحياة البيتية . وسويسرا مثل هولاندة أقل البلاد الاوربية التى يولد فيها أولاد غير شرعيين فهى من هذه الوجهة أقل من ألمانيا ثلاث مرات . وسبب قلة العهر العمل بلا شك لان رأس البطال معمل الشيطان

متى تزوجت المرأة السويسرية تصبح عشيرة الرجل حقاً فهى يوم الاحد تذهب واياه الى الكنيسة وفى المساء الى القهوة . والسويسرى يجد فى عطلة الاحد أحسن فرصة له لأنه يتخلى عن عمله فلا يطلب من أسباب السرور الا أن يكون مع أهل بيته . ويقل اختلاط الشبان والشواب فى أوقات الفراغ حتى يوم الاحد اللهم الا فى الاعياد السنوية النادرة التى تقام فيها مراقص . ويذهب الشبان أيام الآحاد الى الكنائس ولا سيما البرتستانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويعربدون قليلاً ولكنهم يوم الاثنين فى الساعة المعينة تقرأ الرزانة فى وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه فى الحياة الاجتماعية .

تذهب الاسرات مساء الاحد ولاسيما فى سويسرا الالمانية الى أحد الفنادق أو القهوات فترى الامهات والنساء والاخوات جالسات الى منضدة بالقرب من أبنائهن أو أخواتهن أو أزواجهن يشربون جعة وقهوة وقليلا جداً من المشروبات الروحية والرجال يدخنون وربما غنى الحضور ولكن أغانى وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا أغانى هزلية أدبية ولكن لاغرام فيها ولاعشق

المرأة السويسرية قد يعالجها الهرم فى الغالب أكثر من غيرها من النساء المرفهات فى أوربا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزيد فى عقلها ويبقى قلبها على نضارته وأخلاقها على سذاجتها . والسذاجة خلق من أخلاق السويسريين والسويسريات والسويسرى وسط بين حرية الغالى « الفرنساوى » ورصانة الانكليزى . ولئن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لامحل لها من الاعراب فى جملة حال السويسرى فهو مع ذلك لايخامره ريب فى صحة أخلاق بناته وزوجته ويعرف أن اختلاطهن اذا اقتضى الحال بالرجال والخلوة بهم أو رؤية التماثيل المعراة فى المتاحف وعلى قارعات الطريق مما لايلقى أدنى اضطراب فى عفتهن . ومن لم يكن له من نفسه وازع لاتحول الحواجز والأستار بينه وبين ارتكاب الرذائل .

سويسرا : الصفات الاجتماعية

٥٦

أول مايبده المسافر فى سويسرا ضبط المواعيد فان السكك الحديدية كما هى فى أكثر بلاد العالم المتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهوينا فى أصقاعها كأنها هى أيضاً تحب أن تمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الأعمال تسير عجلة فى بطء ولا حاجة لأن يعجل المرء هنا فى المبادرة الى المحطة لأن العالم كلهم مدققون فى أوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها

الصلابة والثبات صفتان لازمتان للسويسرى وقد كان المشهور ان الفرنسويين أكثر الأمم اقتصاداً ولكن ظهر أن السويسريين يفوقونهم فانهم أول أمة أوربية تحسن استخدام أموالها ويليها الأمم السكاندينافية وقد تجاوز ماوضعه ١٬٣٠٠٬٠٠٠ من السكان فى صناديق التوفير مليار فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا مما لا يكاد يكون له نظير : ثلث الأمة تقتصد وتجمع المال الذى لاتحتاج اليه !

لاتردد فى أخلاق السويسرى يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو اما أن يقول نعم أولا . ليتمثل لك ذلك فى المشاريع واللوائح التى توضع وتسن مما يقتضى تنفيذه عند غيرهم سنين . أما هنا فاذا أريد القيام بعمل تبدأ الصحف باعداد الأفكار له وتلقى المحاضرات فيضع أحد النواب أو الحكومة مشروع القانون الجديد واذا اقتضى الحال تصدق عليه الأمة ويخضع له كل الناس واذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسرى يصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فان من الخطوط مايمد فى عشرين سنة ولا يكون طوله أكثر من عشرين كيلو متراً ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهى فى الآخر

اذا كان السويسريون عنودين فذلك لانهم عمليون لانظريون في أعمالهم قلما يطيرون وراء الخيالات . وقديماً نبغ فى السويسريين فلاسفة أمثال جان جاك روسو الذى ولد فى جنيف أما اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ لهم أهل عمل أقرب الى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج تخلف رجال الاعمال رجال الخيال .

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة فى بلاد شحيحة بخيراتها صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لا تسير به الحركة الاقتصادية على محورها . فليس فيها فحم حجرى ولا معادن للصناعة ولا شواطيء بحرية ولا أنهار عظمي للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى أقيمت على التخوم فى الجنوب والشرق والشمال وربعها غير صالح للزراعة لأنه مألف الثلوج والجليد طول السنة أوصخور لا ترتقى وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشتاء يطول ويشتد فى بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج برمتها وبحيرات هى كالخال فى عنق ذات الجمال والدلال ولكن الانسان العاقل يغلب الطبيعة أو يعرف كيف يستخدمها فان تلك الحواجز الجبلية قد خرقتها السكك الحديدية بحيث ان سويسرا بعد ان كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين ايطاليا وألمانيا أصبحت الصلة اللازمة بينها فشق القطار جميع الاصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع البعيدة عن التركيب الاجتماعى يحمل اليها مائية الحياة الاقتصادية ورشاشة من بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجرى الاسود بما عندها من الفحم الابيض وأحسنت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الاولية تجلب من الخارج ولكنها تعود بارباح فائقة فان ثلاثة أرباع صادراتها هى من حاصلات بذلت فيها اليد السويسرية وغيرت مثل القطن والحرير والشكولاتا وأنواع المطرزات والساعات أحسنوا هنا استخدام جميع التربة الصالحة للزراعة على أحدث الطرق الزراعية المنوعة فوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن والزبدة والجبن حتى ان بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ فى المئة من

البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من اقامة الفنادق والانزال ليأوى اليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون ان يرجعوا شهراً أو شهرين الى الطبيعة فليس فى سويسرا حيوانها وجمادها وانسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر فى سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك فى حياتهم العامة فلا تجد فى الممالك مكاتب أشغال تنظر الى الجواهر لا الى العرض مثل مكاتبهم ولا ادارات أقل تشبثاً بالاعمال القرطاسية من اداراتهم . فهم فى هذا الباب يصلحون أساتذة للفرنسيس والطليان والالمان . دخلت كثيراً من المصارف والبيوت المالية فى مصر والشام وباريز ورومية فلم أشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التى يتلقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذاك التطويل الممل الذى يشاهد فى مصارف الشرق والغرب على الغالب . وهكذا هم فى كل أعمالهم الاشتراكية الاجتماعية . ومن أغرب مايسمع أن مدينة بال ارتأت أن تستوفى الضرائب من الاهلين فى بطاقات بريدية فتم هذا العمل فى أسرع مايمكن ولم ينتظر المكلف فى شباك البريد أكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفاً من أجور الجباة وتيسيراً على الناس

اختار السويسريون السهولة حتى فى أصول التعليم فى مدارسهم فلا يخرجون اليوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال أعمال لا رجال آمال وخيال. يخرجون رجل الغد على ماينبغى له فى جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والأدباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين . يعلمون أموراً تنفع الطالب فى الحال ويلقنونه العمليات وحب الاعمال المنتجة . يرى السويسريون الآن فى الامة كثيراً من المخترعين المتوسطين والمفننين الجائعين والكتاب الذين لا قرائح لهم وكلهم لا فائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وان كان متوسطاً أفيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقى لاينتفع به فى شيء

ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب أقطارها فكلية بال مثلا يتفنن

أساتذتها فى تعليم الطلاب حسن استخدام الالوان فى كل أبحاثهم الكيماوية لان البلاد صناعية ولكليتى زوريخ وفريبورغ فرعان تجاريان ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعى فى سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمصالح فى كل مقاطعة فالمدارس الزراعية منوعة وهى مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسرى تمنحها اعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفى سويسرا مدارس نظرية وعملية زراعية ومدارس زراعية للشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدرار الالبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات أو للبلديات وتقيم شركة التجار السويسرية كثيراً من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التى لا يستطيع فيها المرء بمفرده أن يعمل مايقاوم الطبيعة التى لا تشفق أحس السويسرى بضرورة التضامن وشعر بالحاجة الى التساند والعمل يداً واحدة وترتيب الجهاد على مايجب، الجبلى قاس وفطرى وهو كريم المثوى واقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كما هى عند الايكوسيين فى انكلترا أو العرب فى بلادهم . ولا تزال هذه السنة الى اليوم كما كانت أمس ولكن الأجيال الجديدة مالت الى الحقائق أكثر من أجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهى صناعة الفنادق والانزال

وربما يبلغ التضامن عند أمة مابلغه عند السويسريين فان حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات أكبر دليل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ أحقاب فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الأخويات القديمة حتى ارتبط المستخدمون والتجار والصناع والزراع فى سويسرا بنقابات لا ليكون من أثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والاضراب عن العمل بل ليكون منها عموم النفع والشركات المحلية متحدة كل مديرية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهذا فى جماعات العملة والمعلمين . وأصحاب الفنادق بل المطاهى متحدة

بعضها مع بعض وما الحكومة السويسرية اذا نظرنا اليها من حيث المجموع الا اتحاد واسع من النقابات السياسية

لاتزال بقايا الملك المشترك الذى كان معروفاً فى القرون الوسطى فى الغرب ولم يبرح معروفاً بعضه فى الشرق قائمة على أتمها ولا سيما فى الاصقاع التى بقيت على فطرتها فان السكان الى الآن فى وادي انيفرس يحلبون الابقار بالاشتراك والكل الحق على نسبة ملكه فى حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال عشرين سنة سوى شكويين . وكثيراً ما تكون بقرة أو بغل أو بيت مشاعاً بين عدة مالكين وكثير من المراعى الجبلية هى أملاك بعض رؤساء الأسر وفى كل قرية تملك الاسرة بيتاً خاصاً أو مشاعاً بين أهلها .

وصناعة الجبن فى أكثر بلاد سويسرا تقوم بأيدي شركات مرتبطة بجماعات المستخرجين للجبن وفى مقاطعة الفالى حيث تقل المياه تروى البلاد باقنية جلبت مياهها من بعيد على مسافة ٤٨ كيلو متراً وكل قناة عملت وأديرت على يد جماعة من أرباب الاملاك ينتخب رئيس شركتها أصحاب الأراضى التى هى آخذة بالتقسيم والتجزئة

وبعد فاذا كان الشعور بالتضامن العملى والنظرى هو على أتمه فى سويسرا فان الفكر الوطنى والنظام الاختيارى والضمير الافرادى المشاهد فى أخلاق الوطنى السويسرى جدير بالاعجاب من كل وجه فالسويسرى يعرف واجبه نحو المجتمع والحكومة ويخالف فى ذلك الشعوب اللاتينية التى تحب الخلاف بفطرتها والشعب الألمانى الذى يخنع للسلطة ادارية وعسكرية على صورة غريبة وذلك باطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لأوامر الامبراطور ولكن الوطنى السويسرى يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاه بحريته . والفكر الوطنى فى سويسرا الالمانية أشد منه فى سويسرا اللاتينية وان كانتا فى وطنيتهما فى الحقيقة كاسنان المشط فى الاستواء . وسويسرا الفرنساوية هى مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف ولوزان، وسويسرا الايطالية مقاطعتا التسين والغريزون وما عدا هذه الست مديريات أى الأربع عشرة مديرية فهي ألمانية

السويسرى الالمانى خصوصاً لا يستنكف من أن يشكو كل من يخالف الأمر والنظام لان لكل شاك الحق بنصف الغرامة وقليل جداً من يشتكى منهم ولذا فليس من العبث ماتقرأه على المنعطفات وفى مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فان هؤلاء قد عرفوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعته فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال أن يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجناتهم بل يعملون بما فيه حفظها على مايستلزمه حبهم لبلادهم وأعجابهم بها . ورجال الادارة يجتهدون أن يعلموا الشعب وان يؤهلوه ليخدم نفسه بنفسه بدلا من أن يعتبروه ولداً يجب على الدوام الأخذ بيده وقيادته ولهذا أمثال كثيرة تعد بالعشرات مما لامثيل له عند الأمم الأخرى

وندر جداً فى السويسريين من يستحلون أكل مال خزينة الأمة أى ان يخفوا عن الحكومة مايحق لها أخذ رسوم وضرائب منه ولا سيما فى سويسرا الالمانية وان كان بعض أرباب الغايات وهم لاتخلو منهم أمة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة أحياناً فى سبيل بعض الاعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما أرادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما أرادت منع شراب الابسنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الابسنت بالاكثرية وحسنت صحة البلاد .

لاجرم ان هذا الشعب الذى صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فان من يضرب صفحاً عن شهواته المادية لنفع المصلحة العامة ومن يفادى براحته وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لاجل مصلحة وطنه يعد من الشعوب التى تحيا حياة طيبة . اللهم انى أحسد الشعب السويسرى حسد غبطة على هذه الأخلاق الفاضلة واصاب اليك أن ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لايموت بفساد أخلاقه وقلة علمه ميتة جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة

سويسرا: قيودها في الحرية

٥٧

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالي سويسرا الالمانية الحالية أي في أرض ألمانيا وانضموا نحو القرن الأول قبل المسيح الى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة وأخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسي الذي سميت سويسرا باسمه « هلفسياً » - رضع هذا الخلق مع لبن أجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون وما كان أشراف القرون الخالية ولا حكومة الرومان التي استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الاساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين في كثير من بلاد أوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون ان يشددوا الوطأة على السويسريين لأنهم أشداء من وراء النشأة الجبلية متضامنون بينهم اخوان في السراء والضراء

من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسري ويرى أن حروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيراً ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بتفزيعهم وتشتيتهم فقط أو بامطارهم الاحجار من الاعالي أو القائهم في البحيرات ارهاباً وما أظن أنه سبق في التاريخ أن محارباً يجيء معتدياً على بلد ويحاصرها ثلاثة أشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الاقدار ويفيض نهر فيحمل جسراً عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بانقاذ الغرقى كما وقع لمدينة سولور السويسرية فان صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهي مستقلة ثلاثة أشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلا من أن يغتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الغرقى فانقذوا منهم عدداً كثيراً فلما رأى الملك ليوبولد من السلوريين هذه الشهامة تأثر جداً وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك في القرن الرابع عشر

تعلم الهفلسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياد على الشورى وحكم أنفسهم بأنفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد أراد ان يعقد معه صلحاً فطلب قيصر الى الهلفسيين رهائن فقال ديفيكو . « تريد رهائن وقد علمنا آباؤنا ان نأخذها لاان نعطيها وكان على الرومان ان يذكروا ذلك » . ولكنك ترى اليوم هذه الامة مع مابلغته من الحرية التى لم تعهد لغيرها تتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعاً لبلادها علماً منها بأن الحرية المطلقة لايمكن حصولها فى مكان من المجتمع وهى بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة

السويسريون يرون فى كل مكان المصلحة العامة ويتركون لها برضاهم ضغار مطالبهم النفسية ويطالبون خاصة بتطبيق حقوق الفرد الأولية فلايسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة .

السويسرى لايستطيع مع مانال من الحرية ان يقطع شجرة من غابته الاباذن حكومته ولا ان يضمن داره من الحريق الا عند حكومته لانها هى ضامنة من الحريق ولا ان يلقى ورقا ولاغصناً فى احدى البحيرات فضلا عن الاقذار والاوخام فسويسرا التى احتفظت بحقوقها فى عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة فى مصالحها على ماهى الطريقة المتبعة فى ادارة البلاد الجرمانية وذلك بان يكون للحكومة اشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الافراد والمجتمع

حرية الضمير والرأى والعبادة مضمونة فى أرض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسرى الاساسى ولكن لا بصورة مبهمة بل ان لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر ويطبق بحسن ارتقاء الشعب وأخلاقه . وحرية الصحافة لم تنقلب قط الى عداء ومما حكات ومع شدة الانتقاد والجدال فى المنازع السياسية فان لها حداً تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية ولذلك كانت صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الامم الاخرى وربما كانت هى والصحف الانكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب

أما نشر السفاهات والغراميات والخلاعيات فهذا لو جسر على نشره صحافي لايجد من الامة من يقرأه فيسقط بطبيعته . ومن الغريب انك تجد فى سويسرا كنيسة يصلى فيها أهل مذهبين من المذاهب النصرانيـة وجريدة هى لسان حال حزبين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشـتراكى ، فالقارئ يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد

لاجرم انالقرون الخالية وحوادث الايام قد دربت السويسريين طويلا على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح أزماناً فصاروا يقدرون نعمة السلام والوئام وما تعقلهم الحالى الا ثمرة نضجت على مهل بعـد ان ذاق أصحابها فى انتظارها وتـكييفها على هذه الحالة نصباً ، حرية العمل وحرية الاشـتراك فى سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف بنقابات العمال وبحقوق اعتصابهم ، ومن تلك نشأ احترام المعتصبين لحق المخالفين لهم فى الاضراب عن العمل ؛ ومع هذا تجد الاعتصابات أقل مما هى عند الامم الصناعية الاخرى والاجور تزيد بزيادة غلاء الحاجيات وارتفاع أسعار الـكماليات لان العملة يتفاهمون ويجتمعون على الدوام مع زعمائهم ؛ وكذلك حق حماية سويسرا للمظلومين ، ولا سيما السياسيين ، فانه أرقى مما عند الامم الأخرى ، ولـكن سويسرا لا تحمى القاتل ، وكـثيرا ما تعمد بعض مقاطعاتها الى اخراج السفاكين وأرباب الدعارة من غير أبنائها الى خارج الحدود .

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطنى عندالسويسريين منذعهد المدرسة الابتدائية . وليس فى سويسرا على الجملة مدارس داخلية ، بل ان الطلبة الذين يرحلون من قراهم وبلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الأسر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشاً متـكلفاً كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له فى الحياةولا يخضع لقوانين جائرة ، وهو الذى يحتاج فى بدء نموه الى الهواء والشمس والانطلاق ، ومن علماء التربية هنا من بالغوا فى منح اعطاء الطلبة حريتهم وأنشأوالهم مدارس التربية الذاتية أوالحـكم الذاتى فيتألفون أولاداً منسن الثانية عشرة الىالسادسة

عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم أمرهم والمعلمون لا يعملون الا أن يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الأولاد الاستقلال والحياة العمومية ، فالاولاد يختارون رئيسهم وهيأتهم الادارية وأمين صندوقهم . ويكون اختيارهم حسناً جداً فى الاغلب ويجيدون فى مناقشة القانون الذى يضعه مديرهم ، وتصح أحكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم ، فلا يسرق شئ من مال الصندوق ولو كان الأمين عليه فى الثانية عشرة من عمره تحدثه نفسه أن يبتاع ببعض الدريهمات حلواء أو شكولاتا أو ملبساً يأكلها أو كرة يلعب بها ، فكأن سويسرا خلقت بدون أولاد أو ان التربية جعلت أولادها رجالا ونساءها كذلك

حرية الصيد البري والصيد النهرى والبحيري محدودة مقيدة فى بعض الاوقات وعلى بعض المحال . ورجال الصحة يمنعون كل شيء اذا اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الانسان او الحيوان فيمتنع أحد من الدخول الى تلك المحال الموبوءة أو الخروج منها ولا ينبس أحد ببنت شفة اعتراضاً على ما حصل وقانون العمل وتحديد أوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على صورة معقولة فيتمتعون به بشيء من الراحة والحكومة تتداخل فى حياة الوطنيين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الافراد الذين يقدرونها بانفسهم أولا وللحكومة ألحق أن تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته .

لكل عمل فى سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات فى الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئاً بتعديه حمى لا ينبغى السير فيه أو اتيانه عملا يعد منكراً فى عرف القوم وهو عند غيرهم مباح وأي مباح مثل منع دوس العشب فى المروج عند ما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الالب وسير المرء فى بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع فى ذلك الاولاد والرجال مخافة أن تحدث أحد الشرهين نفسه بان يقتطف خصلة من الكرم . واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها

ويمنع على بعض الجسور الخشب فى بعض المقاطعات أن يدخن المرء او يحمل قداحة ويوقف حيوانات ويجمع اجتماعات وهكذا تراهم يفرضون فروضاً ربما لاتقع مرة فى العمر ويكتبون لها اللوحات ويضعون على من تعدى عليها الغرامات .

هذه قيود للحرية وضمانات لها فى آن واحد لان الشعب مهما بلغ من رقيه هو كقطيع الغنم لايخلو من جرباء وفى الا كثر يكون المقصود من هذه القيود الاجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم . عادة البصاق ممنوعة قطعاً في كل مكان ولا سيما فى القطارات حتى أن بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ : « احتراماً لبيت الله المرجو الامتناع عن البصاق » ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات وللمدخنين مركبات خاصة كما أن للسكارى كذلك . واذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار أحدهما يريد فتح النافذة والآخر يأباه فالحكم فى ذلك لرئيس القطار فهو الذى يحكم بين المختلفين وهذا أيضاً من جملة ما قدروه من الاحتمالات فى أنواع الحريات .

سويسرا أرض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لاتخلو من قيد في كل حال خلافاً لما يتصوره بعض الخياليين

سويسرا : حياتها السياسية

٥٨

ليست سويسرا جمهورية بل فسيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة براقة غريبة فى حجمها ونظامها وأفكارها وأخلاقها السياسية . فمن مقاطعاتها ماهو صغير ومنها ماهو كبير ومنها ما تدار المدينة فيه بادارة غير ادارة القرى المجاورة لها ومنها ماهو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها أو أرباض . ومنها

من يدين أهلها بالكثلكة وأخري بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبين ومنها ما ينتمى الى الحزب الا كليركى وأخرى محافظة متنطعة فى مذهبهاوغيرها متطرفة فى اشترا كيتها ومنها التى تقدم نوافذ للعذراء مثل فريبورغ فى حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة

وفى الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقى لاتزال الحكومة المعروفةبحكومة البطارقة على الحالة التى كانت عليها على عهد الالمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زوريخ وبال احاطتا علما بكل دقائق المجالس النيابية فتضعان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس المال وتختاران بعض الاصناف للحكومة وتختار أن طريقة الانتخاب على نسبة العدد ، عادات زوفجية قديمة الى جنب الاختراعات السياسية فى القرن العشرين

قطعة من الجبال والاودية والبحيرات لا تبلغ مساحتها ثلث مساحة ولاية سورية ونفوسها لايزيدون كثيراً عن نفوس بر الشام كله وحكومتها فى مديرياتها والاصح أن يقال فى ممالكها لان لكل مقاطعة حكومة كانها مملكة مستقلة أنواع منوعة وهذا لتكون عندهم اللامركزية على أشدها ويستمتع أهل كل ناحية مهما صغرت بفضل مايرونه الانسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحى التى تختلف ادارتها بحسب الاقليم

فى غرب البلاد يسيرون على الطرق الفرنساوية وفى سويسرا الالمانية لكل بلد نظام والمرجع واحد ، هنا تجبى الناحية الضرائب وهناك تسمح لها وارادتها أن لا تطالب المكلفين بقرش ، الاستقلال الادارى الى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف ، المركزية فى سويسرا الفرنساوية أكثر من غيرها فى حين ترى نواحى ابينزل الالمانية جمهوريات صغرى أو جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة الا قليلا

وبهذا التغيير الكثير ساغ الانظمة والاوضاع أن توافق أخلاق كل صقع وضروريانه وحاجات سكانه ورغائبهم التى تختلف باختلاف نوع الحياة . فالتعليم

مثلا اجبارى فى البلاد كلها يقضى على كل ولد أن يصرف فى المدرسـة من سن السادسة الى الرابعة عشرة يتعلم فيها أموراً مشتركة بين المقاطعات كلها وما عـدا ذلك فكل مديرية حرة بأن تنظم مدارسها على طريقتها وهى تطلق للنواحي حريتها أيضاً فى بعض الامور مدة التعليم تسعة أشهر فى السنة ، ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر ايلول الى أول كانون الاول وهو الزمن الذى تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى فى المروج الى أوائل نزول الثلج تحت ملاحظة أولاد تلك القرى .

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها الا كل مكابر . يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحى تنوعها وغرابتها ويبث روح الحياة المحلية والهمم الافرادية ويزيد فى ارتباط المرء بوطنه الصغير ، وهذه أحسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحبيبه اليه ، لكل مديرية وطنيتها فلها أعلام خاصة بها وألوان لا تشاركها فيها جارتها ولها أسلحة ولها شارات ، وفى جميع الأعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية الى جنب اعلام الاتحاد السويسرى مثل دب برن وثور اورى ومفاتيح اونتروالد وكواكب فالى ومطرقة سان غال ، لان كل مديرية هى مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها وامجادها ، فهى ليست مديرية بالمعنى الذي نتصوره فى مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعى بل هى عضو حى نام واحد متماسك الاجزاء فى الجسم الاجتماعى .

وربما قيل ان تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة مما يفرق اجزاء الحياة السياسية فتختلف الاحزاب وتكثر فلا يستطيع مجلس النواب العام ان يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فان ارادة الأمة تسرى حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل ان هذه اللامركزية المفرطة تشغل أهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لارقى مما يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائدهم المحلية فانها كلها جرائد خاصة بدائرة لا تتعداها ،

ولا سيما فى سويسرا الالمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال «دى جنيف» « وغازت دى لوزان » و « البوند » وهى الصحف الجوالة الراقية لكان من يعيش فى سويسرا أشبه بمن يعيش فى قطر منعزل لأن السويسريين لا يهتمون الا لزراعتهم وتجارتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فمعرفته وعدمها سواء ولكثرة هذا التغالى فى اللامركزية خيف فى القرن الماضى من تشتت الكلمة بتعدد النظامات. فاتحدت أكثر القوانين العامة والمدنية واتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجرك وسير السيارات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها فى الشؤون العامة متحدة . وحدثت من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على أن تحتكر الحكومة كلها الخمور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعية الخمر وحسنت نوعه وقل السكيرون والمعربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشرة لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية ! . وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى ماعدا الخطوط الصغيرة المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمناً وذلك بدون أن تضرب ضرائب ولا ان تعقد قرضاً أو تحتال حيلة فان باجتماع الخطوط تحت ادارة واحدة قلت النفقات وكثر الاقبال فأخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوى مدة ٥٦ سنة يعطي المليار فرنك الذى يدفع ثمناً للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل للضمان من الحوادث والامراض لا لطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلا بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلام وزمن الحرب . ومن الغريب المدهش ان تضمن حكومة أرواح محكوميها من رصاص العدو وقنابله وهذا لامثيل له فى المدنية الحديثة . ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلاً لتنفق عليهم أيام عجزهم ماأخذته منهم أيام شبابهم وذلك لعلمها بان دور الشيخوخة طبيعي لا بد لكل واحد ان يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا

سناً معينة هو مكافأة على عدم الحساب للعواقب وللكسل وللسكر . ولذلك لا ترى فى سويسرا من لا يعمل أما الشحاذة فلا أثر لها ولا اسم . والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لادارة البريد والبرق ولكن للافراد أن يضعوا فى محالهم كدائقهم أو منازلهم أو فنادقهم ما أحبوا من مثلها .

السويسريون عريقون فى الديمقراطية بكل ما فيها من المعاني تأصلت فى نفوسهم وتشربتها دماؤهم منـــذ قرون طويلة . قال لى أحد مديرى الصحف الكبرى فى لوزان انى لا أستطيع أن أعامل عمالى والمستخدمين فى ادارتى الا معاملة الكفاة ثم آمرهم ولـكننى احاسنهم فى معاملتى كما أحاسن رصفائى فى التحرير وأصدقائى

وما ذلك الا لأن الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية أميركا الشمالية التى يرد تاريخها الى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التى بلغت ٤٣ سـنة من العمر بالنســبة لجمهوريات الاتحاد السويسرى الا بنات وأطفال لجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى فى السويسرى شعوراً طبيعياً فى المساواة وليس فى جمهوريته أوسمة ولا القاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على أمته ترفعه على رأسها فى حياته ومماته . ورئيس الجمهورية السويسريه هو من أهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر أبناء السبيل فى شوارع مدينة برن شيء من الأبهة والعظمة التى يبـدو بها فى بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالى والقائد والوزير ولا تجد تشريفات فى سراى الاتحاد السويسرى التى تضم اليها مجلس الأمة ومجلس الاقاليم وينتخب مجلس الاتحاد السويسرى كل سـنة رئيساً يتولى رئاســة المجلس ورئاسة جمهورية هلفسيا السعيدة وليس هو فى الحقيقة الا عميد مستشاريه الستة

ولا تشهد فى بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة فى أيدى المتولين عليها على نحو مايقع فى الامم النيابية فان المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الازمات الوزارية التى تسمع بها فى الممالك الدستورية واذا حدث خلاف بين المجلس والحكومة يتفاهمان بحرية اذا لم يتيسر لهما الاتفاق

ويخضع المجلس الاتحادى أى الوزارة لارادة مجلس النواب والاقاليم كما أن هذين المجلسين لايماحكان ولا يراوغان . فمجلس الامة لايقلب الحكومة التى ينتخب مستشاروها السبعة أو وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لانهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة فى العمل ورئيس مجلس الاتحادالسويسرى أورئيس الجمهورية ينتخبه رصفاؤه الستة كل سنة ويعمل واياهم باخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الاعوام والرئيس لم يتغير لأنه اذا عمل العمل الصالح وهو لايعمل غيره بالطبيعة لايرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فاعضاء المجلس الاتحادى يتناول أحدهم عن كل جلسة عشرين فرنكا ويمكن أن يبلغ مجموع مايتناوله أحدهم فى السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط أما نواب الاقاليم فيتناول عضو البلدعن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القريةسبعة فيكون للواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ الى ٢٨٠ فرنكافى السنةورواتب مستشارى المملكة ووزراؤها ١٥ ألف فرنك لكل واحدمساناة وراتب رئيسهم أى رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ ألف فرنك مسانهة ولذلك قد يضطر المسكين اذا كانت له أسرة كبيرة ان يشتغل أحياناً أعمالا أخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لاعلى أنه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الأهالى

الاخلاص هو الخلق الجوهرى فى الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب أن يبقى كذلك . وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر ارادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام . حتى ان بعض الاقاليم لاتزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو تحافظ على الحكومة التى تحكمها مباشرة بمعنى أن مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الاقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التى أعدها المستشارون الذين انتخبوا فى السنة الفائتة

فى سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الاحرار يتناقشان فى مصلحة

البلاد ولكن اذا تولت الأكثرية زمام المجالس لا تنحى على الاقلية بل ترى من مصلحتها ان تقبل اعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكى ولكن لا تأثيرله لأن الأمة اشتراكية بطبيعتها . قال لى المسيو جان سبيرواستاذ العربية فى كلية لوزان: عندنا حزبان وانا من حزب الاحرار ولكننى لا أجدفرقاً بين الحزبين يصح أن يعد فرقاً ولذلك فكلنا حزب واحد فى الحقيقة . فبارك الله بامة مهما تعددت مناحيها وأصولها وأهويتها ودرجة غناها وأعمالها لاتختلف فى المصلحة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر

سويسرا : الوطنية والجيش

٥٩

قالت العرب : احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من أراد السلم فليكن أبداً على استعداد للحرب . هاتان القاعدتان جرت عليهما سويسرا وبعد فمن يظن ان هذه الامة التى تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تتمرن ليلها ونهارها على الاعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند أول صرخة أن تجهز ١٨٠ ألفاً من الجند الذين يحسنون الرماية كأحسن أهلها ويعلمون عما يدافعون ويأتون الى أى مكان من حدودهم فى سرعة البخار ثم يستطيعون أن تجهزوا ١٤٠ ألفاً من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد فى الدرجة الثالثة وتجهيزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لاشائبة فيها كأعمالهم .

قسم السويسريون الخدمة العسكرية الى عدة أدوار حتى لاتثقل عليهم وينقطعوا بتاتاً عن أعمالهم وبيوتهم ويخففوا عن أمتهم نفقة اطعامهم وايوائهم فبدلا من أن يقضى الشاب السويسرى سنتين أو ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الامم لا يبقون فى الخدمة الا أشهراً معدودة في السنة الاولى ولكن

المرء يبقى جنديا من العشرين الى الاربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم فى مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الاربع السنين وتكون عنده بندقيته يتعلم فيها فى بيته وحقله ولا يستعملها الا لهذا الغرض . والولد منذ المدرسة الابتدائية الى المدرسة العليا الى الكلية يتعلم التعليم العسكرى وهو تحت ملاحظة الضباط الذين يأتون أحياناً للتحقيق عن أمره والاشراف على رمايته وفحص سلاحه الذى تعطيه اياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب باشد العقوبات وهيهات ان تجد مخالفاً .

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها أسباب النزاع لان قلة عددها بين أمم كبرى لا يجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسرى للطوارىء وتمرينه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست الى عداء وحب فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا كل سنة تعطى منحة لمكتب السلام فى برن ولكنها باليد الاخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ماتقدر عليه من القوة وتزيد فى ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنعها الحياد ان تعمد الى الطرق العملية كسائر أعمالها فى فروع الحياة لأن أرضها لا تحمى الا اذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهود التى تداس بالارجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغانم

سويسرا لا تريد أن تكون طعمة سهلة لكل آكل ولا تخاف فى الاغلب أن تداهمها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر فى الاكثر من الشمال تخاف عادية المانيا وان تضمها هذه ذات يوم بالقوة الى أرضها كما فعلت بمقاطعة شلشويق هولستاين وهانوفروهيس وفرنكفورت والالزاس واللورين واخوف ما تخاف من عادية ايطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعلى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسمبلون . فان كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لانهم يحبونها حباً يمازج أجزاء نفوسهم ولا شيء أحسن وأضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه .

قال أحدهم : أن سويسرا ليست من البلاد التى تبقى لضرورة فى بقائها كانكلترا واسبانيا بل أنها لم تبق الا لان السويسريين يريدون بقاءها . نعم أن الارادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع القوى فان سويسرا لم تتألف عرضاً أو لارادة المتعاقدين المتحدين من أبنائها بل انها اجتمعت لاتفاقها فى العواطف والروح وبمالها من التقاليد المتماثلة والماضى والمجد الذى يتجسم كل حين باسم « غليوم تل » بطلها القديم

و « غليوم تل » هو أحد رجال الثورة الذين انقذوا سويسرا من ربقة النمسا سنة ١٣٠٧ م وذلك أن عامل الامبراطور النمساوى كان علق قبعة « الدوج » على رأس خشبة فى الساحة العامة فى « التورف » وأراد أن يذل السويسريين بان يسلموا على القبعة كلما مروا بها فابى أن يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستدعاه الوالى النمساوى ولما عرف أنه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء أبائه أن يضرب سهماً على تفاحة وضعها الوالى على رأس ابن غليوم تل فلم يسع هذا الا أن القى سهمه فأصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما سأله الوالى لماذا أعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها نادى يالثارات سويسرا وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين فى أوقات مختلفة كان يكتب فيها النصر للسويسريين لأنهم مدافعون لامهاجمون .

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم فى بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدى فى ايطاليا أحيا أمته بشجاعته ، ومن أجل هذا التاريخ المعنعن بالواقع لا ترى السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الألمانية وهم الأكثرية أو الافرنسية أو الايطالية أو الرومانشية تحدثهم نفوسهم ان ينضموا الى أبناء جنسهم بل انك ترى السويسرى وأبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده تغربوا فى ايطاليا وألمانيا والنمسا وفرنسا قرنا وأكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم ، وقد عرض مرة على أحد علمائهم « ادوار وود » وكان باريزيا فى موطنه فقط ، وسويسريا بجنسيته أن يتجنس بالجنسية الفرنسوية لينتخب عضواً فى المجمع العلمى مجمع الأربعين المخلدين

فقال والسذاجة طافحة من كلامه : انى أحب فرنسا وأسكن باريز ، ولكننى سويسرى مات والدى ووالدتى فى سويسرا وأنا لا أكون فى المجمع العلمى ، هذه هى الوطنية السويسرية متأصلة فى شغاف القلوب ، ولكنها ساذجة لا تتعمد الصياح ولا التظاهر ولا تجد داعياً للتبجح بها كل حين .

وطنية السويسريين فى صدورهم مكتومة لها أعياد وحفلات ومصانع وتذكارات تذكرهم الساعة بعد الساعة بما بذل أجدادهم من اهراق دمائهم فى دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم أن يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل النادر . دع ما ينشره علماؤهم وأدباؤهم من المصنفات الممتعة التى كلها ترمى الى تحبيب وطنهم اليهم وتلقن أبناءهم منذ نعومة أظفارهم التعليم الوطنى فى المدارس وتلامذة مدارسهم يتغنون فى كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسيه الوطنية التى نظمها الشاعر السويسرى جوست اوليفيه ، ويتلون الفترة بعد الفترة ما وصف الشاعر الكاتب اوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها وأوديتها وبحيراتها فيزيد هيامهم بأرضهم .

السويسريون لا يقنعون أن يحبوا بلادهم حباً مجرداً بل يزورونها بعناية واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفاً وشتاء ٢٢ فى المئة من مجموع السياح القادمين الى سويسرا ينتقلون فى جبالها وأوديتها وترى العامى منهم اذا اجتاز أرضاً لم يعرفها بعد يقف فى القطار مأخوذاً بما يمر به من الأصقاع بحيث لا يفوته منها جميل واذا ذهبت الى القرى أتاك بعض أهلها بدون طلب منك وحدثوك عما تجب زيارته من المحال البديعة فى جوارهم . فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم العجب وربما كانوا أكثر الأمم المجاورة فى طربهم بما خصت به جبال الألب من المحاسن التى تخلب الألباب .

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل انهم فى مقدمة الرماة فى أوربا لأن بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها الامناوشة وكميناً فترى فى كل قرية جمعية للرمى وتقام له الأعياد . وكل سويسرى فى سن العسكرية فلاحاً

كان أو ساكن المدينة يصرف مع رفقته يوم الأحد ساعات طويلة فى التدرب على الرماية وفى كل بيت بندقية أو عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن أنفسهم وبلادهم كأنهم لايزالون فى عهد الاقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه وأسرته ولكن هذا شأن الامة المسلحة بسلاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية العلميه التى لم تكن فى القرون الوسطى .

ضباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعليم الحربى وأكثره عملى فى الغالب وهم فى الاكثر من أبناء الفلاحين يعاشرون الافراد ويواكلونهم وطعام الجنود من أحسن مايعهدولهم مطابخ تنتقل معهم فى المناورات فتراهم فى كل وقت يتناولون الطعام الصحى الفاخر الذى لايوجد الا فى المدن وفى حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيما فى المشاة وفرنكا فى الفرسان وهو أحسن راتب يقبضه جندى فى جميع أمم أوربا لان هذه عجزت عن اطعامهم والباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع أدرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن أهله من الجند الا من دخل فى جيش الفرسان فالسويسرى سعيد فى كل حال من أحواله مرتب فى حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض فى عامة أعماله ولذلك لاتراه يشكو شيئاً على نحو مايشكو ابن البلاد الراقية الاخرى الذى يرزح تحت أثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته . قال لى كثيرون نحن سعداء فى بلادنا فكنت أقول لهم بارك الله بسعادتكم التى أحرزتموها بجدكم ورزق شرقنا المسكين بعض ماأنتم فيه انه كريم جواد

سويسرا : المذاهب والقوميات واللغات

٦٠

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التى تدل على روح شعب وقد كان لهما فى الارض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة حرية الغير مشاكل فى

الماضى ولكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الاصغر ثم امتزج أهل كل دين وأهل كل لسان امتزاجاً فى البلاد فلم ينشأ فى سويسرا مشاكل تذكر كما نشأ فى بعض البلاد التى تنازعتها البرتستانتية والكاثوليكية أو الارثوذكسية والاسرائيلية أو مذاهب أهل السنة والشيعة فى الاسلام .

المذهبان السائدان فى سويسرا هما البرتستانتية والكاثوليكية ولما انتشر المذهب البرتستانتى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من أبناء البلاد أخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسمياً واجبارياً وتدعو اليه فى أرضها وتحتم على الاهلين حضور الصلاة به وان كانوا لا ينتحلون هذا المذهب . وهو شىء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتى ثم أخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانت أكثر عدداً من الكاثوليك بقليل .

قال دوزا : اذا كان الدين يؤثر أحياناً أثراً ظاهراً فى روح أمة فان الشعب يكيف الدين على صورته مع توالى الأيام والامر الثانى ظاهر فى سويسرا وان لم تكن تخلو من الاول ولا جدال بان المقاطعات الكاثوليكية بمجموعها أكثر انحطاطاً من المقاطعات البرتستانتية والانحاء الاقل نظافة هى كاثوليكية أيضاً والمقاطعات الكاثوليكية هى التى احتفظت بالاكثر بلهجاتها وان فكر حرية البحث الذى دعت اليه البرتستانتية قد أثمر واينع فان التعليم العام فى البلاد البرتستانتية أكثر انتشاراً مما هو فى غيرها وأفكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتى قلما يعنون بالسياسة . وليست هذه الفروق مهمة فان تأثير عقل الامة فى المذهبين هو أشد ظهوراً .

السويسرى متدين حق التدين ولكن دينه فى قلبه وهو لا يحفل على الجملة بالظواهر ولذلك ناسبت البرتستانتية مزاجه وللقيام بالفروض الدينية منزلة من حياة السويسرى المنظمة كما للاعمال الدنيوية كذلك فتراه يذهب صباح الاحد الى الكنيسة كما يذهب فى المساء الى القهوة بكل رزانة وتماسك أوكما يذهب الى

عمله خلال أيام الاسبوع . والرجال والنساء يحضرون فى القرى والمدن فى البيع لسماع القداديس أو المواعظ وربما كان النساء أكثر عدداً فى الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور فى بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تغص بالمستمعين والعابدين الراكعين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقى عليهم من المواعظ .

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتى فى سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك أهل المذهب الكاثوليكى ليس لهم أساقفة ورؤساء عظام بل ان كل واحد مرتبط بالمقام البابوى ارتباطاً خفيفاً لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية مثلا فالسويسريين غلاة فى حب الاستقلال في كل شيء حتى ان رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباساً يخالف البسة غيرهم فى الامم الاخرى . وترى الكل متشابهين متقاربين مما يذكر ان سويسرا كانت فى القرون الوسطي مهد التسامح وان وقع لها فى القرن التاسع عشر ان نشبت فيها حرب دينية من أجل القانون الذى وافقت عليه الاكثرية بنفي الرهبنات من سويسرا في حين لم تنشب في أوربا حرب دينية فى ذاك القرن ومع ذلك تجد جنيف ببرتستانيتها وفريبورغ كذلك فى تمسكها بكثلكتها كانهما رومية بكثلكتها ولم تمض على هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى أصبحت سويسرا أكثر بلاد أوربا تعلقاً بحرية الوجدان والعبادة على صورة منظمة حرة لا مثيل لها .

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة ادارة من ادارات الحكومة هذا مع أن الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الاديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكليركى الذى تنظر فيه السلطة التشريعية وتقر عليه أو تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يقتضيها الدستور السويسرى من مثل حرية الوجدان وحرّية التدين

وغير ذلك ورؤساء الدين بحسب المقاطعة برتستانتاً كانوا أم كاثوليكا تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من أهل هذا المذهب . وللحكومة حق التدخل فى مسائل العبادة والطقوس واذا أرادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الامة . وتدخل الكنيسة البرتستانتية فى أعمال الحكومة غير محسوس فى سويسرا الالمانية البرتستانتية مثل ماهو فى سويسرا الكاثوليكية الفرنسوية وغيرها

وبعد حرب سوندربوند اتهم اليسوعيون بانهم أوقدوا الفتنة الدينية فى البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول الى سويسرا بيد أنهم دخلوا فى الحقيقة الى فريبورغ بعد عشر سنين . ومدرسة اللاهوت فى هذه المدينة يديرها الدومنيكيون فى الظاهر ولكنها بيد اليسوعيين فى الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعى دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاؤوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكثلكة السويسرية يعلمون ويعظون . ولمعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فاذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانتيتان

هذا أجمال ما يقال فى المذاهب فى هذه البلاد أما القوميات أو الجنسيات أو العناصر المتألفة منها فان نصف سويسرا روماني أو لاتيني والنصف الآخر جرمانى وربما كان العراك بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر فى أوربا منذ أوائل القرون الوسطى فقد اختلط العنصر اللاتينى بالجرمانى وعلى العكس اختلاطاً كبيراً ومن السويسريين الفرنسويين من تألمنوا أى أصبحوا ألماناً بلسانهم على طول الزمن ومن الالمانيين من تفرنسوا ويكاد لايتجاوز اللاتينيون أى الفرنسيس والطليان والرومانش فى سويسرا مليوناً ومائتى ألف وبقية الاربعة ملايين هم المان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة فى استعمال السنتهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الالمان أكثر توسعاً فى البلاد وهم الرابحون في التبسط في ربوعها على الزمن حتى أصبح اللسان الفرنسوى خاصاً

بغرب البلاد والرومانشى بشرقها والايطالى بجنوبها والالمانى بشمالها ويقدرون عدد الالمان المهاجرين الى المقاطعات الفرنساوية بمئة ألف وعدد الفرنسيس المهاجرين الى المقاطعات الالمانية بخمسين ألفاً .

ولم تعترف الحكومة رسمياً بلغة الرومانش كما اعتبرت الالمانية والافرنسية والايطالية وكتبت معظم الاوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لان المتكلمين بها قلائل ولأنها أشبه بلهجة خاصة لاأدبيات لها وأهلها يتزوجون بالالمان ويختلطون بهم وكل سنة يخف عدد المتكلمين بلسانهم . وربما كان الرومانشيون مثال مملكة أضاعت لغتها على التدريج بدون أن تضيع استقلالها أضاعت لغتها واندمجت فى غيرها على خلاف الطاليان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء ٢٣٠ ألفاً فانهم احتفظوا بعنصريتهم لانهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لان لها آداباً خلافاً للرومانشية

ومسألة الألسن غريبة فى سويسرا لاتؤثر فى الامور الادارية لان حقوق الاقليــة مصونه كحقوق الاكثرية . ومن أعجب الامور ان اللسان فى سويسرا وان كان من مواد الوطنية المحليــة فليس شارة من شارات الوطنية الجامعــة . واختلاف الالسن ليس من العوائق فى ادماج السويسريين فى قالب الاخلاق المتحدة وليس فى اللسان أدنى مادة من مواد الانفصال فالسويسرى الفرنساوى فى مقاطعتى الفوونوشاتل لا يريد أن يصبح فرنسوياً بتابعيته وكذلك السويسرى الايطالى لايحب بوجه من الوجوه أن ينضم الى ايطاليا ومثله المــاني مقاطعات شافوزوتوركوفى وسان غال لايريد أن ينضم الى المانيا

ولولا أحوال نادرة لصح أن يقال أن سويسرا فى جميع أدوار التاريخ قد نالت أعظم الحرية فى استعمال اللغات فى جميع الاعمال الخاصة والعامة أما اليوم فان الحرية موجودة مبدئياً ولــكن احترام حقوق الاكثرية والاقلية على أسلوب معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر فى مسائل اللغات المحلية وانتشارها وتدافع عن حقوق الاكثرية ولا تغمط حقوق الاقلية فى كل بلد يسبق غيره

فى عـدد المتكلمين بلغة دون أخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات بعدة لغات في القديم للافهام والتفهيم أما اليوم فانه يراعى بما يكتب حق السواد الاعظم

اللغة الرسمية فى كل ناحية هي لغة أكثرية السكان وبهـذه اللغة تكتب مداولات المجالس البلدية والاعمال الادارية التى تعلق ليقرأها الجمهور وبها تكتب أسماء الشوارع والمصانع ويدرس فى المدارس ويلقى الوعظ أو القداس في الكنائس ومن النواحى من اختارت برضاها التساهل مع أهل اللغة الاخرى فى بعض هـذه المسائل كأن تترك مقاطعة المدينة اللغة الافرنسية تجعل لسان التدريس فى مدرستها أو أن سكان مقاطعة رومانشيه يقدس لهم بالالمـانية . وللمنتخبين فى المقاطعات المختلطة أن يتكلموا باحدى اللغتين كما يشاءون فى جميع المداولات وتكتب الاعلانات وغيرها باللغتين واذا بلغت الاقلية العدد الكافي تكون لها مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها . وفى الكتابات الخاصة وعناوين الدكاكين تركت للناس حريتهم . وما يسري على الناحية يسرى على المديرية حذو القذة بالقذة أي تكون اللغة الرسمية لغة الاكثرية والاقلية لاتحرم من حق التفاهم

ويطلب الى الموظفين فى جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها الاعلانات وأسماء الاماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين فى المجالس وعمال السكك الحديدية يبدأون فى كل مقاطعة بلغة البلاد فى مخاطبة الركاب ثم يثنون ويثلثون اذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث الا الايطالية فانها تنقص من بعض القطارات التى تمر قليلا فى البلاد الايطالية السويسرية وللغتين الالمانية والافرنسية المساواة التامة تكتب جميع أسماء المحطات وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة

وفى سويسرا سبع كليات منها مايدرس بالالمانية ومنها بالافرنسية وفى بعضها دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التى انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالالمانية وكذلك كلية زوريخ التى انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التى انشئت سنة ١٨٣٤

أما كلية جنيف التى أسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنه ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التى تمت سنة ١٩٠٩ وكليـة فريبورغ التى قامت سنة ١٨٨٩ فانها تدرس بالافرنسية وفى كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين

أعضاء مجلس الاتحاد السويسرى سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم المان واثنان فرنسويان وقراراتهم تكتب باللغتين وفى سويسرا ثمانيـة فيالق اثنان فرنسويان وخمسة المان وواحد ايطالى وورومانشى ولغة التعليم فى الفيلق الأخير الالمانية والادارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لارضاء قرائها من ذلك ان نقابة أصحاب الفنادق في سويسرا الالمانية لم ترض ان تغـير أسماء قوائم الطعام من الافرنسية الى الألمانية لأن معظم الداخلين الى البلاد يفهمون الافرنسية أكثر من الألمانية حتى ان الالمـان أنفسهم يفضلون أن يروا أسماء الألوان بالافرنسية لاعتقادهم بان المطبخ الفرنساوى هوخير المطابخ وألوانهم أجمل المآكل وكذلك ترى أصحاب الفنادق يصدرون جريدتهم باللغتين . كل ذلك يدل على جوهر أخلاق السويسريين وان المحافظة على حق أو على حرية ينبغى أن يكون على قدم المساواة

سويسرا بابل اللغات لان فيها على صغرها منهن أربعاً وفى النمسا سـبع وفى العثمانية سبع أمهات الآن ماعـدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هـذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن الى حلها كذلك . والعرب هم السواد الأعظم وقد أمرنا باتباع الاكثرية وللغتهم ميزات ليست لغيرها والامم الدستورية تراعى فيها قبل كل شيء حقوق الاكثرية

سويسرا: كيف تجلب الغريب

٦١

كانت بعض البقاع فى سويسرا منـذ نحو ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوربا فبفضل ماأنشىء فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاسـتجلاب رضى السياح

والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الاصقاع وأصبحت سويسرا وجل اعمادها على القادمين اليها من أقطار الارض حتى لقبوها « فندق أوربا » ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التى يبذرها فيها الاجانب لم تحصلها عن عبث فان علم جلب الغرباء وامساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية أوفر قد أصبح فى سويسرا علماً حقيقياً له أساليبه وقوانينه واحصاآته وجرائده ومنشوراته المنوعة الظريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة . وقد علمت السويسريين التجارب أن السائح يستمال بست قواعد من أحسن استخدامها اغتنى وأفاد واستفاد

القاعدة الاولى : أن يزرع المرء كثيراً ليحصد أكثر فقد جعل السويسريون لنشر الاعلانات بالكلام والصور المقام الاول ماعدا اعلانات المحطات والمنشورات المصورة وغيرها من المقالات التى تدفع عليها الاجور الباهظة أحيانا فى صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الاعلان . وكل ادارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجاناً وكثيراً ماتكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء أطيبه بحيث تستدعى النظر اليها ولو بعد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التى تعود منها قد قدرت بثلاثة أضعاف أو أربعة

القاعدة الثانية : جميع تراكيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها . وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو أن كل صاحب فندق لاتحدثه نفسه أن يحتكر جميع السياح بل يهتم لانجاح المدينة أولا ثم الناحية وأرباضها أو النجاح العام وهذا لايتم الا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة فيشترك مثلا جميع أرباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملا يسر جمهور النازلين فى فنادقهم وأنزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على أتمه أيضاً بين الادارات والشركات المختلفة لاتحاسد بينها ولا تعاير في المصلحة وقد ألف معظم أرباب الفنادق نقابات لهم فتألفوا مديرية مديرية أولا ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخراً فأصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك أصبحت بعض القهاوى ومحال

السماع ومحال اعطاء التعليمات وشركات التضامن نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط أن يرضى السائح ويرتاح

القاعدة الثالثة : أن تراعى حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التى يراها(١) وذلك لان سويسرا أدركت أن الرحلات اليوم قد أصبحت ديمقراطية أيضاً وان لمتوسط غناهم هم أكثر من الاغنياء أرباب اليسار بل هم أخلص وأشرف وعلموا بالاحصاء ان واحداً فقط فى المائة من السياح الذين يصطافون أو يشتون فى بلادهم يركب فى الدرجة الأولى فى السكك الحديدية و ٨٥ فى الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة اذا قصدوا كثيراً فى مادياتهم لا يعاودون رؤية تلك البلاد وفى سويسرا فنادق وانزال على اختلاف أذواق الناس واقتدارهم فمن أراد الرفاهية يدفع ثمنها فى قصور هى أحسن من قصور الملوك ومن أحب التوسط كان له ماأراد وكذلك من أحب أقل من التوسط وانى لم أسمع بان انساناً يمكن فى أوربا أن يأكل ويشرب وينام بفرنكين وهذا ماأعلن عنه مؤخراً احدى البيوت التى تنزل الاضياف عليها فى لوزان

---

(١) اتمنى لكل عربى يريد ان يصطاف أو يشتو أو يسيح فى أوربا ان يطيل مقامه فى البلاد السويسرية اكثر من غيرها من البلدان الاوربية وان يوفر صلاته مع هذه المملكة الصغرى لانها جمعت آيات المدنية الكبرى ومن الاسف ان عدد المهاجرين من السويسريين الى البلاد الاخرى يعدل بخمسة آلاف فى السنة وليس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلاً ليشاهد ابناء قومى الفرق بين الاوربيين في اخلاقهم وحسن معاملاتهم . قلت يوما لرئيس جامعة لوزان اننا مع الاسف لم نشهد فى بلادنا سويسرياً منذ جئتم فى القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وارسالكم مئات من شبابكم واشرافكم يقاتلوننا مع من يقاتلون قال : نعم ذهبنا اذذاك الى قطركم ولكن عدنا ممزقين آب عشرتنا واحداً فنحن لانريد ان نعاود ماسبق لاجدادنا ولو متجرين مستعمرين لاغازين فاتحين . وقلت لاحد اساتذة جامعة جنيف ممن احسن ظنه بالاسلام والمسلمين فى كتبه ومحاضراته ان من كتبوا مثلكم بدون تحزب عنا من الاوربيين قلائل جداً فالعلم يشكركم على اخلاصكم وصدقكم واكدوا ان معظم من يكتبون متأثرين بعوامل السياسة من الامم الاخرى وان ظهروا في مظهر علمى يخالفونكم في رأيكم فقال : هذا ماعرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وفرق كل ذى علم عليم فتأمل .

القاعدة الرابعة : النظر أبداً الى راحة السائح واظهار العناية بأمره[1] فقدعنى السويسريون ان يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا أهم اللغات الاوربية الرئيسة يتكلم بها فى المحطات والفنادق والمخازن الخ والبريد من أسهل مايمكن وفى زهاء ١٠٧ مدينـة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الانسان فيها عما يشاء مجاناً وقد نظمت بمعرفة الشركات المحليـة ولا عمل لعمال هـذه المكاتب الا أن يجيبوا الناس عما يسألون من الصـباح الى المساء . والشعب يبـدى العطف على الغريب والعناية بأمره فالسويسريون اذا لم يكونوا فى رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والأخـذ بيده فيما لايعلم ومرافقته مئات من الأمتار أحياناً لدلالته على طريق أوغيره فهم وسط فى ذلك فان الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك بأوضح عبارة ممكنة واذا شكرته لايرى أنه يستحق الشكر

القاعدة الخامسة : أن يعرض كل شيء أمام السائح من دون أن يعجز بمطالب مبرمة . وذلك أنك تصل الى المحطة فلا تجد حمالا بل أنت تصرخ حمال فيجيبك

---

(١) منذ وصلت الى مودوسولا على الحدود الايطالية الى ان خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم اشهد نقداً يصح ان يوجه الى احد أو الى ادارة سوى اللين واللطف بالغريب . واذكر انى ركبت القطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل القطار الى لوزان فاجابنى فى الساعة الحادية عشرة ليلاً فجلست فى المركبة وحدى وكان عدد الركاب قليلاً فبقيت فريداً في الدرجة الثانية وليس لهذا القطار السريع سوى درجتين اولى وثانية كما هى معظم القطارات السريعة فى اوربا فلما قارب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا الى لوزان فقال لقد قطعناها اما رأيت كيف وقفنا بها بضع دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الايطالى فقد قصر فى بيان ساعة الوصول بالضبط فقال لابأس من ذلك فانك تنزل فى فالورب وتنام هناك وانت هل كان احد فى انتظارك على المحطة فى لوزان قلت اللهم لا . قال : اذاً تبيت فى فالورب وفيها نزلان ومن الغد تعود الى لوزان وانا لاادفعك اجرة عن المسافة التى ركبتها فوق تذكرتك لان ماجرى ليس من صنعك ثم انزلنى من القطار لما وصلنا الى فالورب وحمل لى أحد الصندوقين اللذين كانا معى وحملت انا الآخر فابقيناهما فى محل الامانات في المحطة وخرج معى ودلنى على سمت الفندقين وسمى لى اسمهما وخيرنى بين احدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض مايجب فانظر بالله عليك الى هـذه الاخلاق التى قلما تراها من خادمك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو بمكلف ان يضيع وقته معك على هذه الصورة فى مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية

ولا تجد عاملا من عمال الفنادق بل تجد لوحة موضوعة فى مخرج المحطة فيها أسماء الفنادق فى البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوذيا يريد أن يركبك فى مركبته ولا سائقاً يريد أن يستاقك فى سيارته بل اذا أنت طلبت واحداً منهم أتاك سريعاً بادب . أما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد فى ايطاليا فهذا لا أثر له لأن الشحاذة ممنوعة هنا أكثر من فرنسا ولا تجد أحداً يتعرض لك لابتياع شيء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف أنواعها معروضة فى الزجاج وقد كتبت عليها أسعارها وهذه أخصر طريقة وأشرفها فى قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات والمشروبات يكتب عليها أسعارها ويجلس فى المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئاً .

القاعدة السادسة : أرضاء جميع الاذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب مايكدر واذا وقع خلاف فيراعى ذوق الاكثرية . ولاجل استمالة قلوب السياح عنى السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ فى نشراتهم التى يستولون بها على عقل الغريب مايشير الى أن فى بقعتهم مايرضى جميع المشارب والامزجة من أرباب الصفاء الى طلاب الخلاء الى المولعين بالالعاب الرياضية الى الراغبين فى التصعيد فى جبال الالب الى من يريدون التسلى الى من يرغبون فى التعليم الى من يؤثرون الوحدة الى المصورين والطبيعيين والأثريين وكل واحد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونه على مايهمه

ثم وفروا الراحة لجميع الأذواق وقاموا بما يرضى الأرواح والاشباح فترى أوقات الأطباء معينة مذكوراً الى جانبها أوقات القساديس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن أو الواعظ . ولا يأتون ماتشمئز منه نفس السائح حتى ان دفن الموتى لايجرى فى أوقات الصيف الا قبل الشمس حتى لا يقع نظر السائح على ماربما تشمئز منه نفسه فيذكر الموت فى بلاد لايجب أن يكون فيها الا الصفاء والرخاء

وكثير من هذه الأعمال تقوم بها شركات لأن فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الأدبى السويسرى وهذه عنيت

بتربية الأدلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الألب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس فى أهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الفرنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى فى السنة نحو نصف التقاسيط وهناك شركات لاتحصى فى كل مديرية لتحبيب البلاد الى الأمم ونشر ماينبغى عنها من مالهم و بما أعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد أو القرية اذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من أثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادمين على السويسريين سنة عن سنة .
والحكومة لم تدخر وسعاً فى هذا السبيل فبذلت الأموال عن سعة فى المدن والدساكر فتحت الشوارع الجميلة وجملت الأرض وعبدت الأرصفة الفسيحة وأنشأت المتنزهات الظليلة والحدائق العامة وأقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من أحب وأدخلت الكهرباء الى كل مكان وكذلك التلفون والمياه الطاهرة النقية وأقيمت القهاوى المهمة فى جميع المحال التى يلحظ أن المسافر يقصدها

وقد أعد السويسريون جميع الألعاب الرياضية التى يحبها الانكليز كالتينس والفوت بول وغيرها دع أيام الشتاء التزحلق والتدحرج فى الثلج (لالوج والسكى والباتناج) . عاداة أولع الغربيون بها تقليداً للانكليز وكل سنة يموت فى خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم سنة عن أخرى . وبذلك كثر ترداد الناس الى سويسرا فى الشتاء ولا سيما الانكليز والاميركان . ويقدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليونى نسمة فاذا فرض ان كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع أربعين مليوناً تأخذها سويسرا فى أشهر معدودة من السنة من الالمانى والانكليزى والروسى والنمساوى والمجرى والفرنساوى والايطالى والاسبانيولى والبرتقالى واليونانى والمصرى والهولاندى والاميركانى والبلجيكى والسكاندينافى وغيره وللألمان المقام الأول فى كثرة العدد وهم يؤثرون النزول فى البيوت لرخص العيش فيها

ويقدرون عدد الفنادق الكبيرة بزهاء ألفى فندق فى سويسرا كلها من الطراز الاول والثانى أما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه أكثر من أن تعدوما وصلت هذه الصناعة فى إقراء الضيوف الى هذا الحد من الارتقاء الا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى أصبح السويسرى معلماً للامم في صناعة الفنادق وكثير من مدن أوربا وحماماتها المعدنية ومتنزهاتها البحرية بيد أناس من السويسريين. ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام فى هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين ألف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهى تتفنن في خدمة الفنادق والانزال واستجلاب أنظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث أفكارها توزعها مجاناً دع المنشورات والكراسات والكتب التى لا تقصر فى توزيعها ومما أنشأته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليما على أسلوب معقول وذلك لان ضرورة المباراة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يوما بعد آخر ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحى لوزان واسعة الاطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للالعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بان ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع أنواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وان يذهب الواحد إلى غرفته حتى في النهار بدون ترخيص وأذيختلف الى الاماكن العامة وأجرة المدرسة أوثمن الاكل فيها فقط ١٢٠ فرنكا فى الشهر لابن سويسرا و ١٥٠ للغريب ومدة الدراسة ثمانية أشهر ويسأل فيها الطالب فى الاكثر فى اللغات الحية ويجب أن تكون سنه من ١٦ الى ١٨ وتدرس فى هذه المدرسة الفرنسوية والانكليزية والالمانية والايطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافية العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطنى وحسن الخط والحساب (أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات

فى الخدمة ودروس فى التنظيم وحسن الهندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والالعاب والرقص . وبعد أن ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر أن مدرسة لوزان أرقاها

وأنشأت شركة الفنادق تعلم أناساً فن الطبخ وعهدت الى خبراء يمتحنون من يريد الدخول فى هذه الصناعة بعد أن ينال شهادة منهم بتقدمه فيها . ويقدرون رؤوس الاموال التى وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مايون فرنك ومابرحت على ازدياد وأرباحها كذلك في اعتدال لان السويسرى يرضى بالربح القليل جرياً على ماتستلزمه القاعدة الاقتصادية . وتختلف أجور الفنادق فمنها مايدفع فيه الواحد فى اليوم مائتى فرنك ومنها مايأكل فيه وينام كل يوم بأربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين فى الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين ألفاً معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع اليهم ١٦ مليون فرنك عدا الحلاوين التى تقدر بثلاثة أضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ماتربحه البلاد كلها من السياح والمعروف ان أرباحها من ذلك تجىء بعد أرباحها من صناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم الا اذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فان أرباح السياح يكون لها المنزلة الأولى وبها اغتنت سويسرا بعد ان كانت فقيرة .

طول الخطوط الحديدية فى سويسرا نحو خمسة آلاف كيلو مترای ١٢ كيلومترا فى كل عشرة آلاف متر مربع وقدر بـ ٩٥ مليوناً عدد من ينتقلون كل سنة على خطوطها ولها طريقة جميلة فى اعطاء أوراق اشتراك فيدفع الواحد ٤٥ فرنكا يأخذ بها ورقة فى الدرجة الثالثة يركب بها أى قطار أحب مدة خمسة عشر يوماً ويدفع ٦٥ فى الدرجة الثانية و٩٠ للدرجة الأولى . هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية والحوافل . ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية فى ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح فى نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب فى السنة وهى دائماً تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها . والبرد متصلة علائقها

مع السكك الحديدية وفيها جميع أنواع الراحة للغريب ومراكز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت احدى الصحف مؤخراً مامثاله : ينم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة مايبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فان لكل ٢٣٤ ساكناً فيها صندوق بريد وفى سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ فى لوكسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ المانيا صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساويا صندوق ثم تجىء النمسا فانكلترا فالبرتقال أما العثمانية فقد أحرزت الدرجة الأخيرة اذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩٠٣٠٠ عثمانى ! هذا بعض ماعرفته عن سويسرا وما يأتيه الافراد والحكومة لجلب السياح اليها حتى أصبحت فندق أوربا حقاً وصدقا

سويسرا : تفننها فى الاعلانات

٦٢

لاترى فى مدينة سويسرا نقصا فى فرع من فروعها وعمل من أعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل ادارة وكل معمل وكل شارع وكل حى وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شىء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل اليه والمعاملة معه بحيث لايحتاج الانسان أن يسأل أحداً وربما اذا ترويت قليلا بالنظر لوضوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقلما تطلب من يدلك على من تقصده اذا كانت نمرة محله واسم شارعه فى جيبك . خاصية غريبة قلما تجد مثلها حتى فى كثير من البلدان الراقية . بل قد كتب على الأبواب الخاصة والعامة «ادفع » أو «اقفل» وكتب على المراحيض «ارفع» او«اخفض» لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب « الرجاء مسح رجليك » وكتب فى المدارس

« اياك وادخال عصاك أومظلتك الى الداخل » وكتب على الصور والتماثيل « ممنوع مس شيء » وكتب على صناديق البريد « تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا » ولوأردنا تعداد مثل ذلك لطال بنا المطال وسئم القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا فى عالم الخيال

ومن يظن أن فى دور البريد صناديق تدفع اليها ثمن الطابع كما هو فى بعض بلاد أوربا الراقية فينزل اليك فتلصقه على كتابك وفى صناديق البيوت التى تعلق فى دهليز الدار وتكون هـذه مؤلفة على الاكثر من خمس أو ست طبقات كل طبقة شقتان أومسكنان فيجيء الساعي ويضع كتب كل منزل وجرائده فى صندوقه حتى اذا وضعها يطن جرس من داخـل الصندوق فيسمع أهـل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفا على الناس من الحركة بدون لزوم وفى المخازن والمحال العامـة صناديق للقبض والصرف لا تغلط فى العد والحساب وتحصى على العامل ماأباعه فى يومه

ذكرنا هذا وان كان بعضه لا يدخل فى باب الاعلان الذى هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالاعلان فى الغرب حداً من الارتقاء لا يكاد يوصف وأظن سويسرا ان لم تكن أرقى الغربيين فى التفنن باعلاناتها فهى من أرقاهم بلا جدال وكفاها فخراً انها لولا الاعلان عن بلادها مااستطاعت أن يكون لها هـذا الغنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال أصقاعها وربما أفرطت فى ذلك أحيانا لمقتضى الوصف الشعرى ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التى توزعها مكاتب الاستعلامات مجاناً على طالبيها فما رأيت أكثر من مهارتهـم فى ايجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة فى أرض سويسرا

وكل شيء هنا بالاعلانات اذا لم تقرأ صحفها لا تهتدى الى ماتريد ابتياعه أو عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة اعلانات مقاطعة كذا ومنها مايطبع الثلاثين والأربعين ألفاً فى اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات فى السنة تصدر فى ثمانى أو عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها اعلانات

الا الصفحة الأخيرة أو الصفحتان الآخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفى الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الأقل . وكل جريدة مرتبطة مع شركة اعلانات تبتاع منها قدراً معيناً من الصحيفة وهى تفتش لها على اعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها . كنت أتلهى فى الاحايين بقراءة بعض الاعلانات فى الصحف لاعرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت أستغرب فى الضحك عند ماأقرأ السذاجة تغلب على اعلاناتهم والتفنن فيها آخذاً أخذه من النيقة والعناية

فنهم من يعلن عن ١٠٠ كيلو من الجبن من جنس كذا بثمن كذا ومنهم من يقول ان عنده رأسين من البقر عمرهما كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يحب ان يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأساً من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدته وآخر عن بيع عربته أودراجته أودثارد أو صندوقه أو ثيابه وآخر عن خنزيره الذى علفه وغيره عن حذائه الذى ماأتلفه . وتجد آخر يعلن عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزانته وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه أو محراثه أو منكاشه أو مجرفته أو حصادته وعصارته ومدراته وآلة تصويره وآلة خياطته وآلة حياكته وآخر عن كلبه والصدق يغلب عليهم فى اعلانهم عن متاعهم وآنيتهم وأدواتهم

أما التفنن فى الاعلان عن الاستخدام وطلب عمل فى مخزن أو حقل أوادارة أو منزل ذكوراً كانوا أم أناثا صغاراً أم كباراً فهذا مما بلغ الغاية التى لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الأجرة التى يريدها باخصر عبارة تستهوى القارىء وتستدعى الراغب فيه الى مفاوضته ومخابرته على أسرع مايمكن وكل يوم تقرأ اعلانات كثيرة فى طلب حالب بقرات تبلغ عدد كذا فى محل كذا باجرة كذا ومستخدم لمخزن يعرف كذا وطاهية تحسن ادارة بيت فيه كذا من الأنفس وبواب لمحل كذا وسائس باجرة كذا وحوذى وسائق وراع كذلك وحراث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة فى معمل الى غير ذلك

من الأساليب التى لم يسمع بها الشرق وهى من اختراع الغرب لأن الاعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد

الاعـلان عن الحاجيات والـكماليات لطيف ونافع ولـكن ما كان يظن أن الغربين اذا أعلنوا عن بيع كذا وايجار كذا وعمل كذا انهم يتزوجون بالاعلانات ويستمتعون بالاعلانات أيضاً تساوى فى طلب ذلك الرجال والنساء لأنهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التى لاعيب فيها وغاية الأمر انهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة . وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما أظن جريدة «الجورنال» البارزية ثم تبعتها على الأثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وان كان عدد الطالبين والطالبات أقل من عددهم فى باريز

وذلك بأن يطلب أحدهم خادمة تستخدم لـكل شىء باجرة كذا على أن تقوم بعمل كذا وان يكون عمرها كذا من السنين أو ان الخادمة تطلب ذلك ولا تتوقف عن أن تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها . اكتب هذا وامامى صحيفة اعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها ان امرأة اسرائيلية تريد التعرف الى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين وان تـكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه . ومنها ان عقائل وأوانس يردن أن يتعرفن الى خواجات تكون لهـم مراكز طيبة ومنها ان شابا فى الثالثة والثلاثين لايتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب حسن فى الارياف يريد أن يتعرف الى فتاة فى الخامسة والعشرين الى الثـلاثين ويؤثر أن تـكون مسيحية ومعودة النظام ويقبـل بأن تـكون حاملة شيئاً من النقود وانه رزين لايفشى سراً واذا أرسلت اليه الصورة الفوتوغرافيـة يعيدها في الحال والرجاء ان يكتب فى ذلك بنمرة كذا لادارة جريدة لوزان

والقوم هنا لايكتفون بتعليق اعلاناتهم على الحوائط والمركبات فى السكك الحديدية والـكهربائية وعجلات النقل وفى الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الأبواب والنوافذ ورؤوس الأبنيـة بل ان التاجر يعلن عن محله حتى فى الورق

الذي يصر لك به قميصاً أو بدلة أو كتاباً أوحذاء أو منديلا أوورقاً أوأى شيء تبتاعه بل ان الخيط الذى يربط به الاضبارة أو الرزمة قد كتب عليه اسم محله ونمرته وما فيه وهكذا فى جميع مايخطر ببال

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها انها اذا لم تكثر من الاعلان عنها يتناساها الناس وتقل أرباحها وهذه لوزان لولا ماتفنن أهلها في الاعلان ماأصبحت عاصمةالعلم فيسويسرا الفرنساوية وبلغ طلبة كليتها ألفاً وأربعمائة منهم نحو ألف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة التى يعيش بالعلم فيها أناس لا يستقل بعددهم ومنها مايدرس فن تدبير المنزل وآخر الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الالعاب الرياضية الى آخر ماتفننوا فيه لجاء الغريب يستفيد منه فكان للوزان فصلان فصل الصيف يكثر فيه السائحون للنزهة وفصل الشتاء يكون خاصاً بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من ذلك أهل البلاد مئات الألوف من الليرات

وبلغ من تفنن القوم بالاعلانات ان أحدهم ألف كتاباً فيفن الطبخ فكسد كساد بضاعـة العلم فى بلاد العرب ففكر فلم يجد أحسن من أن يعلن أن الفتاة التى تراجعه مرسلة اليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجهاتكفيها غوائل الدهر وحوادث الايام فكان يبعث لكل مرسلة بالمبلغ المطلوب بنسخة من كتابه ويقول لها تعلمى هـذا فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة . وكتب بعضهم اذا أردت أن تغتنى فاعمل عملي وأنا لاأعلمك ماعملت الا اذا بعثت بكذا فرنك حوالة . فكان جواب هذا الشاطر لمن طلب اليه النصيحة أن يقول له اعمل عمـلى فتغتنى لامحالة أى اكتب فى اعلانك كما كتبت وهناك المال يفيض عليك

ولكن هذه الطرق نادرة جداً والصـدق هو الغالب على الاعلانات كما قلنا ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بأمرها وأسست لها البيوت والشركات

المهمة التى تدخلها فتظن نفسك فى مصرف كبير أو معمل خطير . والاعلانات مادة الصحف فى الغرب وكثير من أمهات جرائدها لاتصدر يوماً واحداً لولا الاعلانات لأن ماتأخذه من القراء والمشتركين لايبلغ ثمن الورق مع أنها تطبع بمئات الالوف فتأمل ياتاجر بلادنا

سويسرا : التربية العملية

٦٣

من أعظم أسرار امتياز الغربى عن الشرقي ان الفرد عنـدهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل فى عيشنا فى الاغاب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جداً فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية فى المعاش من صناعة وزراعة وتجارة وأقل منـه فتى أو فتاة فى مقتبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ أسـباب الـكسب انتظاراً لارث ربما يورثه اياه أبوه أو أمه أو لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل

حالة تدهش فى الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ماتمهد من عيش الاتكال الذى انقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من حالق مجد وسعة الى دركات ذلة وفاقة . كلما ذكرنا وأيم الحق ان فى دمشق نحو ثلاثة عشر ألف شحاذ أكثرهـم أصحاء أقوياء نقضى العجب من حالنا ونسجل بأننا سواء وحكومتنا فى هذا النوم أو التناوم عن السعى فى مداواة أمراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لاتقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية

وانى آسف وأبكى لمئات من الشبان فى سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة وطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتهم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون عالة على أهلهم ومنهم الموسع عليه فى رزقه لايتنزلون للاحتراف بحرفة ولا يرون أنه

يليق بهم الا ان يتصدروا على مقاعد الحكم آمرين ناهين يؤثرون البطالة منتظرين أن يموت أولياؤهم ليستولوا على أموالهم وفى الغالب أن يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف أولاداً كثاراً تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءاً قليلا لا يستطيع انماءه ولا يقوم بتنفخله وبذخه هذا اذا لم يكن فاسد الاخلاق ولم يصرف دخل سنة فى شهر وهناك بشره بالفقر الى أرذل العمر .

أما الغرب فحاله غير حالنا اذا تعلم الولد التعليم الابتدائي غالباً يبدأ أهله يقطعون عنه راتبه ويطالبونه باجرة الدار وثمن الطعام ليلقى بنفسه فى معمعان الحياة ويعلم أنه فرد مسؤول عن نفسه لا يقوم باعالته غير عمله ولهذا مئات الالوف من الامثلة ولقد قلنا فى مقالة سبقت أن ليس فى الارض امرأة ضاهت الرجل فى عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن فى هذه الجمهورية السعيدة غنيات كنا أو فقيرات ولذلك تزيد ثروة البلاد يوماً بعد آخر وترتقى فى كل فرع من فروعها المدنية الحيوية . وحال معظم أمم الحضارة كذلك

اكتب هذا وأمامي أربع فتيات فى النزل الذى أويت اليه فى لوزان لا أطلب لوطنى الا أن يكون رجاله دع نساءه فى درجتهن من التفانى في الحياة العملية والتناغى بحب الاستقلال فى الاعمال . الفتاة الاولى انكليزية والثانية المانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية المانية وكلهن سواء فى كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال

قالت لى الفرنساوية السويسرية وهى في الحادية والعشرين من عمرها تعطى دروساً في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا : انه متعهد ابنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكناً نؤجرهما فى « شالى » من ضواحى لوزان وشقيقى الواحد صاحب نزل فى نيس والآخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك فى الشرق يستريح ولا يعرف الا الازياء والرفاهية فقالت ان الناس كلهم فى سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل أن أعيش عالة على والدى أو والدتى ولا على أحد اشقائى بل أعمل واجمع ثروة لنفسي عملا بسنة العاملين والعاملات

أما الفتاة الانكليزية وهى في الحادية والعشرين أيضاً فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل في احدى البيوت الخاصة التى توفرت على تعليم الفتيات اللائي تخرجن من المدارس العليا فى انكلترا والمانيا وروسيا أو غيرها وأردن أن يتقدمن فى معرفة الفرنساوية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الاوربية الراقية التى تليق لترأس المجتمعات العالية والتصدر فى الردهات والقاعات . قالت أنها تعلم الانكليزية وهى لا تتناول مالاً وانما تعيش مع الفتيات في مدرسة وتتعلم الافرنسية بهذه الواسطة . وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة الى الجبال للتزحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فاقفل باب النزل فعرض عليها هى ورفيقتها الفتاة الالمانية أن يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء في لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة فى النزل الذى نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح أبواب منزلها أو مدرستها .

أما الفتاة الالمانية رفيقة الانكليزية فهي فى الثالثة والعشرين وحالها أيضاً حال رفيقتها تعلم الالمانية وتتعلم الافرنسية وتزيد عليها بأن تعطي دروساً خارج المدرسة وأهلها أصحاب يسار في الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الافرنسية وهذه هى الواسطة التى رأت أن تعمد اليها فى اتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها فى صدرها الى لغة كيتى وشيلر .

أما الرابعة وهى المانية سويسرية فحالها أدهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لان والدها صاحب مخزنين فى لوسرن وانترلا كون لو حسب مايملكه على حساب بلادنا لعد من الاغنياء عندنا على أنه لا يعد فى المحاويج بل المتوسطين هنا فأراد أن يعلم ابنه وابنته الافرنسية لمسيس الحاجة اليها فى تجارته وحتى يكونا على أتم الاستعداد لتلقى مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو فى السابعة عشرة يجعله فى نزل فى أرباض لوزان خادماً يأكل وينام ويتناول راتباً قليلا ويتعلم الافرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر فى المدرسة

وشقيقة هذا الفتى فى التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب أن

تتعلم الافرنسيةوتدبيرالمنزل وتعيش مستقلة فجعلها أبوهاخادمة براتب ٢٥ فرنكا في الشهر في المنزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع أعمال المنزل الا ملاحظة الطبخ فان صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فترى تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحاً الى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا تعمل بكد لم أر مثله وتقوم بجميع أنواع الخدمة على صورة مدهشة فبينا تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح أدواتها الكثيرة أو تفرك الدهليز والممشى والزجاج والدرفات والأبواب اذا هي تتعهد المطبخ أو تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق أو تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة أو تجلو الطباق والصحون أو غير ذلك مما يكثر عدده في البيوت الاوربية تعمل كل ذلك ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لاتراها الا باسمة في حين حرمت من رفاهيتها فيدار أبيهاوعنده الخادمات والخدمة .

هذامثال مما رأيته بالذات من أمثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الاوربيين بعد ان عدوا كل عمل شريفاً اللهم الا مايثلم العرض ويعبث بالمروءة وهذا لاتكاد تخلو منه أمة مهما ادعت أنها أمة أخلاق وتدين وشرف .

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على أهلها بعملها مئة أو مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك أيستطيع أحد أبناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب أن يقول لابنه اذهب الى بلد كذا واخدم وتعلم فضلا عن أن يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة والحساب فعليها لمن يعلمك الطبخ وتدبير المنزل والخياطة والتفصيل .

رأينا في مصر والشام أناساً من المساتير لم يعقهم عن تعليم أولادهم التعليم المطلوب الا ضيق ذات يدهم وكثرة أولادهم لانهم كلهم يريدون أن يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الغني صاحب المزارع والعقارات . ورأينا أناساً قادوا

بالمال واقتطعوا جانباً من رؤوس أموالهم ليعلموا به أولادهم على أمل أن يعينوهم في أيامهم السود فكان من أولادهم من تعلموا تعليما ناقصاً ولم يكن منهم الا أن عظمت نفوسهم وظنوا أنفسهم شيئاً مذكوراً وشمخت أنوفهم عن العمل الا في الاعمال التي يصورها لهم الخيال انها نافعة شريفة وذهب ماصرفه أولياؤهم من الذهب عبثاً

الاولاد اذا ربوا كما يربي السويسري والالماني والانكليزي بناته جاء منهم محكنون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون في الحياة من الصغير فيرتقون الى الكبير . يتهمون الالمان بالشح والفرنسيس بالاقتصاد الزائد والانكليز بقسوة القلب والحقيقة أن البشر كله من طينة واحدة يحن الى أولاده ويستميت في ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم انهم يلقنون أولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن ننشئهم على حياة الاتكال والرضا بالقلة . .

أيأتي ياترى على الشرق الاقرب يوم نري فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد أو أبناؤنا واحفادنا مثالا من الامم التي تود البقاء لا الدثور والفناء أم نبقى هكذا يسرق بعضنا بعضاً ونعد عمله مهارة أو ينتظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين أم تضعف وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعى من بناها الى بلاد أخرى حيث الحياة سهلة والعيش مخضل

طف المدينة والمزرعة وأدخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والأشراف في سويسرا تجدهم كلهم لايستنكفون عن العمل . في لوزان سوق تقام مرتين في الأسبوع على عادة معظم المدن الأوربية مثل سوق الاحد وسوق الجمعة في دمشق تباع في ذاك السوق جميع أنواع المأكول والملبوس والمنظور فترى فيه نموذجاً صالحاً من حاصلات البلاد وصناعتها وأكثرها رخيص قصدته عدة مرات للفرجة وابتياع بعض اللوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بأنفسهن حاجات بيوتهن يجعلنها في كيس براق من المطرز ويحملنها الى مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند أكثرهم على مابلغني الخادمات والطباخات والوصيفات قلما يعهدن اليهن بشراء حاجة ولو طفيفة ويذهبن بأنفسهن لابتياعها

وهكذا تجد الديمقراطية تشربتها نفوس الكبير والصغير فلا يجد أحد من المعيب ان يخدم نفسه وداره وأهله وسواء فى الشرف من يكسح القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات فى النهار ومن يملك مصرفاً كبيراً يعد مايربحه كل يوم بمئات من الفرنكات مادام كلاهما يعمل فى دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق بأحد وأول مايسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل أن يسأل عن جمالها ماهى معارفها وما تستطيع عمله . فاللهم علمنا علماً ينفعنا فى نهوضنا حتى لانخجل من انحطاطنا فى أنفسنا دع خجالتنا أمام غيرنا فان الفرق بين بلادنا و بلادهم أصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راء كمن سمعا

قل سيروا فى الارض

٦٤

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد فى الاعتبار بحوادث الليل والنهار . وانى لأتمنى لكل من ساعدته الحال ان ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فان النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهى تحتاج للنور وللحرارة والا فتذبل كالزهرة

قال وليم هازلت من مفكري الانكليز « ان الوقت الذى أمضيناه فى السياحة الاجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لاسبيل الى وصله ولا وسيلة الى ادماجه والمرء مادام خارج وطنه رجل آخر غير الذى كان هنالك حتى ان المسافر ليودع نفسه فيمن يودع ولله در القائل « خرجت من موطنى ومن نفسى » فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب الى غير بلده من بلاد الله يجد فى عجيب المناظر وغريب الأحوال سلوة وروحاً وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات

الامي ولذلك كنت أنفق حياتي خارج بلادي لو وجدت من يقرضني حياة أخرى أنفقها في وطني حتى أقضي حقوقه اه . »

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى أكثر الأمم رقياً أكثرها سياحاً والعكس بالعكس . والانكليز والاميركان هم في المقدمة ثم يجيء الالمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة وأمتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لأنها اعتادت سير القهقرى وانا لو أخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لاتجد لنا الا عدداً يضحك بالنسبة لأرباب الرحلات من الأمم . أما العرب السوريون ممن يهاجرون الى أميركا فهؤلاء لايقصدون من رحيلهم الا الكسب ولا يعرفون على الاغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علماً وعملا

نتمنى لأمتنا أن يسيح منها العلماء والوجهاء والتجار والموظفون وأرباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق مارأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل . فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتكاك بغيرها من أهل طبقتها في الغرب اذا أخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويح النفس

السياحة لاتكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فان العارف قد يستطيع أن يطوف أهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه أكثر من ليرة مرفهاً رفاهية لاتتيسر له في بلده ولو كان من أغنى أغنيائها لأن البلاد في الغرب كلها منظمة ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الأخذ بأسباب الراحة . والعيش فيها خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو أرخص مما هو في بلادنا فان المصطاف أو المشتي في سويسرا قد يستطيع أن يكون في عائلة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والمنام الجيد أكثر من ١٥٠ فرنكا وهذا قلما تجد له مثيلا في بلدة أوربية اللهم الا في المدن الصغرى أو القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرية بأن يتعلم فيها الشرقي سنين لا أياماً ومن رأى مدينة أو ثنتين يكون قد رأى نموذجاً صالحاً من هذه المدينة الفاضلة

بيد ان من يسيح فى الغرب لا يصح له أن يتخلى عن غشيان العواصم الامهات مقر المدنيات الضخمة كرومية ولندن وباريز وبرلين وفينا وهذه العواصم يكتفى منها السائح ببضعة أيام والأولى أن ينظر الى دولاب الحركة فى المدن الصغرى اذ يستطيع أن يحيط بها فكره أما العواصم الكبرى فان أهلها قد ضاعوا فيها ولا تكاد تجد واحداً منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلا كلما غبت عنها أشهراً وعدت اليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد نخمة لم تكن من قبل وكل شيء فيها يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالفرع الواحد فيها اذا أراد درسه السائح الشرقى لا يتيسر له فى أقل من بضعة أشهر ولكن النظرة الاجمالية يكفى لها خمسة عشر يوماً ومثلها سائر العواصم وأصعبها على السائح احاطة لندن مدينة الثمانية ملايين نسمة ونيويورك مدينة الخمسة ملايين .

ان مدنية الغرب متشابهة فى أكثر الاوضاع فمن رأى نموذجاً منها اكتفى والزيادة على ذلك من النوافل . من زار باريز مثلا يشهد أعظم نموذج فى الحضارة الحديثة . وخير لمن يعرف لغة مملكة فى الأكثر أن يذهب اليها . وان كان من يعرف لغة أوربية كبرى مثل الافرنسية أو الانكليزية يستطيع أن يسيح بدون عناء فى كل مملكة ويتفاهم مع أهلها ولا سيما أهل الطبقة العليا والتجار والعلماء

ثلاث لغات أصول هى التى تفرعت منها لغات القارات الثلاث أوربا وأميركا واوستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلا لا يشق عليه السياحة فى البلقان وأكثر النمسا ومن عرف الانكليزية استطاع السياحة فى أميركا الشمالية وأوستراليا ومن عرف الافرنسية كانت عليه سياحة ايطاليا واسبانيا والبرتقال والبرازيل والارجنتين مثلا من أسهل الاشياء

أما من لم يكتب له الأخذ بحظ من هذه اللغات وأراد الاستفادة من الغرب فليس أحسن له من استصحاب ترجمان من بلاده ويكون ممن سبقت له الرحلة الى ديار الغرب واذا أريد الاقتصاد فالاولى أن يجتمع كل ثلاثة أو أربعة أشخاص ويرافقهم ترجمان مؤتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث . ولقد شاهدنا

كثيراً من أغنياء مصر ساحوا أوربا وهم لايعرفون لغـة من لغاتها ولكنهم بواسطة التراجمة استطاعوا أن يحسنوا التصرف بيد أن الأولى أن يكون المرء نفسه عارفاً باحدى لغاتهم وهناك حدث ماشئت ان تحدث عن استفادته وسروره

وبالجملة فان الخوف من السياحة توهم ليس فى محله فلا المال وقلته ولا عدم الاحاطة بلغة أفرنجية بل ان المحرك الأعظم فى السياحة الارادة ومن صحت عزيمته زعزع الجبال فما بالك بالسياحة وابناء السابعة والثامنة اليوم يسيحون فى أوربا وأميركا بدون أن يخشوا ضرراً والفتيات الجميلات يضربن فى البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل أن يكون فتيان الغرب وفتياته أرقى منا كعباً وأكثر أقداماً مادامت لنا فى السياحة فوائدلا يقدرها الخامل فى بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما أن المدرسة هى المعلمة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علماً نافعا .

نحن فى البلاد الفرنسوية

٦٥

ليس عجيبا ان ترى العثماني والايرانى وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالى من أفريقية يطربون فى البلاد الفرنسوية ويؤثرونها على غيرها من بلاد الغرب فى التجارة والتعلم والنزهـة فان معرفة لغة قوم هى مفتاح جميع هـذه الاعمـال وتعليل صحيح لعامة هذه الاحوال .

انتبهت فرنسا قبل غيرها لاستتباع الشرق الاقرب بتعليمه على مناحيها وتلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعوث وترسل المعلمين مبشرين بمدنيتها ولغتها فلم يمض زمن طويل وفرنسا اذ ذاك صاحبة الكلمة الاولى فى السياسة الغربية قبل انكلترا والمانيا وروسيا الا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الافرنسية ويأخذون

عنها ويؤثرون الفرنسيس على غيرهم لانهم لم يعرفوا غيرهم خصوصاً وان المرونة التى يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيس عرفوا بلين الجانب وكثرة التفانى بتعليم ماعندهم لغيرهم لانهم يرون لغتهم أرقى اللغات الاوربية وأمتهم فى مقدمة الشعوب التى قاتلت لاجل الحرية .

ان ميل الفرنسيس (١) للابتكار فى كل شىء دعا الى نشر أفكارهم وأوضاعهم فى بلادنا

---

(١) كتب أحدهم مقالة افتتاحية فى جريدة الايكودى بارى قال فيها : انه مما اثبتته التجارب أن الفرنسوى خلق مخترعاً وقد أتى الفرنسيس أمثال لافوازيه وكوفيه وكلود برنال وبيشا وباستور من الاعمال العلمية ما استحقوا به أن يكونوا مؤسسين لجميع العلوم الحياتية والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت أهم الاختراعات الغربية فى الاربعين سنة الاخيرة على أيدى الفرنسيس فهم الذين اخترعوا سر التلغراف بلا سلك وأوجدوا صناعة الاتومو بيلات وعملوا مدفعاً من عيار ٧٥ وعثروا على الاسباب الرئيسة التى سمحت بالطيران . وهكذا فى السياسة فان الفرنسيس أول من أوجدوا فى أوربا وحدة وطنية وهى الوحدة الفرنسية وأول من أسسوا وطنا وهو الوطن الفرنسوى وهم كانوا أول الناشرين تحت ستار الحرية والمساواة الافكار الثورية

فالفكر الفرنسوي حاد ينتبه بسرعة للصلات المجهولة في الاشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التى تحدث بين أجزاء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته للمعقول وحبه للوضوح . الفرنسوى جرىء على مثال لويس الثالث عشر ونابوليون والموت الذى كثيراً ما يكون جزاء المخترع قلما يفزعه بل يبعث همته ويشحذ سيف مضائه . وللفرنسى ميل للحوادث وذوق فى اكتشاف المجهول وهذا مما حدا بكثير من الضباط أن يتجشموا الاخطار الى آسيا وافريقية لفتح أراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذى ساق فيما مضى النورمانديين والبروتونيين الى سلوك البحار التى لم يسلكها أحد ليؤسسوا مدائن فى الشواطىء البعيدة

هذا هو الوجه الحسن واذا جئنا الى نقيضه نرى الفرنسوى يخترع ولكنه ماقط عرف الانتفاع بثمرة اختراعه ولا يحقق وينظم ما اخترعه . وخفته العقيمة تحمل الى غيره الانتفاع بتطبيق ماأوجده هو . فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الالمان اوالايطاليين أو الاسبانيين هم الذين يستثمرونها . اختراعاته فى العلوم لايقع عليها حصر ولكنه لم يستعملها قط لتحسين أدواته أو حاصلاته فقد أسس مثلا الكيمياء ولكن المانيا هى التى وجدت فى الصناعة الكيماوية مورداً عظيما من الثروة أى مليارا وستمائة الف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وانشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا ألف عامل يدفع اليهم ٢٦٠ مليون فرنك مشاهرات وأجوراً . —

الفرنسوى يتحرك فى الهواء أسرع من الطير . وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه تظنها بلادة منه . ولكنه لا يستطيع أن يجعل للطيارين ولمراكز الطيران نظاما معقولا واذا سقطت فى درجات الاشياء الصغرى ترى الفرنسوى على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام ويقال في ذلك ان الفرنسوي يكره وهو على هذه الصورة من الحركة ان ينثنى الى ضرورة انتباه طويل متساوق ويشعر بأنه يختنق اذا لم ير نفسه مائلة الى الاعمال المختلفة التى تحثه واذا وجب عليه أن يعمل عملا مجهولا يحتاج الى صبر . اما الالمانى فهو على العكس من ذلك له قليل جداً من النبوغ في الاختراع والايجاد بل لا يكاد يذكر له شيء منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالانتفاع بما اخترع وتنظيمه .

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين فى المانيا القديمة الذين اخترعوا وأوجدوا فان الالمانى لا يخترع لان فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الانوار الفجائية التى توحى بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع فهنالك حدث ماشئت ان تحدث عن حسن استخدامه له فهو يحب العمل الذى يحتاج لثبات ولا يستعجل لان الضرورى عنده أن لا يعمل بسرعة بل ان يعمل بجودة وان يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزاً لساعة العمل ولا يبدأ قط بطيئا .

جاء الالمانى بعد الفرنسوى في الطيران ولكنه أدهش العالم بتنظيمه له فلم يخبط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ماينبغي أن يرى ووفاه حقه . له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها التجار والصناع الذين يبعث اليها بهم . الالمانى لم يخترع التلفون ولكن لالمانيا الآن نحو مائتى ألف كيلو متر من الاسلاك التلفونية أي أكثر من فرنسا وعدوا المخابرات التلفونية فى بلاده بـ ٨٠٠ مليون مقابل ١٩٠ مليونا فى فرنسا وما من قرية المانية مهما صغرت الا وهى مرتبطة بهاتف تخابر به وادارتها في البريد أول ادارة فى العالم . وهى تعترف أن ليس بين كيماوييها الكثار واحد مثل لا فوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجربية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية . ان كان الفرنسوى

مخترع الاصباغ الصناعية فالالمانى بفضل مدارسه ومعامله أتى فيها بالعجائب حتى كاد يختص بتجارة الاصباغ . وما من بلد يعنى فيها بتجديد أدواتها على الدوام لتكون كاملة من كل وجه على أحدث طرز كما يعنى فى المانيا . والقاء أدنى نظرة على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك الخ

ثم انتبه الانكليز والاميركان ثم الالمان والطليان للأمر ولكن بعد ان رسخ التمدن الفرنساوى فى النفوس وكثر أنصاره بطبيعة الحال مع أنه ربما كان فى أوضاع الامم الاخرى ما يماثله أو يفوقه . واذ قبلت مصر والعثمانية وايران ان تعلم الافرنسية بصفة اجبارية فى مدارسها مثل لغة البلاد كان ذلك من أكبر المعونات على بث هذه اللغة البديعة فاتخذناها لغة التخاطب والتكاتب فى التجارة والسياسة .

للبلاد المصرية والعثمانية والايرانية فى البلاد الفرنسوية اليوم مئات من الطلبة يدرسون العلوم المنوعة فى مدارسها فى حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين فى مدارس انكلترا وأميركا وأكثرهم من المصريين والهنود أما فى المانيا والنمسا وايطاليا وروسيا فان عددهم يعد على الانامل والايرانيون أكثر الشرقيين اختلافاً الى مدارس روسيا للجوار والسياسة .

فاذا طربت النفس يوم دخولها أرض فرنسا وسويسرا الفرنسوية وبلجيكا الفرنساوية فذلك لأننا نشعر باننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هم . اننا نستفيد هنا أضعاف استفادتنا فى أى أرض سواها لأننا نجد تقاربا فى الافكار والمناحى ولاننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا على الزمن أنسة باوضاعها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت مابينه وبينهم من الفوارق وتيسر له أن يشاركهم ويشاركوه فى كل مالا يضر بعاداته وأخلاقه الخاصة

ان المدنية الاوربية تتسرب كل يوم الى عقولنا فى طرق مختلفة تنقلها الصحف والسياح والمدارس والجيش والاسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو أردت أن تجردنا مما استفدناه منها منذ عهد محمد على الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا قروناً الى الوراء ظننتنا معها من أهل القرن السابع أو الثامن للهجرة على نحو

ماتشاهد اليوم الافغانيين أو المراكشيين أو الجاويين الذين سدلوا دون مدنية الغرب حجابا كثيفاً فحرموا من حسناتها ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها .

ان سكان الشرق الاقرب اذا ذكروا الفرنسيس كثيراً فذلك لانهم يعتقدون فرنسا فاتحة العالم وممدنته على نحو ما كانت على عهد نابليون الاول ففرنسا هي التي وضعت في الحقيقة أساس النهضة المصرية الحديثة وفرنسا هي التي كانت كذلك في سورية منذ جاء نابليون عكا طامعاً في فتحها لأنها كانت مفتاح سورية حتى اذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى في اعطاء لبنان استقلالا اداريا عظمت تلك المنة على أهلها وعمت المدنيـة الافرنسية بلاد الشام من طرق مختلفة خاصة وعامة وطنية وأجنبية رسمية وغير رسمية .

نحن اليوم اذا لجأنا الى فرنسا في معظم حالاتنا فللاثر الناتج من تلك التربية والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الأخذ من مدنية القوم ولكن يضرنا الغلو والجمود فكما ان الفرنسيس أنفسهم لا يستنكفون أن يقتبسوا ماعندالامم الاخرى كالانكليز والالمان والاميركان مثلا مما ليس في أوضاعهم فنحن من مصلحتنا أن لا نكون حكرة لامة فنأخذ عن كل قبيل أحسن ماعندهم ولا نقول هذا سويسري وذاك بلجيكي وهذا فرنسوي وآخر ألماني وغيره ايطالي أو انكليزي فكلهم أرقى منا مراحل ونحن في حاجـة لكل من يعلمنا مدنيـة تنهض بنا من خمولنا ليساوينا بنفسه بعد ونعد شيئاً مذكوراً في سلسلة المراتب البشرية .

رأيت كثيراً من خاصة الطليان والالمان والانكليز يشيرون الى أن السوريين خاصة من بين سكان الشرق الادنى يغالون بحب الفرنسيس وليس حتى في البلاد التي حكمتها فرنسا في أقطار الشرق بلد كسورية يحسن أهلها الظن بالفرنسيس فكنت أقول لهم ان ذلك صحيح ولكن لا على اطلاقه فان القوم هناك درجات ومن يحبون الفرنسيس هم الذين أحسن هؤلاء اليهـم بتعليمهم على أساليبهم وتلقينهم لغتهم العذبة فأمكم أيضاً اذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وأمجادها يعترف السوريون لها بصنيعها ويصبحون زبنها في التجارة . وكيف يحب السوري المانيا مثلا وهو

لا يعرف عنها الا مايقرأه فى الجرائد الفرنسوية والكتب الافرنسية والمانيا حتى الآن لم تفتح لها مدرسة راقيـة فى سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها

لا ينال المرء الا بقـدر مابذل . والامم الانكلوسكسونية هى أرقى الامم بأخلاقها وآدابها ولكن أنانيتها الكثيرة دعتها الى أن أحبت فى العهد الأخـير الانتفاع من الشرق دون أن تبذل فى سبيل رقيه درهما أو تخطو الى اعلاء شأنه قدماً . ولذلك يبقى الشرق الاقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من أمم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية . ولا عار علينا اذا صرحنا بأننا نطرب فى أرض فرنسا لاننا لا نعرف غيرها فى الواقع و نفس الأمر فقد سبقت فعلمتنا آدابها وذكرتنا أمجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق الا مماعنده وعرفان الجميل لاهله طبع الكرام . ولا ينسى الايادى التى لك عندهم الا اللئام والسلام

الحياة السياسية والاقتصادية فى بلاد المجر

٦٦

تسكن بلاد المجر عناصر مختلفة قد يثور بينها ثائر الخلاف أحياناً ولذلك كان لمسألة الجنسيات فى الارض المجرية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتدور المناقشات فى الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذى يجب أن يعطى للغة المجرية فى التعليم فى المقاطعات التى فيها رومان وسلوفاكيون وصربيون . وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابيـة تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمى حرية الانتخاب وأزمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما أطلق بعضهم عياراً نارياً على خصمه أو هدده بالقتل أو ضربه بكتاب ودواة كما حدث ولا يزال يحدث

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجرى والنصف الآخر من عناصر مختلفة (ألمان وسلوفاكيون ورومانيون وروتنيون وخرواتيون وصربيون) بلاد أشبه ببرج بابل اختلطت فيها الالسنة وتبلبلت والمجريون يحاولون بكل ممكن ان يحترم غيرهم جنسيتهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بتقدمهم السياسى والمدنى وهذه هى حالة المجر ولولا أن العناصر غير المجرية مؤلفة من أجناس كثيرة ليس بينها أقل صلة وطريق الانتخابات النيابية الجارية في المملكة تحول دون أدنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم .

ولئن حاول الامبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر أن يصلح أسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فان مسائل الجنسيات مابرحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على أن تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وان يكون للمجرية حق التقدم فى هنغاريا (بلاد المجر) وقد كان فى مجلس النواب المجرى سنة ١٩١١ — ٤٥٣ مبعوثاً : منهم ٣٨٧ مجرياً و ٤٠ خرواسياً و ٣٤ وطنياً وهذه نسبة تستدعي الاستغراب والمجلس الاعلى أو مجلس الاعيان مؤلف من أعضاء وراثيين مثل البالغين من الارشيدوقة وأعضاء الاسر الشريفة التى تدفع على الاقل ضريبة عن عقاراتها لايقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن أعضاء يعينهم الملك مدة حياتهم بانهاء رئيس المجلس ومن أرباب المناصب العليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ أسقفا كاثوليكيا و ٩ اساقفة روم أرثوذكس و ٦ يمثلون المذاهب اللوثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة ينتدبهم مجلس نواب خرواسيا .

وللمجلس الاعلى أن يرد مايشاء من المشاريع والقوانين التى يقررها مجلس النواب ولكنه لا يستعمل هذا الحق الا نادراً لان مجلس النواب موقر فى صدره وغاية ما يستطيع عمله أن يرجىء الاقرار على قرار مجلس الامة

ومن الامراض التى أصيبت بها بلاد المجر كما أصيبت بها فرنسا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذى يزداد استحكاما اليوم بعد اليوم ففي احصاء رسمى أخير ان في المجر ٣٠١،٤٨٠ موظفا في شعب لا يتجاوز احد وعشرين مليون نسمة

فان الوزارة التى تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦ — ١٩١٠ قد أحدثت عملا لـ ٤٥ ألف رجل والوزارة التى خلفتها أحدثت فى العشرة الاشهر الأولى لتوليها الامر ثلاثين ألف وظيفة . وهذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لانه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد أن كثرة الموظفين فى الحكومة لا يفسر بأن الاشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل ان الوقت والمال والقوة تضيع فى هـذا التطويل والقيود . يساعد على ذلك الاهمال المغروس فى طبيعية الموظفين على الاغلب ولا سيما فى المجريين فمن لم يتابع البحث عن أوراقه ويلحقها من ديوان الى آخر ويوصى صاحب الشأن تضيع وتهمل ولا نغالى اذا قلنا أن المجر على كثرة تغاليهم فى التناغى باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من أبواب التدخل في أمرهم حتى فى المسائل الخاصة مايصح معه أن يحكم بأن البلاد المجرية أكثر الممالك التى جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها فى كل شأن من شؤونها

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهى لسان حال علم الاجتماع فى بودابست عـدة أحوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الاقدام الخاص والتبعة الشخصية فقالت ان الحكومة تعطي راتباً للكاهن الذى يعمد الوليد وللموظف الذى يقيده فى السجل وترزق المعلمين وتوصى الطابعين وصناع الأدوات المدرسـية وتدفع لمؤلفى الكتب المدرسـية ولنقادها ولانشاء دكات للمدارس ويستعمل خشب الحكومة وحديدها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدخان وعمال الدخوليات (أوكتروا) والكتاب والاخباريين وغيرهم والجمعيات العلمية والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمى والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون ابرازها الى حيز الوجود ولارباب الضجة والسكوت وتدر المال على الصـنائع الاهلية واسـتملاك محال الوقود وتساعـد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضاً والصراف مالا

هذا وحرية الأديان والمساواة لم تتم فى المجر الا سنة ١٨٩٥ وكان للكثلك المقام الأول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكفى أن يقال ان مساحـة بلاد المجر

تبلغ ٣٢٤،٨٥٠ كيلومتراً مربعاً تملك الاسقفيات والاديار والبيع ١٢ ألف كيلومتر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لان من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

أهم القوانين الدستورية في المجر ٤٥ قانوناً يرد عهد الاول منها الى القرن التاسع أي الى أحد عشر قرناً وأهمها قانون سنة ١٧٢٣ و ١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذى تم الاتفاق بين المجر والنمسا على أن يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم أنفسهم ويكونون مستقلين الا في الجيش والبحرية والامور الخارجية فيدفعون قسطاً صالحاً من المال لمعاونة حكومة فينا وتتعهد الاسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الاملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكا شرعياً الا اذا أقر على تتويجه مجلس المجر ويقضي القانون الاساسي في البلاد أن يقيم الملك ستة أشهر في فينا وستة أشهر في بودابست ولكن هذه العاصمة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الاغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الامة المجرية الا أن هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها في ثورة ١٨٤٨ التي لا يبرح المجر يذكرونها ويحتفلون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائداً مجرياً الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لاشتراكهم بحرب الاستقلال ضد النمسا ويسمونهم الثلاثة عشر شهيداً وترفع الاعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من أعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبته سنة ١٩٠٩ بالغاً حداً دل على مبلغ تعلق هذه الأمة برجالها الذين سعوا لاستقلالها .

للمجر انشودتان أنشودة الملك والجيش وانشودة الأمة ولها عيدان وطنيان الأول في ١٥ آذار والثاني في ١١ نيسان فالأول هو عيد المجر الحقيقي يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الأمة المجرية اشتراك الاشراف في جميع

التكاليف العامة والغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفى ١١ نيسان هو اليوم الذى صدّق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية

لايحب المجر النمساويين ويريدون أن يخالفوهم فى كل شيء ولو بالصورة الظاهرة وما أنس لاأنس يوم اجتاز بنا القطار من الأرض النمساوية وابتعدنا ساعتين عن فينا ودخلنا فى الأرض المجرية فان الأرض تكاد تلبس حلةغير الحلة الأولى وقال لى رفاقى فى القطار وكانوا مجريين أنت الآن فى أرض هنغاريايامولاي ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا الى مملكة أخرى وان مابين فرنسا والمانيا من التباين لايشعر به على الحدود بأكثر مما يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين

والمجر يطلبون اشارات خاصة لعسكرهم كما يطلبون أن يكون التعليم العسكرى باللسان المجرى ولهم مطالب أخرى يسعون اليها لئلا يكون للنمساويين عليهم أقل سلطة وتأثير وان كان لهؤلاء تأثير كبير فى الأمور الاقتصادية والعلمية كما للالمان هذا مع أن بلاد المجر غنية بصناعتها وزراعتها وعلمائها ويكفى بأن ثروة المجر قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة أملاكها العقارية وخمسة مليارات قيمة أموالها غير المنقولة ومثلها صناعتها وباثنى عشر مليوناً نقودها وبثلاثمائة مليون أموالها فى الخارج أى بأربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة أفقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض أو لم تستطع القضاء على حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها أو زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا ما استطاعت هذه ان تغلب المجريين

ليست الامة المجرية عريقة فى المدنية كالامم القديمة فى أوربا فقد جاءت حوالى القرن التاسع وانضمت الى أهل أوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى الآن شيئاً من أوضاع القرون الوسطى فى نظاماتها الاجتماعيـة فان تسعة اعشار من يعملون فى الحقول المجرية الى اليوم هم من السلافيين « الصقالبة » أو الرومانيين المغلوبين على أمرهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الأراضى وما زالوا يستثمرونها

بأيدى غيرهم ولم يبرحوا فى كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

واذا تأملت ملياً فى حال المجرى تجده يشبه التركى فى كثير من أحواله فانه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعاً هكذا شأن الفلاح والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركى فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون ان منا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة أشهر وهذا عيب كبير فى مجتمعنا

تقدر مساحة أملاك صغار الفلاحين فى المجر بعشرة ملايين هكتار أى ان يكون الواحد يملك ستين هكتاراً والوسط الذى يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين ومجموع ماتملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والاديار بعشرة ملايين هكتار

وقد أصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ ١٩٠٠ الى ١٩١٠ سبعمائة الف رجل فارتفعت أجور العملة وبيعت أملاك صغار الفلاحين من أواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم الى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون الى بلادهم يعودون أغنياء وقليل ماهم والعائدون يبتاعون الاراضى بالاثمان الفاحشة

وللاسرائيليين المقام الاول فى تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولا سيما فى بودابست عاصمة البلاد فان ثلث سكان هذه العاصمة من الاسرائيليين أى ثلثمائة الف من أصل تسعمائة الف وبيدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم أكثر الامة تعلماً وأقدمهم على الاعمال هذا مع أنهم ليسوا قدماء في البلاد بل أن هجرتهم اليها ترد الى العهد الذى طردت فيه اسبانيا وفرنسا والمانيا وبلاد ألقاع الاسرائيليين من بلادها فوجدوا فى بلاد المجر صدراً رحباً وخلفوا اليونان فى التجارة . وحيث توطدت قدم التاجر الرومى يصعب على التاجر الاسرائيلى أن ترسخ قدمه والرومى

كالاسرائيلى بشوش لين العريكة يعرف من أين تؤكل الكتف فى التجارة بخلاف المجرى

يقدر عدد الاسرائيليين فى المجر بثمانمائة وأربعين الفاً منهم ستمائة الف « تمجروا » أى أصبحوا مجراً حتى فى أسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فان كان أبناء اسرائيل يقبلون على التوطن فى هنغاريا فليس لان التجارة والصناعة والصرافة تستميلهم الى نزولها لان جميع الصناعات الحرة مفتحة الابواب أمامهم

هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها فى يومين اثنين صرفتها فى عاصمة بلادهم أزور معاهدها البديعة وبودابست من أجمل عواصم أوربا وهى مدينتان فى مدينة أى بوداوبست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان باربعة جسور كبرى بديعة من أجمل ماهندس المهندسون والجسران الجديدان الاخيران هما من صنع مهندسين مجريين أما المدينة فمقسمة شوارع نخمة فسيحة وهى نظيفة لا تقل عن أحسن العواصم

وأهل المجر يحبون الاتراك ولا يزالون يذكرونهم بالخير لانهم يرون أن اخواننا أسدوا اليهم جميلا غير مرة وآخر مرة فى ثورة المجر الاخيرة يوم لجأ زعماء الثورة الى الارض العثمانية فحماهم سلطان العثمانيين « واظنه المرحوم السلطان عبد المجيد » من أن تنالهم يد النمسا التى طلبت بالحاح تسليمهم وآثران يشهر حربا على النمسا أو تشهرها عليه على أن يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

حياتنا والحياة الاوربية (١)

٦٧

سادتي الاعزة : تقاضاني بعض الاحباب دينا لم أر بداً من قضائه على حين اشتداد الازمة بل الازمات فى بلادنا . أرادونى أن أحاضركم بشيء مما جنيته

(١) محاضرة لنا القيناها فى المنتدى الادبي فى الاستانة يوم ٢٤ ربيع الاول ٣٣٢ و ٢٠ شباط ٩١٤

فى هذه الرحلة الثانية الى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعنى الا اجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهـم وان كان البحث فى نهوض القوم أو في فرع من الفروع ارتقائهم يحتاج الى درس عميق وبحث دقيق ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله فاذا أتيتكم بأمور تعرفونها أو أكثرها فذاك لانى أحببت المبادرة الى امتثال الامر مع علمى بأني لا آتى بجديد على أنه لا جديد تحت الشمس :

كانت السياحة في سالف الزمان ضربا من شاق الاعمال ولكنها أصبحت فى هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة اليها أكثر من غيرهم ويدخل في الخاصة أرباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات فى الكتاب العزيز فى الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف في العمل يهدى قديمه ولم يهتد الى وجه الصواب فى حديثه .

كان أجدادنا يطوون الاميال والفراسخ أياما وشهوراً لينتقلوا من قطر الى آخر ونحن اليوم نسيح فى شرق الارض الى غربها فى أيام يسيرة ونقطع بضعة الوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا نرى السائحين منا الى الآن أقل من السائحين فى العصور الماضية هذا اذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر أسباب الراحة فى عصرنا وفقدانها فى أعصار أجدادنا أيام كان يقول ابن زريق البغدادى وقد رحل من بغداد الى الاندلس .

ماآب من سفر الا وأزعجه   رأي الى سفر بالبين يجمعه
كأنما هو فى حل ومرتحل   موكل بقضاء الله يذرعه

اننا اذا رحلنا اليوم الى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها وتقوى حواسنا بعد انثلام حدها وندخل فى طور نتعلم فيه ونعتبر ونتعود عادات حسن أكثرها وجدير بنا أن نقتبسها عمن سبقونا مراحل وأشواطا . لانها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل . فكل مانراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت .وأجيال عملت فعملت :

وأحب آفاق البلاد الى الفتى   ارض ينال بها كريم المطلب

تكثر الخواطر على السائح منا في ربوع ام الحضارة الحديثة فلا يلبث ان يذكر بلاده ويقابل بين حالها ومايشاهده هناك من السير نحو الكمال بخطاسريعة فى حين يرى امته تسير سير السلاحف .

ان القباع سار سيراً نكرا   يسير يوماً ويقيم شهرا

نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء ، ونحن مازلنا نسير بسير الجمال والبغال والحمير ، وشتان بين نظام السيرين .

سر اين شئت من بلاد المدنية تجدها نسقاً واحداً في الاستمتاع بنعم الجمال والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيازا فى أمور تتفرد بها ولا فرق في اصل المادة بين الشرق والغرب : سهول واودية وجبال وانهار وبحيرات وبحار ، ولكن الفرق فى تربية العقول ونمط الحياة فالسر اذاً فى السكان لافى المكان .

سحت هذه المرة فى ايطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجرفرأيتهاالا قليلا متشابهةفى راحتها ونعيمهاوعمرانها وعلمها وآدابهاوصناعاتها : الناس كلهم يتفننون فيما يعلمون ويسيرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ماهذه الروح التى تجرد منها جسم الشرق وسرت فى عظام الغرب وأعصابه وشرايينه فأتى أهله بالعظائم ونحن بقينا خامدين مبهوتين منحلين متضائلين

لاتغبط المجدب فى علمه   وان رأيت الخصب فى حاله

ان الذى ضيع من نفسه   فوق الذى ثمر من ماله

مدنية الغرب غريبة فى كل مظهر من مظاهرها ، لأن أهلها أحسنوا الانتفاع من كل قوة فى الوجود ونحن أضعنا بجهلنا القوى القريبة الانتفاع . هذا شأنهم فى كل شيء فكأن الغرب حلف أن لايخالف الشرق والشرق آلى أن يخالف الغرب على كثرة حاجته اليه واضطراره الى الأخذ عنه .

رأيت أولاداً وبنات دون العاشرة يسيحون فى الغرب من قطر الى آخر وحدهم بدون أدنى رهبة وارتباك ، ولم أشهد كثيراً من رجالنا يستطيعون السياحة فى أوربا وأميركا على مايجب ، وبهذا تعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بأن صبيانهم

أقوى من رجالنا ، وفتياتهم أعقل من نسائنا فاذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الخمسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم أطول وأجزل .

اننا فى درس المدنيــة الغربية نأخذ ماتهيأ لنا وتمثل لانظارنا بادىء الرأى ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا أن نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنهم فما بالك بالمملكة أو الممالك . ينفد العمر ولا تنفد مادة الكلام عن رقى الغرب وكلما تأملنا معاهده ، وحللنا مادة قواه ، نبكى لضعفنا وقوتهم ، وجهلنا وعلمهم ، ونكاد ندخــل فى اليأس المميت ، من تحسين حالنا لولا أن اليأس محرم ، وأن التاريخ يحدثنا أن أمماً كانت أحط منا منزلة فارتقت لما صحت عزائم بنيها على انهاضها ، والأمم لاتموت الا اذا اسلمها بنوها العارفون للموت .

مواد هذه المدنية التى تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن أهمها تقدم الغربيين فى بيوتهم عنا ، ورقى الأسرة هنالك وانحطاطها هنا ، والمملكة التى تتألف من بيوت راقية هى التى تحرز شوطاً أبعد من غيرها ، وما الممالك الراقية ، الا مجموعة بيوت راقيــة ، والكليات تتألف من الجزئيات ، ومن تماسكت أجزاء مادته ، كانت أسبابه اقرب الى القوة بالطبيعة .

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصراً في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفنــدق والمسرح والقهوة والاماكن العامة يسجل فى مذكرته أمثلة لا يكاد يحصيها من رقي الأسرة الأوربية تجسمت فى جميع حالاتهم اى تجسيم ، وحامل المسك لايخلو من العبق

تحمل مدنية الغرب فى مطاويها حسنات وسيئات ، ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التى بزت الفضائل ، والرذيلة التى تربو على مجموع الرذائل ، ولكن المليح ، يغطى وجه القبيح ، فكأن شعار المدنية الحديثة الارتقاء ، فى كل شىء ، والجمع بين المتناقضات ، اما الشرق فهو وسط او دون الوسط ، والوسط والدون لايكادان يعملان عملا محموداً فى هذا الوجود .

أذكر لكم أمثلة ثلاثة من عشرات من الأمثــلة وقعت العــين عليها فى باب ارتقاء الأسرة الغربية تمثل أدوار الأعمار وأدوار البيوت . المثال الأول أسرة

فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من أهل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لتطبب أحد أولادها ونزلت فى المنزل الذى أقت فيه فلاحظت أمرها مدة أربعة أسابيع انظر عناية الأبوين بتربية أولادهما فكان الوالد يوقظ أولاده فى الساعة السادسة والنصف ويأخذ فى الباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الأبنتين وتمشطهما فاذا تناولوا طعام الصباح يرافق الثلاثة من أولاده الى المدرسة لانه وضعهم فى المكتب مع أن مدة مقامه فى تلك المدينة لاتتجاوز شهرين ثم يعود الى الدار ويحمل ابنه الى الطبيب ويعود به بعد ساعتين فيجيء الاولاد فى وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيعهم ثانية الى المدرسة وربما عاد اليهم فى المساء ليستصحبهم أو اكتفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى النزهة . عناية فائقة فى هذين الوالدين الذين لايعرفان غير تعهد صحة أولادهما وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والتدين . هذه الأسرة من أسر الأرياف والفلاحين من أهل الطبقة المتوسطة التى تكون على شيء من اليسار ولطالما هنأت الوالدين على عنايتهما باولادهما وقلت لهما أن الأسرة الفرنسوية لوكانت كلها مؤلفة على هذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بمايشبه هذا الحنان الفتان لاستحت فرنسا أن تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية فى بعض عواصمها . ولهذه الأسرة مئات الألوف من الأمثلة ومثل ذلك يقال فى جميع ديار الغرب

والمثال الثانى الذى رأيته يمثل درجة أخرى من درجات الأسرة رأيته فى ايطاليا فى قصر من أعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتليد وأعنى به منزل صديقى الامير ليوني كايتانى الذى صرفت أياما فى الاشتغال فى مكتبته أبحث عن تاريخ بلادى وأجدادى فان هذا الرجل الشريف فى أمته الغنى بعلمه وما له لم يرزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه أرسله الى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخذه الشفقة عليه وآثر أن لايراه وأن يربى تربية راقية صحية على أن يكون فى داره القوراء بين والديه وأهله وقبيله .

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فان العلامة غولد صهير شيخ

المشرقيات فى هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلما زوجه أخرجه من بيته على عادة الافرنج فى اخراج أولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا أسرة برأسهم ويعيشوا مستقلين عن أبويهم فلا يقع نفور بين الكنة وحماتها ولا بين الولد ووالده . والراحة فى الاستقلال فى كل شيء . هذه أمثلة ثلاثة من أطوار الأسرة الاوربية تمثل أطوار تلك الأمم أما تحليل أجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كياوى كبير يحشر اليه علماء التربية من أجدادنا والمحدثين من أهل الغرب ليقولوا لنا خلاصة تحليلهم لمادة الحياة الاوربية النامية . والعبرة بالكيفية لا بالكمية .

دعانى الأستاذ غولد صهير لتناول طعام العشاء فى بيته وقال لى أنه سيكون معنا ابنه غولد صهير المهندس وكنته ولما قدمنى اليهما قال لى : ان كنتى وهى تعرف خمس لغات فقط تكتب بها و تتكلم بسهولة عارفة بالآثار المصرية Egyptologue فقلت لها : بارك الله فيك أيتها العقيلة المحترمة : مجرية في مقتبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر باريز نا وأهلها أرقى شعب اسلامى ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة أحمد كمال بك وكيل المتحف المصرى هذا الرجل الفرد فى وادى النيل يتوفر على البحث فى عاديات مصره على الاصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من يعلمه مايعلم ليخلفه على الاقل فى منصبه لانه بلغ سن الشيخوخة ولم يجد فى ثلاثة عشر مليون مصرى من يقبل على تعلم ماأفنى حياته فى تحصيله وألف فيه ونوع الاساليب فى نشره فى الكتب والمحاضرات والمقالات . أنا أعلم أيتها العقيلة النبيلة أن فى أوربا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لى ببال أن أرى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال فى علمهم وتساهمهم في من يحتاج الى نظر دقيق ومادة منوعة في العلم ، فان كان نساؤهم على هذا المثال فلا عجب اذا كان من رجالهم العجب العجاب

الى اليوم لم نفكر فى هذا الشرق الاقرب فى تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب ، والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الاول الا بنهوض النصف الثانى ، فان كانت كنة غولد صهير أستاذ تفسير القرآن والأصول والحديث والملل

والنحل فى جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية ، فكم عالمة بل عالم عندكم معاشر العرب بآثار البتراء وبعلبك وجرش وتدمر وبابل وأشور وحمير والحيرة

أنا مع الأسف على كثرة بحثى فى تراجم الناس وأيامهم لا أقدر أن آتيكم بواحد يكون على النمط الاوربي فى بحثه ودرسه كما لا أجد فى أمتى المهندس الذى أريده ولا الكيمياوى ولا الطبيعى ولا المصور ولا النقاش دع من يماثلهم من النساء اللاتى شاركن الرجل فى معظم حياته المادية والمعنوية فى الغرب . وعما قريب يشاركنه فى الحياة السياسية .

كل ما تعلمناه الى يوم الناس هذا ، وقلدنا فيه الامم الراقية لم يخرجنا من الظلمات الى النور ، فلم نبرح عيالا على الغرب فى معظم شؤوننا ومرافقنا وقيام أمرنا ، فما دمنا نريد التحرير السياسي وليس لنا من أسباب التحرير العامي قليل ولا كثير هيهات أن تقوم لنا قائمة .

كيف تعمر بلادنا وتستبحر الحضارة فيها ونقلد الغربى فى حياته السعيدة وليس عندنا مصور ولا مهندس ولا نقاش ولا معمار ولا موسيقار ولا كيمياوى ولا غيرهم وزيادة على ذلك جهل النساء وهو من أعظم الويلات .

لم نعمل حتى الآن احصاء بعدد الاميين فى بلادنا ولكن المفهوم ان عدد الاميين هو ٩٥ فى المئة فى بلاد العرب فى حين أصبح عدد المتعلمين فى أكثر مدن الغرب مائة فى المائة تساوى فى الاخذ من العلم بالحظ اللازم النساء والرجال والمتعلم منهم التعليم الابتدائى أرقى من المتعلم منا التعليم الراقي وكل شىء نسبى

قالت لى فتاة بولونية في الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم فى جامعة جنيف على أحد مشاهير هذا العلم وهى عارفة ببضع لغات أوربية وقد سألتها عما تقصده من تعلم هذا العلم فقالت : أريد أن أؤسس مدرسة فى بلدى لان الواجب على المرء ان يكون شيأ في هذا الوجود . فقلت لها : جزاك الله عن هذا السعى لامتك خيراً ولكن نساءنا فى الشرق لايردن ولا يريد أولياؤهن مثل ماتريدين ، اكتفين بان يكن لا شىء فى هذا العالم ولذلك لا تجد بين ألوف من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والالمانيات والايطاليات والرومانيات

والبلغاريات والصربيات واليونانيات والاسبانيات والبرتقاليات والبرازيليات والارجنتينيات طالبة عربية اللهم الا واحدة مصرية فيما أعلم تساهم بنات جنسها وتزاحمهن على دكات الجامعات فى سويسرا وفرنسا وانكلترا وألمانيا فتأملوا حال أمتكم وانظروا الى أى درجة بلغ بين أظهركم انحطاط عقول بنات حواء .

كلما نظرت ملياً فى سعادة الحياة فى الغرب وشقائها فى هذا الشرق يتجلى لى سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وانها هى التى أوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحب والجمال والعواطف والرغبة فى الكمالات تمت للبيت الغربى سعادته ومن سعد فى بيته أو توقع السعادة فيه كان حرياً بأن يعمل الأعمال العظيمة خارجه اذ يجد له فى منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء .

رأيت كثيراً من شباننا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ماعندنا من الفتيات المتعلمات اللائي يلقن للزواج الذى تكون من سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب العصرية والفضيلة والمعارف ولكننى لم أرشابا من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من عنى بتعليم أخته أو ابنته التعليم الراقى ولا من فكر فى تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتلقين البنات مبادىء تنفعهن حقيقة فى تأليف البيوت التى يرفرف عليها طير السعد والرغد . النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم نسلك طريقها ويالللاسف حتى الآن

أوربا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء أيقضى ياترى على مدنيتك البديعة وتنحل بما حوت ديارك من جمال الوجود وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل مابدأت به أويمزقه تمزيق الاخرق الاحمق كثروة ورثها وارث لم يعرف قيمتها أم تسلم لك هذه الحياة السعيدة وتقل مؤلماتها وموبقاتها ويعم الشرق أثرها ويشاركك فى كل معنى من معانيك البديعة ويكون حظه كحظ البلاد الراقية من ربوعك ويتحرر من أمره السياسى وأمره الاقتصادى وأمره العلمى ويتخلص من التبعية لك فى كل مايدل على ضعفه وتراجع أمره .

تيار الغرب ينهال علينا فيأتينا تارة بحماة وطوراً بقليل ماء فهل نرزق التوفيق

ياترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته أم نتناوله على علاته ولا نكاد نسيغه .

ان مالدينا اليوم من أسباب القوة لايقوم فى وجه ذاك التيار لانها ضئيلة لا كفاء لها بالمقاومة ؛ ولعمرى أن ألف أمى وأمية لايوازى عقلهم عقل متعلم أو متعلمة واحدة .

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضاً . وكلما كانت الأفكار منصرفة الى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك المجتمعات تغتبط وتفرح . ولطالما قال بعض من أحسنت الأمة ظنها بهم قروناً واستولوا على عقلها وقلبها وتصرفوا بعجرها وبجرها اذا قيل لهم أن العلم الفلانى مفيد ينبغى أن يكون فى الأمة أفراد يعرفونه : أن هذا العلم لاتنفع معرفته ولا يضر جهله .

بيد أن الأيام أثبتت أننا فى أشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربى العثمانى لايقوم حق القيام الا متى عمد أفرادنا الى الأخذ من كل مطلب من مطالب الحياة كما هى بسنة من سبقونا ، ومن الأسف أننا لم نبرح فى مجتمعنا نشاهد ناشئتنا الكريمة على الاغلب تميل الى المذاهب الاتكالية وأكثرها يؤثر التوظف فى فروع الادارة والجندية ولو كانت هذه غير رابحة فى الجملة . ان جعل وظائف الحكومة هدفاً لنا فى تعلمنا هو الذى أفقر هذه المملكة وجعلها فى مؤخرة الممالك فى عمرانها وثروتها وراحتها . والمال أساس الاعمال ولا يأتى به الا المتعلمون من الرجال .

فهل لكم يارجال الأمة أن تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من أقبال المتعلمين من أمثالكم على الوظائف والزهد فى الصناعات الحرة وانى لأخجل اذا قلت أن صانع الخزف والفخار والقرميد أنفع لهذه الأمة من وزير متوسط القريحة ضعيف مادة العلم لايحسن عمله وقد وصل الى منصبه بالمصانعة والشفاعات وان دباغ الجلود أو صباغ الحرير والقطن أشرف من فقيه تعلم بعض فروع المعاملات ليتولى بعض الاعمال القضائية والشرعية .

وبعد فرجائى اليكم ياشبان هذه الامة ، وبغيركم لاتجدد شبابها ، أن تجعلوا نصب أعينكم الاعمال الاستقلالية ويكفى بعضكم أن يتولى الاعمال الادارية وغيرها فى المملكة فان الكل لاتتسع خزينة هذه الامة لاعاشته خصوصاً وأنتم تعلمون

ضائقة الموظفين وان جيوبهم فى الغالب فارغة تتقاذفها الرياح لانها خالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة اقبال وادبار والادبار فى الاكثر هو الغالب .

من لى بأن يعمل كل واحد من شبان هذه الامة الواجب عليه أولا ويتوفر على دراسة الفرع الذى يمت به فان سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي أن يعمل فيها مايجب عمله فى غيرها ومتى أتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه اذا اشتغل بالعموميات فمشاركة الطالب فى المسائل العامة يجب أن تكون فى سن الدراسة الى حد محدود وبعد ذلك فهو فى حل من الاشتغال بما أراد .

أنا أحب أن أشهد من أبناء أمتى وقرة عينها رجالا يفكرون فى ترقية نفوسهم وذويهم وبيوتهم والاخذ بأيدى اخوانهم أكثر مما أحب أن أراهم يفكرون فى المسائل الاجتماعية الكبرى التى يضيع بها الوقت على غير طائل بالنسبة اليهم وان كان الواجب على كل وطنى أن يصرف من فكره ووقته شطراً ولو قليلا للنظر فى المسائل العمومية .

تلامذة الكليات فى ألمانيا هم الذين هيأوا الوحدة الالمانية ووضعوا أساسها فى القرن الماضى ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتى يوم على هذه الامة البائسة ياترى تشهد فيه طلاب مدارسها العليا بعد أن يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون فى الخير العام لامتهم خصوصاً متى أتموا سنى الدراسة وأصبحوا أحراراً فى أعمالهم وارادتهم . نعم أيها الاخوان « ان الشفيق بسوء ظن مولع » وان مايتمثل للانظار من مدنية أوربا مهما كان ظاهره فيه الرحمة فرحمته لاهله لا لنا ونحن لارحمة لنا الا اذا أتتنا على أيدى رجال لنا أمثالكم وهؤلاء لا يأتون بعمل تام الا اذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الاساليب الغربية نعم نحن لاحياة لنا الا اذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووجدنا المقاصد فى التربية والتعليم .

ان القليل المتعلم منا لا يؤلف أقل أمة صغيرة ، وهذه الزهرات التى أراها مهما بلغ من نضارتها تضيع بين ماهنالك من عوسج و بلان فلا سبيل الى وقايتها الا بتنقية هذا الشوك ماأمكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة

الغرب التي سلكها في الترقي على تعديل طفيف يدخل فيها بطبيعة الاقليم والعادة .

ان ناديكم هذا مثال من أمثلة التضامن ولكن أمتنا لا تعد مرتقية الا متى كان في كل مدينة بل في كل قصبة من مدنها وقصباتها أندية تنسج على منواله في التعارف والتعاطف وتوقد في الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس الى طلب العلم ويأخذ القوى بيد الضعيف حتى يساويه في المنزلة ويتدبر الكل في مستقبل مجيد للامة يخرج بها الى حالة أحسن من حالتها الآن ويتعلم ابن الفلاح الصغير كما يتعلم ابن الغني الكبير واذا لم تقم جميع أعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء .

واجباتكم أيها الاعزة كثيرة جداً والاولى البداءة بالجزئيات ولكن على شرط أن نبدأ ونجعل تاريخ الامم التي نهضت قدوتنا ومهماز نا على العمل يجب أن تكون مدنية الغرب اذا أردنا أن نحيا حياته مصدرنا ومو ردنا وبدون ذلك الفناء المطلق والعياذ بالله أو الاندماج في جسم الامم الغربية التي تبسط أيديها علينا اليوم بعد اليوم .

اننا لا نحيا الا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم ولكن هذا اللفظ الجميل - لفظ القومية - لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون والايطاليون وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والفلامنديين في البلجيك والالمانيين والفرنسويين في سويسرا

ومن دواعي الحسرة ان من رحلوا من أبناء العرب الى ديار الغرب يدرسون في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربي الشريف بالفعل لا بالقول أقل عدداً من أكثر عناصر هذه الدولة . نعم هم أقل من الاتراك والروم والأرمن هذا مع أننا أكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة وبلادنا أغنى من بلاد تلك العناصر التي أخذت ما استطاعت من الحكومة لتعليم أبنائها وقامت بسد العجز من أموالها الخاصة .

بلغني أن في نية الحكومة السنية ارسال ستين طالباً من أبناء العرب الى مدارس أوربا العليا فان صح النبأ عد من أعظم الاصلاحات . وان كان هذا العدد دون الواجب أيضاً وذلك بأنا اذا ضمنا عدد طلابنا الآن بستين طالباً بلغ من قابل مجموع طلبتنا في الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبة الايرانيين

في مدارس أوربا مع أن العرب العثمانيين أكثر سواداً من الايرانيين بالتحقيق .

هذه عددنا وهذا ماأعددناه ، هذه أدواؤنا وتلك أدويتنا ، وبأيديكم وأيدى أمثالكم خلاصنا ، فلا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة العبء ثقيل عليكم وبتضامنكم وتماسككم يهون كل عسير على شرط أطراد العمل وأتقانه ، ومضاعفة الافعال أكثر من الأقوال ، وصرف المسعى الى المنتج النافع ، والزهد فى التافه العبث ، والله يتولاكم ويسدد مراميكم ، ويقر عيون أوطانكم بنجاحكم ويجعل منكم أعضاء عاملة فى جسم مجتمعنا وأصواتاً داعية الى كل نافع ورافع أنه سميع الدعاء

ارض يونانه

٦٨

اغتنمت فرصة ارساء الباخرة الرومانية التي ركبتها من الاستانة الى الاسكندرية في ميناء بيرا لازور آتينة مدينة ارسطو وسقراط والمسافة بين بيرا وآتينة تسعة كيلو مترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية فى خمس عشرة دقيقة . رأيت آتينة مدينة وسطى لاتزيد نفوسها عن مائتى ألف وهى فى منبسط من الأرض وعلى مقربة منها أكمة قام عليها الاكروبول والمدينة نظيفة فى الجملة مبلطة أرصفتها بحجر أبيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وابنيتها الحديثة من الرخام أيضاً وأهم مالفت نظرى فيها معاهدها التى قامت بعطايا المحسنين من أبنائها مثل الستاد أو الملعب العجيب الذى أنشىء بمال أفيروف ونصب تمثاله أمامه . وافيروف هو الذى خلف ملايين من الفرنكات أعطاها لأمته ومنها أنشأت قسما من الدارعة اليونانية المنسوبة لاسمه .

ثم فى آتينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات عالية داخلية وخارجية أنشأها ارساكى من ماله وترى مكتبة الامة أسسها فاليانوس وترى لافيروف حبوس النساء والاولاد ولسنيا المجمع العلمي ولسينكروس حبوس الرجال

وقد أنشأ على نفقته من آتينة الى فالير طريقاً معبــدة وطولها ٩ كيلو مترات . وأنشأ فارفاكيس مدرسة عالية للأولادوبابا باس قصرالمعرض وهومؤسس مدرسة البنات العليا للروم فى الاستانة وهكذا تجد فلاناً من أغنياء اليونان أنشأ مدرسة صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس ابتدائية وليلية للفتيان والفتيات فتجد اليونانى مع أنه أكثر الامم هجرة لبلاده ــ لأن نصف اليونان هاجروا الى مصر والسودان وأميركا وشواطيء البحر المتوسط وغـير ذلك من البلاد ــ أكثرهم تعلقاً بحبها وتفكراً فى انهاضها يغتنى أحــدهم من مصر أو من أميركا ويجود بالالوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وان كان المشهور عنهم كزازة الايدى .

نهضت يونان فى المدة الأخيرة نهضة عظمى بفضل نشر التعليم على اختلاف صنوفه بين أبنائها وهو الدواء الشافى لكل مرض اجتماعى .

التعليم فى يونان مجانى اجبارى وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور منها ١١٩٧ من الدرجة الأولى و ١٣٤ من الصف الثانى و٢٩ من الصف الثالث و ٥٤ من الصف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسة للبنات منها ٣٠٠ من الدرجة الاولى وفى القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والأناث على السواء وعندهم مدرسة عليا لتخريج المعلمات وقد أنشأت جمعية آتينة الأدبية عدة مدارس مسائية يتعلم فيها مئات من الفتيان المضطرين أن يعملوا فى نهارهم وليس لهم من الوقت غير الليل . فى يونان ١٨٧٨ أستاذاً و ٦١٠ معلمات و٧٦٨ معلماً في مدارس الاولاد فى الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم الى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم ويخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الأولى والقسم الآخر يعلم الصناعات النفيسة أى النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية . وعندهم مدرسة تجارية ومدرسة جامعة عليا فيها أساتذة اشتهروا بأعمالهم العلمية حتى فى أوربا .

هذا مع أن لليونان فى الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فان لهم فى الاستانة وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلماً يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالبا دع مالهم فى البلاد

التي ضمت الى بلادهم حديثاً وكل المدارس التي هي خارج علمهم لاتنال شيئاً من الرواتب من الحكومة بل ان يونان هناك يقومون بنفقاتها .

ربما لم تصب بلاد بمصائب الهجرة أكثر من اليونان فان الداخل منهم الى نيويورك وحدها كل سنة يقدر باربعين ألفاً فما بالك في الاقطار الأخرى فاذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك ويانيا التي انضمت اليهم نحو ثلاثة ملايين فان المقدران مثل هذا العدد منهم موزع في أقطار العالم وهم يحافظون على لغتهم وعاداتهم حيثما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الاسكندرية ومصر والاستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغي بها .

ومع كثرة المدارس في اليونان ترى طلبتهم في جامعات الغرب كثاراً جداً ولا سيما في باريز ولندن . واليونان ان لم يكونوا أكثر الامم اقبالا على تلاوة الصحف والتشوق للاخبار السياسية فهم في جملة الامم المتقدمة في هذا الشأن فلاتكاد تجد واحداً لايتلو جريدة أو كتاباً أو مجلة في كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لاتروج جرائدهم كثيراً فان لهم في أثينة (١١) جريدة يومية واذ كان العدد الواحد ينتقل من يد الى أخرى كما تنتقل جرائدنا في الشام ومصر في أيدي قرائها الذين لايحبون أن يشتركوا ولا أن يبتاعوها اقتصاداً بارداً منهم صعب على جرائدهم ان ترقى .

ولليونان جرائد كثيرة في الاستانة والقاهرة والاسكندرية وجرائد أسبوعية في بعض عواصم أوربا ومنها ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبثوا فيها أفكارهم ويؤثروا في الاسواق المالية والمجالس السياسية .

هذا ماأمكن الالماع اليه من حالة رقي المعارف في يونان وأرضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ ألف كيلومتر مربع وهي غير مخصبة في الجملة بل أكثرها جزر متقطعة في عرض البحر حتى ان سواحلها تبلغ في مساحتها سبع مرات مساحة سواحل انكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان في كل زمن يحصرون قواهم في بحريتهم ويصرفون فيها أموالهم وقسما عظيما من ميزانيتهم وقد كان لبواخرهم التجارية يد طولى في استقلالهم سنة ١٨٢٤ لاينكرها التاريخ .

واختلف العلماء فى أصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الأرض فتوحا وفلسفة وصناعات نفيسة والارجح عند الباحثين فى أصول الشعوب أنهم اخلاط من الناس جاؤا منذ قرون الى هذه الارض واستعمروها بعد أن فرغت من سكانها الاصليين أما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج ويحاولون بالطبع أن ينتسبوا لافلاطون وأرسطو وسقراط وديوجنس وهوميروس وغيرهم من فلاسفة يونان الذين بيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم .

آثينة تشبه المدن الاوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها أكثر من جميع أوربا قال صاحب كتاب يونان الحديثة (1) ان أسعار العيش فى يونان يزيد ٥٠ فى المئة عما هو عليه فى انكلترا ونحو ٢٥ فى المئة عما هو فى الولايات المتحدة

المدنية الرومية الحديثة منقول أكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيراً ولذلك حفظوا لها جميلها ومابرحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى أن معلمى جيشهم الى الآن هم ضباط من الفرنسيس وفى الحرب الالمانية الفرنسوية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعتهم ليقاتلوا فى صفوف الجيوش الفرنسوية فقتل بعضهم وبيضوا وجوههم مع من أسدى اليهم جميلا ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الأمزجة المختلفة والميل الى النافع له ما أمكن بكل وسيلة .

ان مافى آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذى يلفت نظر السائح اللهم الا اذا أحب أن يزورها ليتذكر مافيها. وأين عظمة رومية من عظمة آثينة ولا نغالى اذا قلنا ان بقايا عادياتنا فى جرش ووادى موسى وبعلبك وتدمر أفخم وأعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التى لم تقو على عاديات الايام .

فى العاصمتين

٦٩

رأيت هذه المرة فى العاصمتين عاصمة الترك الاستانة وعاصمة العرب القاهرة ماطالما شكامنه الاجتماعيون من الاتكال المجسم والغلو فى حب التوظف والاستخدام

(1) Percy F. Aartin la Gréce noeinelle

رأيت ابن الاستانة لا يفكر ولا يريد أن يفكر فى غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصرى كذلك كلاهما يستميتان فى طلب الوظائف وقد زهدا فى الاعمال الحرة فلا تكاد ترى فى الاستانة متعلماً الا وهو يرغب أن يبيع استقلاله من غيره ويكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها . ومن الاسف ان هذا الخلق استحكم حتى لا نشهد سوى أسباب الرزق الضئيلة بيد الاتراك أما التجارات الواسعة والصناعات الرابحة فهي للرومى والارمنى والالمانى والافرنسى وغيرهم من الشعوب والامم وكذلك المصرى المتعلم لم يتعلم الا للخدمة فى الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المعاش للرومى والايطالى وغيرهما .

داء استحكمت حلقاته حتى أفقرنا . يسلب الغريب منا أموالنا ليحملها الى بلاده ولا يزال آخذاً بالانتشار والعبر فى القطرين تتلو العبر داعية القومين الى أطراح المذاهب الاتكالية وان ابواب الاستخدام اذا فتحت اليوم قليلا فغداً تقفل حتى فى وجوه الكفاة من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق صدراً عن اتفاق مايلزم من المال على العمال والمستقل فى عمله أنفع لنفسه ولقومه من المتعلق باذيال غيره الذى يعيش عالة على السوى .

كنت فى القاهرة فى زيارة صديق لى من أهل العلم والمكانة فى الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسلمة ودفعت اليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة ما نالها من من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة فى المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهات كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العينى وطالبة اليه أن يساعدها لارجاعها الى مركزها .

فقال لها صاحبى أن مصلحة الصحة قد أسدت اليك معروفاً يجب عليك أن تشكريها عليه . وهو أنه فتحت أمامك باب الاستقلال فى عملك ومصرفى حاجة الى طبيبة مسلمة مثلك وليس فيها كثيرات من أمثالك وأنت تكتبين العربية والانكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فانصح لك أن تعمدى الى نشر اعلانات عن محل تتخذينه وتشتهرين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة ان تدفعى هذا القدر من المرتب الذى تعدينه شيئاً للممرض الذى تستخدمينه فانك ستربحين

العشرات من الجنيهات فى شهرك وتخدمين بذلك بلادك ونفسك .

فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطبيبة وأخذت تورد الحجج على صحة ماتريده وانه لاقبل لها الا باستخدام ولا رزق لها الا فيه وانها اذا نالت الخمسة جنيهات فقد حيزت لها الدنيا وأخذت بحظ من السعادة لها ولاسرتها لان هذه أنفقت ما كانت تملكه فى تعليمها فلم يعد فى وسعها ان تزيد على ذلك .

وهكذا بقى صاحبى وانا نورد البراهين القاطعة التى تلقن الفتاة معنى الاستقلال وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهي الامر الى ان يكلم فى امرها أحد اصحاب الشأن ليرجعوها الى وظيفتها التي اخرجت منها من غير سبب ولا تجد سعادتها الافيها .

هذا مثال رايته بالامس فى مصر وكل يوم يقع مثله عشرات فى الاستانة . وان المرء ليأسف جد الاسف على عقول تضيع من غير فائدة واعمال وكفاآت تذهب هباء .

اناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم ان يبرزوا في كل عمل تصح ارادتهم على اتخاذه وان يفتنوا ويرتاشوا ويعيشوا مرفهين لا مقتراً عليهم واحراراً لا مقيدين مستعبدين

فى الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض مايمكن الانتفاع به من موجوده لايحسن استخدامه والمتعلم من أهله يعتقد أن الراحة والغبطة في الاعتماد على خدمة يخدمها ومادرى أن تعبه في هذه الراحة وأنه لاراحة بدون تعب ولو كان هذا الخلق غرس فى طباع الانكليز والاميركان والالمان والفرنسيس وغيرهم من أمم المدنية الحديثة كما غرس فى طباع سكان هذه الديار ماقامت هذه الحضارة التى تدهشنا ولما استقام نظام الاسرة على صورة تبهرنا آثارها .

اليس من الاسف ان نكون حتى في بلادنا غرباء فاذا اراد احدنا ان يترفه بعض الرفاهية لايجد نزلا ولا مطعما ولا قهوة ولا مسرحا وطنى بل كلها للافرنج . والتركى والعربى باهتان شاخصان لايعرفان من اين تؤكل الكتف لانهما يجهلان اصول الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفخل والفخفخة وضخامة الالقاب .

ولطالما راينا من نعدهم من كبرائنا يطأطئون رؤوسهم ذلة لتاجر مظهره في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لانه جم ... ه ارادة ان يقرضه مايستعين به على تمشية اموره او يتبلغ به يسيراً ر صرف له مشاهرته .وهذه الحال تراها على اشدها فى القطر المصرى لان ان مع ر منفاق على لايفكر فى أن يوازى غالباً بين دخله وخرجه ولذا انس الاملاك اوجزء كبير منها من ايدى المصريين الى الغرباء والرومى فى المقد يسر الحال فى الاستانة أدهى وامر .

وبعد فحيث اشتد العراك بين الامم وبعبارة اخرى في العواصم الشرقية التى تكون فيها المنافسة على اتمها تجد الوطنى يتضاءل ويضعف امام الغربي بل ينهزم شر هزيمة وتتجلى للناظر صورة الاتكال والاستقلال — بل صورة من العلم النظرى الذى هو القشور وصورة العلم العملى الذى هو اللباب

اشتدت في فرنسا على عهدها الاخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين والمستخدمين فأحس القوم بهذه الآفة التى تهدد كيانهم فانشأ بعض المستنيرين حقيقة يستنكفون من تولى الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة اوكاد فى البحث عن الكفاة اذ لم يقبل عليها الا المتوسطون وزهد فى خدمتها النوابغ وما أنس لاأنسى وزيرا تعارفت اليه فى باريز ترك الخدمة وتولى ادارة مصرف صغير وكم فى الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فابى وآثر ان يكون تاجراً او صرافا او صاحب معمل او مدير شركة او محرر جريدة او استاذاً فى مدرسة على ان يكون وزيراً كبيرا يقدم ويؤخر فى مصالح امته ويحل ويعقد فى اقدارها . والامثلة كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين .

تم الجزء الأول

غرائب الغرب

الجزء الاول

الرحلة الاولى

الرحلة الثانية